



رواية روايات

# البشموري

سلوى بكر

المكتبة  
العلمية  
للثقافة



المشرف العام: د. أحمد مجاهد

مكتبر التحرير: مكرم شعاعه

رواية روايات

الشمس: (١) و (٢)

سلوى بكر

الطبعة الثانية، ٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٦١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٨٤

بريد إلكتروني:

egyptcouncil@yahoo.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٧١٠

التصميم والإخراج للفنان

عبدل رزق الله



إهداء ٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة  
القاهرة



إبداعات التفرغ

[٢]

رواية روايات

# البشوري

سلوى بكر





# البشموري

الجزء الأول



كنت ما أزال قائماً بعجن القربان، أعمل على ربه ربحاً جيداً لأتركه بعد ذلك ليخمر وقد غسلت ماجوره بالماء الطاهر، وكذا الغطاء والمنخل، وكان القسيس يقف على رأسى يقرأ عليه المزامير الداودية ويصلب. فلما بلغ مزمور حمد وراح يتلو «هتفى للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنم وكنت أحترز أثناء ذلك في العجن والرب، لأطمئن إلى أنه جيد في قوام الاعتدال، إذ بثاونا الشمس يأتي إلينا مسرعاً، ويقف إلى جوارنا بهدوء صامتاً متأدباً، فلما انتهى القسيس من قرايته، غطيت العجين بغطائه، الذى سبق أن طهرته مع الفرش ومنخل الدقيق، وختوم القربان، اقترب ثاونا منى، وأنا أهم بالانجاء إلى بيت النار الذى كنت قد حميته تمهيداً للخبز بفحم الكرمة اليابس وفقاً للأصول الكهنوتية، وقال هامساً فى أذنى:

– بدير. خلص عملك بسرعة، واذهب للأب يوساب فى التو والحال.

كان ذلك خلال واحد من أيام شهر يؤونه، الذى ما زال كثيرون من العلمانيين ينطقونه يؤونى كما كان فى اللسان الوثنى القديم، وكانت السنة هى السادسة، وربما السابعة للشهداء.

رحت أخلص العجين العالق بيدي وساعدى بسرعة وأغسلهما ببعض الماء من زير الغسل، حتى بان جلدى وظهر عليه وشم الأسد بلونه المزروق على الجانب الأنسى من ساعد يمينى، فاطمأنت وأسدت عليه كمّ ردائى الكهنوتى الذى كنت قد شمرفته وقت العجن، وعدوت خارجاً أقطع فناء البيعة إلى الجانب الآخر منه فى اتجاه قلأية الأب يوساب، فما إن فعلت وصعدت الدرجات البازلتية الثلاث، التى وضعت مؤخراً بدلاً من الدرجات الجيرية القديمة – وقد جاد بها على البيعة عبد كنسى صالح من هيرموبوليس بعد أن انتزعها من واحدة من برابى المدينة

القديمة، وجاء بها على حماريه من هناك؛ وفاء لنذر قطعه على نفسه - حتى دلفت إلى الدهليز الشرقي واصلت في النهاية إلى مقر نيافته، فوجدته مجتمعاً مع الكاهن والأرشيدياقن، وكافة الشماسية وبينهم ثاونا الشماس الذي ناداني، فتهيبت وطأطأت رأسي إجلالاً لهذه الحضرة الكنسية جميعها بعد أن ضربت مطانيا<sup>(١)</sup> في الأول، ثم إنني وقفت عند الباب في مطرحي، ساكتاً، فنظر إليّ الأب يوساب متأملاً إياي قليلاً، وبدأ لي وكأنه متردد في أمر من الأمور يتعلق بي، لكنه ما لبث أن رفع يده بالصليب وصلب، ثم قال لي بلسان قبلي بشموري بين:

- أيها العبد الطيب بدير، لقد اختارك الرب لمهمة كنسية مقدسة، عليك أن تتمتها بصدق وإخلاص على الوجه المطلوب منك دون زيادة أو نقصان.  
تمت بصوت خافت خاشع، راداً عليه باللسان الذي حدثني به، دون أن أرفع رأسي، وقلت:

- مشيئة الرب لا راد لها أيها الأب المغبوط.

ران صمت، ربما سمح بسماع أنفاس العصافير، قبل أن يضيف:

- ستذهب في تبعية الشماس ثاونا إلى الأراضي الموحلة، وتكون لسانه البشموري، وعليك أن تترجم له كل ما يمكن من كلام، فأنت تعلم أنه لا ينطق إلا قبضية أخميم مثل أكثر من هم هنا في بيعتنا، ثم عليك أن تكون عوناً له في كل خطوة يخطوها خلال مسيرتكما إلى هناك، ومنه لك الأخوة والاحترام، وله منك الطاعة في كل كلمة يأمرك بها، والملازمة مهما كان الأمر، ثم لا تنس أن أخوة المعمودية لا تنفصم إلى يوم الدينونة، والرب المحاسب وهو المحافظ أولاً وأخيراً.

هزرت رأسي دون أن أنطق هذه المرة، إذ اعتراني اضطراب بمجرد سماعي «الأراضي الموحلة»، وراح قلبي يضرب ضربات طير طائر في سابع سما، وسرعان ما تداعت صور الماضي في مخيلتي وتجسدت في عيني، عن مسقط

(١) مطانيا: تحية كنسية.

رأسى ومواقع طفولتى وصباى، لتجيش بنفسى فصول مأساتى القديمة، وبلوتى الأولى. انتابنى غمٌ عظيم، وكدت أهتف صارخاً: لا.. بريك يا سيدى يا من سيتتيح بالعظمة فى ملكوت الرب، اعفى من هذه المهمة التى ستعذب قلبى، ولن تقوى روحى عليها. لكنى خشيت أن أرمى بالعصيان، وأنهم بعدم الطاعة، فبقيت مكانى واجماً جامداً كأنى واحد من آل لوط الآثمين، وقد حلت عليه اللعنة فتحول إلى عمود ملح مثلهم، ويبدو أن الأب يوساب لاحظ سكوتى وبهاتى، وكنت وقفت أمامه مراراً فى بداية خدمتى بالبيعة للاعتراف بآثامى وخطاياى، أنا الذى عشت سنين فى العلمانية، مسكيناً ضالاً عن ملكوت الرب، إذ قال لى مطمئناً إياى:

- الكنيسة كانسة الخطايا والآثام ومنظفتها، وهى كانسة بيت النفس، وبيت النفس هو الجسد، وباب البين هو الفم، وتنظيفه لا يكون إلا بتلاوة المزامير الداودية الفايضة من أقنوم الروح القدس، له المجد، على لسان داود المغبوط، وقد طهر لسانه من القلب والنميمة والوقيعة فى إخوته، وأما حاسة السماع، فإنها تطهر بسماع الإنجيل المقدس المحتوى على التعاليم المسيحية والموعظات الزجرية، وأما حاسة النظر فتتنقى بالنظر إلى قدس الأقداس، والقون المصورة على مثال القديسين، والغيرة على سيرتهم والتشبه بجهادهم، وأما حاسة الشم فتتقدس باستنشاق البخورات المرفوعة باسم الثالوث السماوى، وأما حاسة اللمس فتتقدس بتقبيل كتب الرب على الجباه، وتقبيل الصليب المجيد أيضاً. فليكنس كل إنسان خطاياه بصلاته، وليتطهر إثم الآثمين بملكوت الرب الرحيم.

ثم إنه كرّر على طاعة الشماس ثاونا، والمواظبة كذلك على صلواتى، والتكثير من قراءة المزامير والأدعية، وسألنى ألا ألحف فى السؤال عما لا يخصنى، وإن سألت فلنكن سؤالاتى فيما يقوى إيمانى ويفيد المسيح، كما أمرنى ألا أغضب الشماس أو أرهقه، بل أكون فى خدمته ورعايته طوال الطريق إلى البشموريين فى الأراضى الموحلة، على أن يكون خروجنا من البيعة عند مطلع نور صباح الغد.

كانت لاتزال أمامى أعمال كثيرة يتوجب على إنجازها خلال نهار ذلك اليوم باعتبارى قيم البيعة، وقبل رحيلى فى صباح اليوم التالى. فبعد مغادرتى لمقام

أبينّا الجليل، قمت بغسل بلاط البيعة، والذي هو من أفخر البلاط الرومى المجلوب من قيسارية بفضل رجل تقي، كان قد عاش زمناً فى الطمث الخلقدونى، لا يعرف طريق الحق، لكن الله رده إلى حظيرته على يد أبينا يوساب، وكان غنياً مقتدرًا، فأهدى ببيعتنا هذا البلاط المجلوب، كما قمت بمسح كل قناديل البيعة، بخرقه الكتان التى أخصصها لذلك، وأزلت عنها ما علق بها من غبار وسناج، على أن أزندها عندما يحل الليل بزنادى من قنديل الشرق فى الهيكل؛ لأنه لايجوز أن يطفأ لا فى ليل ولا نهار حتى لا تدخل البيعة أو الهيكل نار غربية، لأن الذبائح الأولى كانت تنزل ناراً من السماء وتحرقها، وما ترى نار غربية تدخل معها.

وما أن انتهيت من القناديل، حتى درت لأتأكد من آلات الخدمة الأربع عشرة فى الهيكل، فتأكدت من ترتيبها فى مواضعها. ونظفت ما كان بحاجة إلى التنظيف منها، ثم إنى نظرتها جميعاً، وعدلت ما لم يعدل منها، وهى اللوح الموضوع، وهو موضوع مثال القبر، وكذا الصينية مثال المذود فى الطفولية، والتابوت الخشب الذى فيه الكتب، والخرق المكرزة اثنين، واحدة تحت الصينية والأخرى تحت الكأس الذى هو قسط المنّ المطل على الحامل له، وهو نظير اللغايب فى الموت والدفن، ونظير الخرق التى كان جسد سيدنا -له المجد- ملفوفاً بها فى المذود، وكذلك الكأس المركز مثال قسط المنّ، والملعقة المكرزة برسم التوزيع للناس الرجال والنساء؛ لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنة، والإبرسفارين مركز هو نظير الحجر الذى دحرج عن القبر فوق الجسد المدفون كما أنى نظرت السبعة التى بغير تكريز، منهم المنارة والكوز والطاسة والمجمره ودرج البخور والحامل الذى يوضع عليه الكأس والصليب، وكل ذلك موضوع فى قبة قدس، التى هى قبة القدس الجديدة.

وبعد أن انتهيت من ذلك صلبت ثلاثاً، وخرجت منسحباً فى هدوء وجلال، ماضياً إلى بقية أشغالى المقررة، باعتبارى العبد المسكين القيم بالبيعة، وظللت أعمل طوال اليوم بجد واجتهاد، حتى حلّ المساء، وجاء وقت القداس، وكنت قد

أنجزت أعمالى ببركة الله كلها، وتأكدت من سلامة القربان، وهو بخور الصعيدة المخلوط كما يجب باللبان، الذى كان قد قدمه المجوس إلى المخلص فى الهدية، والثانى السندروس لأنه لم يحمل لآلهة الأوثان الشيطانية قط، والثالث العود لأن فيه طرداً لأرواح الشياطين، والرابع الجاوى لأنه ذكى الراحية، وما يقدم الله إلا كل شىء جليل مرتفع، وقد حددت من بخور الميعة فإنها جالبة للشياطين أو غيرها من البخاخير. وكان خمر القربان الذى أعدته من أجود أنواع الخمر الذكى، قد صنعتته بنفسى فى البيعة، وهو سالم من الفساد، وهو خمر أبركا الذى عصرته من أول ثمرات الكروم، وهذا معنى أبركا باللفظ اليونانى كما علمنى ذات مرة- غزير المعرفة- ثاونا الشماس، وخمر العنب مكرس لرفع القرايين، وأما غيره من خمور التمر والفاكهة فللكهنة يتناولونه.

كما أنى وضعت الخبز الذى خبزته من أفرخ الدقيق وأنقاه فى فرن الكنيسة عند موضعه المقدس وقد حرصت على ألا يكون مشقوقاً لأن الشق عيب، وقد طحنت الدقيق من بر أوائل الثمار كما هو متبع فى قانون البيعة دائماً، فما إن بدأ قداس صلاة آجب<sup>(١)</sup> التاسعة<sup>(٢)</sup>، إذ كان الوقت هو الرابعة وثلاث دروج زوالية، حتى أسرع بالوقوف فى مقامى المسموح به، وكان الكهنة جميعهم قد وقفوا خورسان، أى صفان نحو، الشرق أمام الهيكل المقدس فى صمت وجلال، بحيث لا ينشغل أحد مع من هو إلى جانبه- بالحديث البطل - عن الصلاة، ولا يتكلم أحد فى أمور الاحتياج إلى ضرورات البيعة إلا رمزاً بالإشارة فى جميع الرتب، إما رمزاً بالأعين أو إشارة باليد تعمل ما يليق بذلك المكان الطاهر الجليل.

وكان جميع من فى ذلك الأكليروس قد وقفوا بملابسهم الكنسية المتفق عليها، وقد وضعوا الأفودات الصوف حول رءوسهم وارتدوا جميعاً التونية وهو ثوب الكتان الطويل الواصل حتى القدمين والمزين بالصلب المقدس على الظهر والصدر والحواف، وكذا أطراف الأكمام، وكانت تونية الأب يوساب هى الوحيدة

(١) آجب: ساعة باللغة القبطية.

(٢) الساعة التاسعة وفقاً لتقويم الشهداء القبطي، تقابل الساعة الرابعة بعد الظهر بالتقويم الميلادى والدرج هو خمس دقائق تبعاً لعمل الساعة الشمسية.

المطرزة صلبانها بالجواهر الكريمة من ياقوت وزمرد وماس وعقيق، بينما تونيات الأكليروس جميعاً قد طرزت من خيط حرير كما هو متبع دائماً، أما المنديل، فكان في يد الكاهن اليسرى، لأنه غير مسموح للشمامسة أو من هم أدنى منه بحمله أبداً، وكذا كان الكاهن يضع الغفارة وهي ما أصبح من الشائع الآن أن يقال عنها الجبة أو العباءة، بعدما ساد وانتشر لسان العرب وبات متداولاً دون غرابة في البلاد.

ولم تكن كنيسةنا تضع البيلوچيون مثلما يفعل في بعض الكنائس الأخرى من لف الرأس بالشريط الطويل من الكتان الأبيض، ولكننا كنا قد نتمنطق بالنطاقات الحريرية فقط عند أوساطنا، أما ذلك البيلوچيون فكنا نضعه على أكتافنا فقط، وكان البطرشيل يتدلى على صدور الكهنة والشمامسة وكذا على صدر الأب يوساب، وقد بدا غاية في الجمال والعظمة، وقد توشى من بدايته عند موضع إدخال العنق فيه وحتى نهايته بصلبان كثيرة، وكذا بصور التلاميذ الاثني عشر على صفين، ست صور بكل صف، وقد نقش بالخيط الحريري أيضاً النص الخاص بالكريس أعلى هذين الصفين، ومن المعتاد أن يكون عرض البطرشيل حوالى ثمانى عشرة عقلة سبابة، وهو من الحرير الأزرق البديع، أما أنا فكنت أرتدى الصدرية وكذا زميلى الآخر القيم فى البيعة، وهى ما يرتدى على هيئة البطرشيل ويدخل من الرأس أيضاً، لكنه لم يكن مزخرفاً مزيئاً بالصلبان والهيئات المقدسة للتلاميذ مثلما هو حال البطرشيل، أما الهنى كاماسيون، اللذان هما الكمان، فلم يكن الأب يوساب يرتديهما فى ذلك الوقت، الذى لم يكن وقت خدمة المذبح، وإن كنت أحب رؤية الأب وهو يرتديهما جداً، وهما يغطيان ساعديه بكاملهما؛ إذ يتسعان من عند الكوع ويضيقان مع الاتجاه نحو اليد، وهما من القطيفة القرمزية المطرزة بالنجوم والصلبان المشغولة بخيوط الفضة السمكية، وكذا بصورة السيدة العذراء والطفل المسيح، أما حوافهما فهى موشاة بالعبارات المقدسة، وقد طرزت بالخيط نفسه، ومنها عبارة «من له تعب من ملكوت السموات.. إلى آخرها، ويقال إن رجلاً قبظياً صالحاً من شطا، كان قد صنع



هذين الكمين منذ زمن الأسقف أكليمص السكندري، وشأهما على هذا النحو المتقن وقدمهما هدية إلى البيعة، وهما ما زالا مستخدمين حتى وقتنا هذا وبحالة جيدة وكأنهما صنعا اليوم فقط، وذلك بسبب شدة المحافظة والحرص عليهما من جميع الآباء الأتقياء الذين تلو ذلك الزمان.

بدأ الأب يوساب يصلى وفقاً لما اعتدنا عليه من صلوات متبعة في كتاب الأجيبة<sup>(١)</sup> ونحن معه منصرفون بقلوبنا وأرواحنا كلها للصلاة لا يشغلنا عنها شاغل، فلقد حدث ذات مرة أن شماساً شوش بالحديث إلى من في جانبه أثناء وقوف الخورس، وكان اسمه إيليا، فعاقبه الأب يوساب بأن حطه من درجته ثلاثة أسابيع، وعوقب بسبب ذلك، لأنه لم يكن مثابراً على الصلاة ووقع في الطياشة والحديث الفارغ، أما الضعفاء العجائز من الأكليروس والذين لا يقوون على الوقوف في الخورس، فقد جلسوا كما هو متبع دائماً غربى البيعة.

كنا قد غسلنا أقدامنا جميعاً قبل الصلاة في إناء النحاس الموضوع به ماء التطهير والقائم على مطهرة الخميس الكبير، وقد شهدت بذلك التوراة، إذ إنه كان في القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس في قبة الزمان.

ثم إن الأغسطس قرأ من العتيقة من المزامير، وطرحاً من المزمور، وأخذ الأب يوساب يرتل ترتيلاً جميلاً ونحن نرتل خلفه الناذوكيات الجليلة وننشد تسابيح العذراء المقدسة، وموضوعات كتاب الرب، على ألحان شجية تحنن القلوب وتفتح النفس للإيمان، وكان للأب يوساب صوت نقى عامر بالخشوع وكأنه صوت كروان يسرى في سماء صافية، فكانت القلوب تنشرح له، فأخذت أستمع إليه وقد وقفت أقدس مع المقدسين، علماً بأن شغلى في الكنيسة ليس الصلاة لأن الصلاة صلاة، والشغل شغل، وربما عاد على من شغل البيعة قوت جسماني، ولا يقوم شغل البيعة مقام الصلاة، لأن الصلاة ما يقوم مقامها في غيرها إلا هي.

---

(١) كتاب الأجيبة: كتاب الصلوات القبطية.

بعد الفراغ من الصلاة وتفرّق الجميع، رحت أدور والقنديل فى يدى على أبواب البيعة لأطمئن إلى حفظها، حتى لا يعبر منها ممنوع أو مخالف أو ديب خاطف من غير يقظان، أو حيوان مثل كلب نجس أو حمار سائب وبقيت منصرفاً إلى أشغالى وقد بدأ الغروب فى الدخول، فسارعت بتنظيف أرضية الفناء وغسلها، وكذلك فعلت بأرضيات الممرات و الدهاليز، فلما انتهيت اغتسلت جيداً وتطهرت بماء طاهر سبع مرات وأنا أستعيز بالرب من الشيطان، ثم ذهبت إلى ثاونا الشمس، وكان قد أوما لى برأسه قليلاً أثناء الصلاة، مثلما يفعل عادة، عندما يريدنى فى أمر من الأمور، نقرت على يابه نقرأ خفيفاً مستأذناً، بعد أن عبرت الدهليز كله على أطراف أصابعى لئلا يسمعنى أحد، إذ كانت قلايتى بعيدة عن مكان قلايته فى نهاية الطرف الآخر من الدهليز، فلما جاوبنى دفعت الباب الخشبي وحرصت على ألاّ يصرّ حتى لا ألفت الانتباه، ودلفت منه لأجلس قبالة على فراشه الأرضى الممدود.

كان ثاونا من أقرب الناس إلىّ فى البيعة منذ حلولى بها قبل ست سنوات، وهو الآتى إلى ملكوت الرب بعد أن تطهر من خطية لا أعرفها، وإن شاع عنه - وهو المولود جسمانياً فى أنطونيوبوليس، أنه كان فى الأصل هرطقياً، يقول بالعرفان عن طريق اتحاد العارف بالمعرّف، لكنه دخل حظيرة الرب بعد ما تطهر وتاب، وظهرت له الحقيقة على يد راهب تقى يدعى الأنبا موسىس، وكان قد التأت بعض الوقت لسبب أجله، فقرأ عليه الأنبا ومسحه بالزيت الفلسطينى فبرئ لساعته، ونذر نفسه لدير الراهب وهو دير الأنبا باخوم المعروف، فعاش هناك زمناً، ثم إن الأب يوساب طلبه إلى بيعتنا هذه فى قصر الشمع بمصر العتيقة، حتى يصور السيدة العذراء والقديسين فى قون، يتعظ بها الشعب عند مطالعتها مرسومة على جدران البيعة، وكان الشمس ثاونا قد اشتهر وذاع صيته فى رسم القون وإجادته لتصوير القديسين والشهداء الأوائل، ويقال إنه كان قبل أن يلتأت ويلتحق بالدير، يتعيش من عمل صور الناس على التوابيت، والتى يدرجونها لوقت موتهم، كما هو الشائع، وكانوا يجعلون له مقابل مهارته فى عمل ذلك جعلاً

من الخبز والجبن والخمر والغلة يجعله يعيش عيشة مسمتورى الناس فى بلدته الصعيدية التى قدم منها إلى البيعة.

كنت أحبّ ثاونا لأنه كثير العطف علىّ، ولأنه كان سمح الوجه وإن كنت لم أره ضاحكاً قط، لأن الضحك لا يتناسب مع النسك والورع داخل البيعة، وكان ثاونا عشرياً بطبعه، بسيطاً فى تعامله سواء معى أو مع من هو أدنى منه فى الرتبة، إضافة إلى أنه واسع العلم، كثير المعرفة، يتحدث قبطية أخميمية وعربية جيدة، إضافة إلى قبطية بحيرية كالتى يتحدثها أقباط الإسكندرية ومربوط، لكنه لم يكن عارفاً باللسان البشمورى رغم علمه باللسان اليونانى، الذى قال لى -ذات مرة- أنه تعلمه فى المكتب، ورغم أن فضله وأعماله الطيبة كانت ظاهرة للجميع وخصوصاً فى الطبابة وعمل العقاقير، فإن البعض هنا فى هذا المكان المقدس ظل يحاول تلطيخه ورميه بالأقاويل، فقد وصموه بالسحر تارة، وبالعلمانية تارة أخرى، وراحوا يتداولون ذلك سراً دون أن يمسكوا عليه ممسكاً يثبت أقوالهم، والحق أقول إن ثاونا كان خيراً لا يصدر عن فمه ما هو قبيح، بل إنه علمنى الكثير، وانعقدت مودتنا منذ أن كان يشتغل بصنع صورة القديس قلته الطبيب الحكيم، وهو يمسك بيده اليمنى قضيباً يشير به إلى صندوق طبابته وقد فتح غطاؤه وانكشف ليبين منه ستة أقسام لوضع الدهون والعقاقير، وكنت أنا أساعده أثناء ذلك، وقد فردت معه القماش على الخشب منعاً للتشقّق، ثم نثرت فوقه بطانة الجص التى جعلتها لطيفة رقيقة مثلما طلب منى، وبعد أن جفت وتماسكت قام ثاونا بتغطية الجص بالتبر، الذى أعده من مزج صمغ العرب المجلوب من بلاد اليمن بقليل من الماء، وصفار بيض البط السودانى وبعض الحنوط لزوم البركة، وقد أدركت خلال ذلك طريقة ثاونا العجيبة فى الرسم، والتى قال لى إنها من الطرق القديمة المتوارثة لدى الرسامين الأقباط، وأيتها أن توضع ألوان أتربة المعادن المعروفة كالحديد والنحاس والزنك فى مواضعها المختارة بالصور، وفقاً لضرورتها فوق طبقة التبر المعمولة والمغطى للبقعة كلها، وذلك بعد أن تدق هذه الألوان وتصحن فى أجران جرانيتية كرسى لهذا الغرض، ثم إن كل لون منها يمزج بالماء البحرى الطهور بالسماكة المرغوبة حسب الذائقة،

وتكون الصورة قد أعدّ هيكلها قبل ذلك وتحدّدت بعد نحتها بمسّمار حديد مما يصنعه الفجر الجوّالون بالبلاد، وهكذا بقى الصليب ذهبي اللون على الجانب الأيمن من الصورة، وبقيت عصا الرعاية الذهبية الطويلة على جانبها الأيسر كذلك.

وأنا أقول إن ثاونا جيد الإيمان غزير المعرفة، لا يصدر عن فمه إلا القول الطاهر، لأنى كنت قد سألته أثناء صناعته هذه الصور سوالات عدّة كانت تشغلنى، خصوصاً عندما رأيته يرسم القديس قلته بصحة وافرة، ووجه جميل صيبح، وملابس متناسقة زاهية، فقلت له معبراً عن أمر كنت قد كتمته فى صدرى زمناً:

- أريد أن أسألك أيها العزيز ثاونا عن أمر شغلنى دوماً، إذ كنت قد شاهدت ذات مرة - فى كنيسة تعود للملكانيين الهراطقة ببلد قريب من قريتى ترنيط - صوراً من صور الجحيم وقد امتلأت بالشياطين المخيفة وأساليب العذاب، وكذا كان السيد مصوراً وهو على نحو غاية فى الضعف والهزال، وقد صلب على صليبه، والدم ينزف من جسده وعلى رأسه تاج الحسك الشنيع، أما وجهه فكان يفيض ألماً وحزناً إلى حد أننى جثوت تحت الصورة ورحت أبكى تألماً وحزناً، فما بالنا نحن الأقباط لا نرسم السيدة البتول والسيد له المجد إلا على أجمل صورة وأكثرها شحاً للصدر، ولعلنى لم أر أبداً صورة من صور الجحيم أو الشياطين وقد رسمت على جدار من جدران كنائسنا، قل لى أيها العزيز بريك: أهذا أمر يخص العقيدة، ويدخل ضمن ما يفرق كنيسةنا القبطية اليعقوبية عن كنيسة أولئك الملكانيين؟

رد ثاونا بهدوء، ودون أن يستدير أو يرفع عينه عن موضع الدهان الذى كان يدهن به ثوب القديس بالأزرق:

- لا يا بدير، هذا أمر لا يدخل فى فروق العقيدة من ناحية الفروع مثلما هو الحال فى القربان مثلاً، ولم يجتمع له مجمع للنظر فيه، فلعلك تعلم أنهم يقورون القربان حال القداس عليه، والسيد المسيح وقت إعطائه جسده الطاهر لتلاميذه ليلا

صليبه وآلامه لم يقور الرغيف، لكن الإنجيل المقدس يقول إنه أخذ خبزاً وبارك وكسر الرغيف وناول تلاميذه، ولم يقل إنه أخذ جزءاً من رغيف وبارك عليه وناوله وكان مقوراً بالسكين كما يفعلون هم، ونحن ما لنا غير المماثلة به، كل ما صنع نصنع مثله، لكن ما تكون عليه الصور من حال الترهيب أو الترغيب، فهذا ما يتعلق بخصال الناس وخلاف ذائقتهم من مكان إلى مكان، وفقاً لما ربوا ونشأوا عليه من لين المعشر، ورقّة الطباع، فصور القديسين والقديسات إنما جعلت على سبيل التذكرة والموعظة والافتداء، أما صورة السيد المسيح - له المجد في الأعلى - وأمه البتول - فقد جعلت كي يحفظه الناس ويحفظونها، وصار الآباء البطارقة يرشمون كل صورة بالميرون المقدس في عدة أعضاء من الصورة لكي تقبل من الناس عند طلبهم الاستشفاع بتلك الصورة، والقصد في ذلك أن المحسوس لا يألف إلا المحسوس مثله.

ونحن نصوّر القديسين، وكذا السيد والبتول كيفما نرى على أجمل وأفضل ما يكون لتحنين القلوب وتعميرها بالإيمان، وكذا نعمل لتبدو قوة إيمانهم لدى الشعب؛ فيتجلد ويصبر على ما هو فيه إذا ما ضعف إيمانه أو اهتزت عقيدته تحت وطأة الزمن، واعلم يا بدير أن الخلقودنيين الملكانيين يصورون الشياطين وزبانية الجحيم حتى يخيفوا الناس ويرعبوهم بالآخرة، ليتسلط من يريد التسلط عليهم باسم الرب، أما نحن اليعاقبة أصحاب الديانة الحقّة، فالآخرة هي النعيم بالنسبة لنا، وما تصويرنا للقديسين وهم غاية في الرفعة والمجد وقت انتصارهم إلا لإيماننا بأن النسك والورع هما طريق نسلكه إلى آخرة النعيم، لذا فأنت ترى كيف تكون دائماً صورة القديس مارجرس وقد اعتلى فرسه وراح يسحق التنين الشنيع بحريته، ولعلك تلاحظ أن كل صور القون جميلة مذهبة، تبرز أجل حالات الطهر والبشاشة لولاء الأبرار أبناء يسوع.

ورغم كل ذلك الإيمان القويم والعلم الغزير فإن البعض لم يكف حتى الآن عن مراقبة ثاونا وتتبع كل خطوة يخطوها هذا الأخ الطيب، حتى يمسك عليه ممسكا قد يورده إلى التهلكة ويؤدى إلى طرده من الكنيسة فيفارق ملكوت الرب وحظيرة

الأبرار ويعود كالأشاة الضالة فى البرية بعيداً عن القطيع، لذا دخلت عليه متسحّباً حريصاً على ألا يرانى أحد عنده، فيشيع عنا التآمر أو يرمينا بشبهة الطمث اللوطى المردول، وما أن اطمأنتت إلى انعدام من رآنى وأنا أدخل إليه، حتى رحبت ألقط أنفاسى الضائعة وأنا أهمس له وجلاً:

- ثاونا.. لأى شىء طلبتنى يا عزيز عينى، وأنا سأخرج معك صبيحة الغد إلى الأراضى الموحلة كما أمر أبونا يوساب؟ كان قمر بؤونة المكتمل فى سمائه النقية الرائقة قد جاد علينا ببعض من نوره عبر كوة القلاية الضيقة التى فتحها ثاونا لتدخل الهواء فى هذه الليلة من آخر شهور الربيع، وقد أعانت النسمات الحارة عن مقدم شهور الصيف شديدة الحرارة، وهكذا استطعت أن أتبين جانباً من وجهه، وقد بدا مهموماً وهو يقول:

- طلبتك كى أقول لك أن تحترز للأمر يا بدير، فرحلتنا فى الغد إلى أراضى البشموريين لن تكون سهلة، لأن الأراضى الموحلة التى سنعبّرها سرعان ما سوف يغمرها ماء الفيضان، وهذا سيجعل سفرتنا صعبة، قد نواجه فيها بما لا نتوقعه، ناهيك أن الحرب دائرة هناك على أشدها بين عسكر الوالى والأهالى، وما زال العسكر ينهزمون كلما كروا على هؤلاء الفلاحين، ولا يدرى أحد ما سوف يحصل، وأظن أن أبانا سوف يحملنى رسالة إلى زعيم البشامرة، لأنه قال لى قبل اجتماع الأكليروس به إنه سيجعلنى رسوله فى أمر مهم غداً، وكنت قد سمعت أنه ذهب إلى والى البلاد فى القسطاط منذ يومين واجتمع به بناء على طلب الأخير، وربما طلب الوالى من أبينا الوساطة مجدداً مع البشموريين حتى يرجعوا عمّا هم فيه ويدفعوا الخراج.

لقد اختارونى خصيصاً لهذه المهمة لأنها غير مأمونة، وربما كانت فرصة موأتية لبعضهم فيتخلص منى، فأنت تعلم أنهم يصرون أن أبقى فى أدنى مراتب التشمسة رغم خدمتى وإخلاصى الحق منذ التحاقى بالبيعة هنا، أما أنت فلن تجدوا أدرى منك بمعرفة مسالك الأراضى الموحلة، ومعرفة اللسان البشمورى الذى هو لسانك بالميلاد، ولسان حياتك الأولى الذى لا أعرفه أنا، ولهذا اختاروك لترافقنى وتكون لسانى مع البشمورى عندما يلزم الأمر.

كنت أعرف أن ثاونا يلاقى الكثير من العنت هنا فى البيعة، ولو كان كسرابيون الشمس غنياً مقتدراً، وجود على البيعة بماله بين الحين والحين، لكان ترقى فى الأكليروس سريعاً وصار أرشيد ياقن على رأس التشمسة، يجوز له حمل عكاز البطريرك، لكنه ورغم سنواته الطويلة فى البيعة ورغم علمه الواسع وتقواه البينة لكل ذى عين ترى وقلب يحس لم يترق بعد فى الأكليروس، وهو مع ذلك صابر على الأمر لا ينقطع عن الصلاة والصوم، والتلاوة والتقديس، والقراءة والتعمق فى اللاهوت، وتشهد على ذلك لفائف البردى، ورقوق الغزلان المكتوبة بالأخميمى والعربى واليونانى، والموجودة فى كل موضع بقلايته، وثاونا لا ينقطع عن صيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع كما جرت العادة بالنسبة للرهبان فى الأديرة، وهو يحمل وفقاً لرتبته كأس دم المسيح الذى صار بالقدس، وكذا الملعقة لتوزيع الدم الزكى لشعب الله، وهو الذى يقوم بقراءة الإنجيل على الأنبل إذا لم يقرأه القسيس ويقول Byaoticon، ولا يقول Keeyaoticon لأن هذه اللفظة الأخيرة ما ينفرد بها إلا الكاهن فقط، فإن له البركة على الشعب، لا الشمس. وكان ثاونا مجداً كثيراً وفقاً لدوره الكهنوتى فى افتقاد المرضى والآيتام والأرامل، وكذا المسجونين، حتى إنه كان يعدى بحر النيل فى عز طلوعه وقت الفيضان أيام شهر مسرى، والشمس وقيدة نار، ويذهب فى الفلايك إلى برّ الجيزة، رغم خطر المياه فى ذلك الوقت، ويزور المسجونين الأثمين فى سجن يوسف هناك، فيخفف عنهم ويوزع عليهم العطايا والبركات، وفى واحدة من زيارته السجن كان هناك جماعة من الناس قد أخذوا بجريرة إقامتهم لشعائر وثنية فى بربا بعيدة بصحراء هيلوبوليس، فقبض عليهم حراس الدولة وساقوهم إلى السجن بتهمة السحر وعمل الطسمات والشغل بالكيمياء والسميماء، وظل متولى السجن يعذبهم ويعصرهم، ظناً منه أن لديهم أموالاً وذهباً أخرجوه من هذه البربا، وكان من جملتهم النساء، فلما لم يتوصل إلى شىء معهم تركهم بلا ماء أو طعام حتى أوشكوا على التلف من شدة الجوع والعطش، وتصادف أن كان الشمساس ثاونا خلال ذلك فى زيارة للسجن وفقاً لعادته فى عيد العنصرة، فأطعمهم وأشربهم مما لديه من الطعام والشراب المجلوب معه للمسجونين، فصحوا وتابوا، ثم إنه دفع

لمتولى السجن مالأً وخلصهم منه، فصرف جماعة منهم إلى شئونهم، وعاد بجماعة أخرى، ودفعهم إلى أعمال البيعة، فاشتغل بعضهم فى المعصرة المخصصة للزيت وبعضهم فى بساتين البيعة الكثيرة المجاورة فعاشوا وصحوا، وحصلت البركة لبيعتنا بذلك الفعل الطيب لهذا الشمس التقى ثاونا.

رحت أنظر إليه محاولاً استجلاء ملامح سحنه الكريمة تحت ضوء القمر، وقد شعرت بأنها اكتست بنورانية وسكينة إيمانية خالصة، وسرعان ما انقبض قلبى، إذ رحت أتخيل حدوث مكروه له خلال رحلتنا، فقد كنت أحبه وأجله، بل وأعتبره ملاذى الوحيد فى كثير من الأحيان، خصوصاً عندما يأخذنى الغم والندم على حياتى العلمانية السابقة، ويفيض بى الألم، إلى الحد الذى لا أطيعه وأحتمله فأبكى بكاءً مرأً وأتمنى الموت على الحياة، خصوصاً لما أتذكر أهلى وناسى وما كان من أمرى معهم.

قلت لثاونا، أطمئنه وأنا أرسم بيدى صليب الرحمات:

— لماذا تفترض أننا سنهلك أثناء الرحلة يا ثاونا؟ ولماذا تقول إنهم يريدون التخلص منك؟ أنا أعرف طرق الأراضى الموحلة جيداً، فلقد ولدت وعشت كل حياتى الأولى فيها، ونحن الآن فى المعمودية، يعنى كل إنسان سيرانا بلبوس كنسية أثناء الطريق، لن يعترضنا أو يسبب لنا الأذى، ولا بد أن يكون والى المسلمين فى الفسطاط قد أعطى علامة لحراسه كى لا يعترضوا سبيلنا، بل ليقدموا العون لنا، طالما نحن فى مهمة تخص أبينا يوساب، ألت معى فى ذلك أيها العزيز ثاونا؟ ثم لا تنس أننا لا نحمل مالأً أو ذهباً، فيظن بنا الظنون، ونعرض لبعض اللصوص أو قطاع الطرق، أما البشامرة فهم قبط مثلاً ولن ينالنا منهم سوء، وفى أسوأ الأحوال يا سيدى، إذا لم يصدقونا، سنشمر لهم عن سواعدنا، فنريهم عليها وشم الأسد، فيطمئنون لأن حالنا مثل حالهم تماماً.

خلت — فى ظل الضوء الشاحب — أن ثاونا قد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مشفقة عند ذكر الوشم، وإن ظل صامتاً لا يقول شيئاً لبعض الوقت، لكنه أخيراً تنهد بمرارة، وقال:



– المسألة ليست فى مخاطر الطريق يا بدير فهذه نستطيع مواجهتها، لكن المشكلة فى البشموربين ذاتهم، فأنت تعلم أنهم قد وصلوا إلى حد يصعب العودة عنه، منذ أن بدأ نزول الغلاء بكورة مصر، وأنت تعلم أنه ما زال يعمل فى الناس، حتى إن القمح بلغ خمس وبيات بدينار خلال هذه الآونة، ومات من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع، ومتولى الخراج ما زال يؤذى الناس فى كل مكان، وأكثر البشموربين كان يعذبهم عذاباً شديداً إلى أن باعوا أولادهم فى الخراج من كثرة العذاب، فقد كانوا يربطونهم فى الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذى يعذبهم رجل اسمه غيث، وتمادت عليهم الأيام وانتهاوا إلى الموت، فلما نظر أهل البشموربين أن ليس لهم موضع يخرجون منه، وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه، وما يعرف طريقه إلا هم؛ بدأوا ينافقون ويمتنعون أن يدفعوا خراجاً واتفقوا وتأمروا على ذلك.

ومتولى البلاد يشن عليهم بعسكره ويفتك بهم ويقتل الأبرياء بجريرة المفسدين إلى أن ما بقى أحد يراه إلا قتله، وقتل جماعة من أراخنة النصارى فى كل موضع، وها هم البشموربون تموا مؤامرتهم وصنعوا لهم سلاحاً وحاربوا السلطان وحجموا نفوسهم أن لا يدفعوا خراجاً، فكل من يمضى إليهم ليتوسط حالهم قاموا عليه وقتلوه، وأصبحوا لا كبير لهم ولا خشية من أحد، فلما نظر أبونا البطريرك أنبا يوساب حزن على أولئك الضعفاء لأنهم لا يقدرّون على مقاومة السلطان، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم، فبدأ المهتم بخلاص شعبه الأمين بالحقيقة يرسل إليهم الرسل ويذكر لهم ما يحلّ بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان، فلم يرجعوا، وكان الرسل يقولون لهم ما قاله الأنبا يوساب على لسان العطر بولس: «كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذى يقاومه يدان».

وها هو يحملنى رسالة جديدة إليهم، ولعلك تعلم أنهم قد أهانوا وضربوا من سبقونا من رسل أبينا قبل ذلك، بل وكادوا أن يفتكوا بأسقف أصنطا عندما أرسله

أبونا إليهم، بل ووثبوا على الرسل ونهبوا كل ما معهم، فعادوا إلى أبينا وعرفوه ما جرى عليهم، وأنت لا تترك ما يفعله الجوع في الإنسان، وكيف يحوله من الحالة الإنسانية ويدخله في الطور الوحشى، وأبونا غاضب جدا بسبب ذلك، وقال إن لم يرجعوا ويرجعوا عما هم فيه فلن يبطئ عنهم الهلاك، بل سيتم عليهم ما قاله النبی أشعيا: «إني أسلمكم للسيف، ويقع جميعكم بالقتل لأني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وفعلتم الشر أمامي» .

ولأجل هذه البلايا والأحزان المذكورة، ما تمكن الأب البطرک أن يكتب سنوديقاً إلى شريكه في الخدمة والأمانة بطرك أنطاكية، وكان مهتماً بذلك أكثر مما ناله من التجارب، فإنه لم يجد راحة يوماً واحداً، ومع ذلك فأبونا ما زال حزينا خائفاً على أولئك الضعفاء المساكين الذين لا يعرفون عواقب الأمور ومغيبات فعلهم، لذلك لما سمع أن الوالى لم يعد يحتمل تمادى البشموريين، وأنهم لا يعودون عن فعلهم، وكتب إلى الخليفة في بغداد ليعلمه بما جرى، فقد أدرك أنها ستكون الطامة الكبرى، إذا ما جاء الخليفة بنفسه لأنه لن يرحمهم، ولن يتركهم إلا بعد أن يجهز عليهم تماماً؛ لذلك فأبونا يرسلنا إليهم غداً بكتاب ينصحهم فيه ويحذرهم ويطلب منهم العودة إلى طاعة الأمير ودفع الخراج، لكن المشكلة يا بدير قد أن هؤلاء يتصرفون معنا بحماقة، وربما قتلونا لفرط غضبهم وضيقهم، وفي هذه الحال يكون أولئك الذين لا يريدون وجودى هنا فى البيعة قد حققوا مأربهم وتخلصوا منى وقد جاءتهم على الطبطاب.

ثم إن البشامرة يا بدير - على ما أظن - لا يصدقون كلام أبينا، ويظنون أنه لا يهتم إلا بأمان البيع والمحافظة على ممتلكاتها، وهذا ما قالوه وجأهروا به لكل الرسل الذين أرسلهم أبونا إليهم قبلنا.

والأخطر من ذلك أن كثيراً من قبائل العرب أخذت تثور فى غرب البلاد أيضاً، وأن بعضاً منها أخذ ينضم للبشمورى فى أسفل الأرض، ولعلك سمعت من هنا أو هناك عما جرى من أمر العرب، فقد انتفضت بعض قبائل القيسية واليمانية سواء بسواء، ورفضوا دفع الخراج، وكانوا قد قدموا ضمن من قدم من قبائل العرب إلى أرض مصر واشتغلوا بالفلاحة وتوطنوا بأراضينا، فحل عليهم الخراج مثلما

يحل على الفلاحين القبط، فلما اشتد ظلم متولى الخراج وزاد فيه زيادة لم يعودوا يطبقونها انتفضوا جميعاً حتى إن أمير البلاد اضطر لإرسال جيش لهم، نزل بنواحي بلبس وحاربهم بعد أن ثار أسفل الأرض له، وقد سمعهم يتحدثون هنا يا بدير عن أن خليفة المسلمين ساخط جداً بسبب ذلك، وغاضب على أمير البلاد بسبب كل هذه الحوادث، ويهدده بلبس البياض عقوبة له، وكذا يحل لوائه؛ لأنه لم يحتط للأمر، وتسبب في كل هذه الثورة، ويقال إن الخليفة أرسل له برد على رسالته يقول فيه: لم يكن هذا الحدث العظيم (ويقصد عصيان الناس) إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

وهناك أخبار أن الخليفة عازم على وضع حد لكل ذلك بنفسه، بل ويقول البعض إنه خرج من بغداد، وسير جيشه إلى بر مصر للوقوف على الأمر بنفسه وإيقاف العصيان، وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، حتى ولو تطلب الأمر قتل ناس عديدين، خصوصاً وأنه أذاع أنه لن يحصل الخراج إلا على حكم الإنصاف في الجباية، وهذا معناه أن الخراج لن يزيد بأى حال من الأحوال عن أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار.

نهض ثاونا فجأة وفتح باباً صغيراً في جدار قلايته، قلب فيه بهدوء واحتراس، دون أن يحدث أدنى صوت يمكن أن يسمعه أى كائن خارج القلاية، فلما عاد وجدت بيده خنجراً صغيراً، التمع نصله تحت نور القمر، قدمه لى، ثم قال وهو يلهث:

— خذ هذا، واخفه بين ثيابك بسرعة، واجعله معك عندما نخرج باكراً في الغد، واحرص على ألا يراه أى مخلوق كان مهما كان الأمر.

أخذت الخنجر منه بيد مرتعشة وتأملته قليلاً تحت النور السماوى الداخِل إلينا، كان قصيراً متيناً معقوف الطرف، كذلك النوع من الخناجر الذى يرى مع المسلمين ويقال له صنعانى، وكنت مضطرباً جداً، قدسسته بسرعة تحت زنارى الكهنوتى بداخل ملابسى، ووضعت يدى عليه، وقد انبهرت أنفاسى، إذ هب لى

أننى سمعت حفيف ثوب، ووقع نعل خفيف خارج القلاية فى الدهليز. بقينا صامتين أنا وثاونا، ثم ذهب ثاونا وأطل على الدهليز من الباب، فلما تأكد أنه لا أحد هناك، عاد وهمس:

- اسمع يا بدير، إذا كان لديك مهم عزيز فاحمله معك، لأن الرحلة خطيرة وقد يحدث ما لا يحسب له حساب.

لعب الفأر فى عبي، فقلت:

- الخطر فى كل مكان الآن يا ثاونا، كل شىء مضطرب، ولم يعد أحد يعرف رأسه من رجليه فى هذا الزمان، فكل شىء يتغير سريعاً، وما كان بالأمس مرئياً بالعين ملموساً باليد، يصبح اليوم وكأنه لم يكن، وربما تغيرت ملامحه حتى يصعب على الإنسان معرفته مرة أخرى.. فليرحمنا الرب أيها العزيز ثاونا.

رد بسرعة وكأن كلامى قد مس جرحاً بداخله، وحثه على أن يفضل ما كان مكنوناً بصدرة:

- أجل يا بدير هذا زمان صعب، فكل شىء الآن فى صراع وقتال، فالبشامرة يزيدون من تمردهم ويردون عساكر الوالى مهزومين المرة تلو الأخرى، والعرب يقاتلون فيما بينهم، وحتى كنسيتنا لا تخلو من صراعات بداخلها، والروم أتباع خلقدونية الطمث يتلمظون على كنيستنا طوال الوقت، وهم لا يكفون عن دفع البراطيل والبذل للوالى حتى يسلمهم كنائسنا ويستولوا على ممتلكاتها وتكون لهم الهيمنة والإمرة على أهل الدين فى البلاد كلها، بينما الوثنية ما زالت بالديار تسرى، غير مقطوعة الجذور، خصوصاً فى تلك المناطق البعيدة عن المدينة، وقد سمعت مراراً أن هناك من لا يزال يكرس هياكل الوثنية ويقدها، وفى بعض الكور ما زال هناك مجوس يعبدون النار، كانوا قد بقوا بالبلدان منذ زمن طويل وقت قدوم الفرس، أما أهل كورة النوبة من السودان، فقد أخبرنى بعض العارفين الذين وطئوا أرضهم أن فيهم من يعترفون بالبارى سبحانه ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنته من شجرة أو بهيمة.

وأنت تدرى يا عزيزى أحوال كنيسةنا مع أتباع البدعة الآريوسية التى ما زالت توجد فى البلاد ومن يدين بدين الطمث الخلقدونى من كنائس ملكانية تصارع ضدنا وضد الإيمان الحق وتسعى بالسعايات ضد كنيسةنا لدى الحكام والولاة، إن الإنسان منا صار فى حالة من البلبلة والعجز، لولا بعض من إيمان يحميه، ويدخله بحر عاتٍ مضطرم، وقد تنازعتهُ الأهواء وشنتته الأفكار.

تنهدت وأنا أتمم وأنسحب خارجاً من القلاية:

— أجل يا ثاونا العزيز، فليرحمنا الرب، ويحمينا من هذه الأيام الصعبة والأيام القادمة المجهولة.

ثم إنى ألقيت عليه تحية المساء، إذ صرت عند الباب، وبينما كنت أعبر الدهليز ماشياً على أطراف أصابع قدمى، خوفاً من أن يرانى أحد، خيل إلى أننى سمعت حفيف ثوب وتردد أنفاس فى ظلمة المكان الحالكة، فصلبت مرتعداً وأنا أفكر فى الكلمات «فالواحد منا بداخله بحر عاتٍ مضطرم، وقد تنازعتهُ الأهواء وشنتته الأفكار».

بت ليلتى ساهراً قلقاً داخل قلايتى، مهموماً برحلة الغد إلى الأراضى الموحلة، وكان مبعث خوفى وهجسى هو العودة إلى مسقط رأسى ومرتع صباى مرة أخرى، بعد أن تركت بلدتى هناك، وكانت تسمى ترنيط، وخرجت أهيم على وجهى هارباً وقد تركت أبى وأمى وأسرتى كلها بسبب كرى وضيقى من حال الدنيا، بعد أن سعى أبى الجسدانى إلى تزويج أخى الأكبر من تلك الجميلة التى طالما هواها قلبى ولم يغب عنى يوماً مذاق عشقها الأسر، ولم يكن عالماً بما كان بينى وبينها ورغبتى فيها، فلما أنلقت الحبيبة نفسها وكان اسمها آمونة —بأن ألقت بنفسها فى السبخة الواسعة الموحلة الخطرة، حتى أغرقتها وغابت تحت طينها السائل، دون أن يستطيع إنقاذها أحد، عشت زمناً فى اللوعة لفقدائها، وأكل اليأس روحى شيئاً فشيئاً، حتى سلمنى للصنياع، وكنت وقتها فتى يافعاً فى السابعة عشر من عمرى، فأخذت أقول لروحي إنه لا جدوى من هذه الحياة، ولا معنى لها، فهى شئ كالكذب، لا يقين فيها، ولا أمان لأيامها، فهى تظهر للمرء وجه السعادة ذات مرة، لكنها سرعان ما تريه جل التعاسة فى مرة أخرى، وكنت أقول

ذلك وأنا أتذكر كل الأوقات الطيبة التي أمضيها سوياً، خصوصاً قبل أن تفاجئنا الحياة بما لا نشتهي، فقد ظللنا شهوراً طويلة نتلاقى، ولم يكن أبى قد طلب من أهل أمونة تزويجها لأخى بعد، ولن أنسى ما حييت آخر مرة التقيت فيها هذه الحبيبة الغالية قبل علمنا بهذا الخبر الخطير، إذ كنا نعمل سوياً فى غيط القلقاس تبعية أبى؛ لأن أمونة وأهلها كانوا يعملون جميعاً فى غيطان أبى الذى هو من مياسير الفلاحين، وكان نظرى لا يغيب عنها أبداً وقد مالت تجمع الحشائش وتنظف الغيط، وأنا لا أفرق بين لون خدها الوردى الجميل وبين زهر القلقاس المنتشر هنا وهناك، فافتربت منها وقد هاجت مشاعرى ورغبت فيها رغبة لم أستطع لها سبيلاً؛ فقلت هامساً لها:

- أمونة .. حبيبتي أمونة، فلنذهب سوياً بعيداً عن هنا بسرعة فأنا أريد أن أكون معك الآن، سأذهب أنا أولاً ثم أتبعينى حتى لا يشعر أحد. كان الوقت وقت ظهيرة تقريباً، وكانت الرطوبة قد تصاعدت وباتت الأجساد لزجة مترطبة، فلما وافقتى داخل الدروة التى طالما كنا نلتقى فيها بعيداً عن العيون، شددتها نحوى ورحت أقبلها قبلات كثيرة، حتى إنها ضحككت منى وقالت: أنت تقبلنى وكأنك تفعل ذلك لأول مرة، أو كأنك لن تقبلنى بعد ذلك أبداً، هل جننت اليوم؟ وراحت تضحك، فقلت لها: أه جننت. وظللت سادراً بلثمتها فى كل موضع من جسدها تطاله شفتاى، بينما يدأى تزيجان الثوب شيئاً فشيئاً عن تلك الدالية الريانة، فلما سرت نار شوقى إليها، وأشعلت شوقها بلهيب أشد، التحمنا ببعضنا بعضاً حتى أرمدت جمراتنا وبقينا ساكنين مطرحن، لا صوت معنا غير وصوصة عصفور على البعد ووجيب قلبينا الصغيرين.

ثم إننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا، نعيش أبداً سوياً على السراء والضراء، وكان ذلك العهد هو ما نأخذه على أنفسنا فى كل مرة نلتقى، وكان اتفاقنا أن أفتح أمى فى أمر زواجى من أمونة لتكلم أبى فى ذلك حتى يأذن لى وبيارك زيجتنا، لكن أمى التى طالما شعرت أنها تفضل أخى الأكبر عنى وتعهه كثيراً، وليسامحها الرب على ذلك، سارعت واختارت أمونة زوجة لأخى، وفاتحت أبى فى ذلك، وكان جمال أمونة واضحاً لا يغيب عن أى عين تحب الجمال وترى

آيات الخالق فى البشر، فلما علمت ذلك لم أصدق نفسى وبنت وكأن النجم المذنب قد أرسل بناره الشيطانية فوقى وصعقنى صعقاً، فبت محموماً أياماً لا أفارق الفراش، دون أن يكون هناك سبب مثل وباء، أو تفشى فاشية مما يحدث عادة، وأوشكت روحى على الخروج بعد أن قارب جسدى على التلف حتى إن أبى جهز تابوتى بكل مستلزمات التجنيز وأنزل غطاءه الخشبى المصورة عليه صورة وجهى وأنا فى أبهى صورة وقد تحوط بشعرى الأسود الغزير، ووضعه إلى جوار فراشى، بينما شددت أمدى على النائحات أن يتأهين فى أى وقت لسماع خبرى فيأتين فى التو ومعهن النيلة لتلطخ شعورهن المحلولة بها، وكانت أمدى قد بدأت الندب منذ أن خرج من عندى آخر حكيم جلبه أبى وقال أنه لا فائدة لأن الحمى قد بلغت مداها والقلب لم يعد قادراً على احتمالها، وأن كل ما أخذته من أشربة وابتلعته من أعشاب لم يأت بما يرتجى منه، وكان قسيس بيعتنا لا يفارقنى منذ ذلك الحين كرامة لأبى ولأجل خاطر عينيه، لأنه كان صاحب خير وفضل كثير على البيعة خصوصاً بعد أن قدم بعضاً من أثاث البيعة ومنه تلك المنجلى ذات الحامل المنحدر لوضع الكتاب المقدس، وهى مزخرفة بتصميمات وأشكال بديعة قد طمعت وحشيت بسن الفيل، وتزينها الصلبان من كل ناحية، وكان يوضع على الرف المفتوح تحت حاملها أطباق العطاء والصنوج والمثلثات والأجراس الصغيرة المضروب عليها بالقضبان، وكان قد قدم -كذلك وهو المقتدر- للبيعة شمعديناً على هيئة تنين تركب عليه شمعة كانت تشعل أمام باب الكنيسة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام، وكانت الحية التى على هيئة التنين تثبت الشمعة بقمها الذى هو ثقب محفور، وكل الشمعدان من النوع النقال غير الثابت فى موضع واحد.

لكن الله أراد ما أراد وأفقت معافى من الحمى بعد ثلاثة أيام، فلما تذكرت ما كان من أمرى، ونظرت ما كنت فيه من مرض وقربى من الموت والهلاك، حمدت الله على ما أنا فيه وقرقرارى أن أقبل بما كتب لى، ولكن أمانة لأخى، ولأصبر على إرادة الرب وأكتم الأمر فى صدرى، تبجيلاً لخيار أبى، واحتراماً

لأخى الكبير، وعاهدت نفسى أن تكون آمنة حى الأول وغرامى الأخير، فأنا لن ألامس امرأة بعد ذلك أبداً، ولم يغرم قلبى بأحد بعد هذه الغالية أبداً، ولتكن بالنسبة لى بمثابة الأخت العزيزة، وقد صارت زوجة لأخى، لكن بعد أن حدث ما حدث، وماتت وقد أَلقت نفسها فى السبحة الموحلة لتفنى وتعدم، لم أتمالك نفسى، وفقدت أمرى، بعد أن صغر العالم فى عيني، فخرجت من بلدتى، لأهيم فى البرارى، وقد كرهت الدنيا والحياة، وبقيت سادراً فى سيرى، لا أدرى من أمرى شيئاً كالمثلث دون طعام أو شراب، وقد رأيت بأمر عيني ضواري السباع دون أن يطرف لى رمش، وكنت أدعو السماء أن يفترسنى واحد من هذه السباع، أو يفتك بى وحش من الوحوش، ولكن الله يريد ما يريد، إذ بقيت سائراً حتى غبت عن الوعي وأوشكت على انتلف والضياح، وتصادف أن عثر على بعض من أبناء هذه البيعة، ومنهم ثاونا الذى كان قد خرج ليجمع بعض الأعشاب التى يستخدمها فى الرسم والتطبيب، فحملنى معه إلى البيعة ودوانى، فلما أفقت شكرت الرب على تمام نعمته على ووهبت نفسى لخدمة البيعة، ولم أغادرها قط، منذ ذلك الوقت حتى هذا الحين.

كان خوفى الأكبر هو العودة إلى الأراضى الموحلة مرة أخرى، فأنا أخشى ملاقة أحد من أهلى، خصوصاً أبى وأمى، فلا بد أنهم قد اكتشفوا أمرى مع آمنة بعد هلاكها، وفرارى المفاجئ من البلدة، ثم إنه يشق على نفسى العودة لموطن ذكرياتى المؤلمة، ويا خوفى لو غلبنى الشيطان فانهرت وأخذت فى البكاء والعويل على محبوبتى الثالفة، وحياتى الأولى الفانية. كانت دموع كثيرة تسقط من عيني وأنا جالس بقلائتى أرقب انبلاج الفجر من الأفق الأسود الممتد عبر السماء أمامى بعد أن غاب القمر، وتلبدت السماء بغيوم لا تعهد فى ذلك الوقت من بؤونة الحار، وكان النهر هادئاً، ساكناً، لا تنبعث منه بين الحين والحين غير أصوات هادئة لبعض المخلوقات الكامنة فى أعماقه، والتى يحلو لها عادة الخروج إلى أعلاه عند هذا الوقت المتأخر من الليل، رحت أتخيل أن يرانى بعض من أترابى الذين كانوا معى فى المكتب بالبلدة، حيث كنا ندرس ونحن صغار، إنهم سيأكلون



وجهي ويعيرونني بما كان من أمرى مع آمونة، وينعتونني بالشؤم، خصوصاً وأن ما حدث من خراب قد تم وقت عرس أخى العزيز وآمونة، وكان هؤلاء الأتراب فى منتهى الفرح والنشوة، مثل جميع أهل البلدة وأبناء أسرتى، إذ كنا نسير فى موكبين كبيرين منفصلين بشوارع البلدة، العروس فى موكب، والعريس فى موكب آخر، ونحن نغنى ونرقص على أنغام الفرقة الموسيقية التى كنت قد جلبتها بمعرفة واحد من أصدقائى من مدينة أكسير نخوسى، بعد أن قال لى إنها من أفضل وأشهر الفرق المعروفة بالبلاد. وما زال عقد عملها فى عرس أخى محفوظاً بين أشياء القليلة فى القلاية، إذ إنه الأثر الوحيد الباقى لى من عالمى القديم فى ترنيط، وقد كان داخل جيب جلبابى وقت خروجى منها، وأنا أنظره بين الحين والحين، كلما جاشت مشاعرى بالحنين، وأخذنى الشوق إلى أهلى وأترابى وأتحرر على ما صناع منى وافتقدته من الحياة هناك.

رحت أتذكر وأنا جالس فى مطرعى ذلك العقد، وكيف أخذت وأنا أبرمه آنذاك، فى مجادلة رئيس الفرقة الموسيقية أورليوس أونفريس بن آمونيوس الجريكى، ليخفف من أجر فرقته، حتى وافق على أن يحصل على أربعين زوجاً من الأُرغفة المصنوعة من البر والحلبة، وتسعة جرار من اللبىذ وأربعة أنصاف فضة لكل عازف من عازفيه الذين كانوا معه: تاسيوس وافونجس ابن هيراكليس وكوبروس وآرسينوى. وكنت قد جلبت هذه الفرقة الجميلة هدية عرس لأخى، رغم آلامى وحزنى لأنه سيتزوج بمن تحبها روحى وتشتهيها نفسى وفقاً لمشئته أبى الجسمانى، لكنى لم أنبس بكلمة لا، ولم أعترض على ما ارتآه ولم أبج بما فى صدرى من حب لآمونة، لأن الأب أب، والأخ أخ، وكلمة الوالد يجب أن تطاع وتنفذ، فحبست حزنى فى نفسى، ورحت أرقص مع الراقصين، وأغنى مع المغنين، ونحن نسير فى الشوارع مصطحبين أخى فى موكبه حتى باب البيعة، ليلتقى بموكب العروس عند بابها، حتى ندخل جميعاً ونعقد العرس وفقاً لمشئته الرب وعملاً بقوانينه، وبينما نحن فى غاية الفرح والبهجة نتغنى مع أورليوس أو أونفريس ذى الصوت الصداح الشجى بأغنية «هو ذا الزمان طاب، فلنذق شهد

الرضاب، إذ أخذ قلبى فى الانقباض، كلما اقتربت اللحظة التى سوف نلج فيها جميعاً من باب الكنيسة حيث يرتبط العروسان برباط الزواج الأبدى المقدس، وأخذت دموعى تسيل وأنا أتمنى أن يحدث ما يمنع ذلك، إذ كنت رغماً عنى - وليسامحنى الرب - لا أتصور أن تكون أمونة امرأة لغيرى، وقد ظن كل من رآنى وقتها أننى أبكى لفرط فرحتى وانفعالى، وما أن وصلنا لباب البيعة حتى استقبلنا الشمامسة حاملين الشموع والأجراس مع الكهنة وهم يرتلون «مبارك الآتى باسم الرب»، وكان موكبنا الذى هو موكب العريس قد وصل أولاً ليدخل الكنيسة كما هو مفروض ومتبع فى الأعراس ثم إن الشمامسة اقتادوا أختى إلى الخورس الأمامى وهم يرتلون الألحان، وظلوا وقتاً يفعلون انتظاراً لوصل العروس واستقبالها عند الباب حتى يبدأوا فى ترديد لحن «السلام لك يا مريم، كما جرت العادة التى تتبع دائماً فى الأعراس، ويقتادون العروس إلى مكانها فى الموضع المخصص للنساء، وكان جميع الأكليروس لابسين الملابس البيضاء الجميلة، وقد جهزت مستلزمات العرس المكونة من صليب ذهبى ومحبس الإصبع الذهبى، والمنطقة والبخور على صينية الفضة فى الخورس الأمامى، وكان أختى قد أعطى عباءة للبترك كتقدمة بمناسبة العرس كما هو متبع دائماً.

فلما طال انتظار الجميع، وتعب الشمامسة من كثرة ترديد الألحان، بدأ القلق يساور الحاضرين بسبب تأخر موكب العروس، وأخذ الهمس يتعالى والرقاب تشرئب بالرءوس وقد تركزت النظرات على باب البيعة، أملاً فى مطالعة العروس المتأخرة وموكبها، وما هى إلا لحظات حتى دخل من أعلى باب البيعة غراب أسود حائماً، وقد بدا غريباً دخوله فى مثل هذه اللحظات، فتطير الناس، وسارع القيم بهشه وطرده، ثم أعقب ذلك صوت صراخ وعويل، فهب الجميع ينظرون الأمر، فإذا بواحد من الصارخين يقول بأن العروس الجميلة أمونة قد غافلت أهلها وألقت بنفسها فى السبحة الواسعة ذات المياه الساحبة للأسفل مما بلى آخر منازل البلدة، فلم أتمالك نفسى عند سماعى ذلك، إذ شعرت وكأنّ تنيناً مريعاً، كذلك

الذى صارعه القديس الشهيد مار جرجس، قد جثم على صدرى، حتى كادت الأنفاس تغيب عني، ففغرت فمى محاولاً عب الهواء دون جدوى، وبت كالذى لا يملك من أمره أمراً، بلا حول أو قوة، ثم إنه سرعان ما أفلت زمامى، وقد تيقنت أننى على وشك أن يحل حمامى فراح جسدى ينتفض وأنا أصرخ مع الصارخين وأهرع مع الهارعين إلى السبخة الموحلة المشثومة، فلما وصلنا إلى هناك وجدنا الحبيبة الغالية وقد استقرت إلى جانب المياه بعد أن أخرجوها منها، فلما نظرتها لم أتمالك نفسى، إذ كانت جسداً ممدداً على الأرض، بلا حياة فصرخت بعزم ما فى، وانهرت عند قدميها أبكى، وأنا أنظر جمالها وكان بعضهم قد أزال الأوحال عن وجهها وجيدها تلمساً لحياة أو نفس يكون فيها، فبدت أجمل مما كنت أظن، وقد انسدت ضفائرها السود الكثيرة على جيدها الأبيض، وكأنها غمام على رخام. فبكى الجميع مثلى عندما نظروها ولطم من لطم، وبكى أخى الأكبر عند رأسها يندب وينوح، وأنا مثله عند قدميها، حتى لم يعد فينا ما نجود به من دمع، فراح الناس يناون بنا عنها، ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً.

كانت تطوف بمخيلتى كل هذه الأحداث، بينما أنا جالس بصومعتى أفكر فى خروج الغد إلى الأراضى الموحلة، وأتساءل حائراً: كيف سيتسنى لى مواجهة ما أخاف مواجهته، وأهرب منه منذ سنوات؟ كيف سيكون أمرى وحالى إذا ما تعرّف على واحد من أولئك الذين كانوا معنا فى العرس؟ رحت أبكى وتمنيت أن يقبض الربّ روحى قبل أن أعيش ذلك الحال، وأن لا أعود إلى ترنيط أبداً، لكن خوفى من أبى الروحانى فى البيعة، الأب يوساب هو الذى يدفعنى إلى الذهاب، لأن طاعته واجبة، كما أنى لم أعترف له أبداً عن إثمى وخطيئتى مع محبوبتى الغالية أمونة، إذ حرصت على أن أقول له كلما ذهبت للمناولة والاعتراف، بأننى هربت من بلدتى، بسبب سرقتى بعضاً من جرار العسل من جار لنا، فلما اكتشف أمرى، خفت من الفضيحة، وخجلت من مواجهة أبى، وهكذا كنت أكذب كل مرة فى اعترافى لهذا الأب الطيب، لأننى كنت لا أجرو على الإفصاح عن خطيئتى ومأساتى الأولى فى ترنيط حتى عندما شعرت أنه ارتاب فى أمرى مرة، وقال

لى: هل هذه كل خطاياك؟ أمن سرقة بعض جرار من العسل تخشى العودة وتركت أهلك وذويك؟ هل قتلت، هل زנית؟ فلما نلججت فى الكلام وأطرقت برأسى، وكان شعورى بالندم والألم قد فاض، نظر إلى بشفة وتحنان، ثم تلا كلمات الرب: «لا تضرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بى. فى بيت أبى منازل كثيرة، وإلا فإنى كنت قد قلت لكم أنا أمضى لأعد لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً أتى أيضاً وأخذكم إلى؛ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا ذاهب وتعلمون الطريق».

فبكيت وسالت دموعى عند سماعى ذلك، وقلت: لا.. لا يا أبى أنا لم أقتل، لكنى سرقت، سرقت ما لم يكن لى.. وأنا نادم ما دمت حياً على ذلك، وهأ أنا الآن قد أمنت بأن عسل الرب أحلى وأشهى من عسل الحياة، فلتباركنى يا أبى الجليل، وليرحمنى الرب برحمته الواسعة.

وهكذا لم يقو لسانى على الاعتراف وقول الحقيقة أبداً، فليغفر الغفور لى وليشملنى بلطفه وكرمه.

غادرنا -أنا وثاونا- قصر الشمع ببابلين فى اليوم التالى، بعد صلاة باكر مباشرة وهى الصلاة التى تكون الأولى من الصلوات السبع اليومية الآجبية وموعدها فى الفجر، وكنا قبل الصلاة قد تهيأنا للخروج فارديننا عباءتنا الصفراوين وقد خرج أكليروس البيعة جميعه لتوديعنا عند الباب الأخير المؤدى إلى الفسباط، وكان على رأس مودعيننا الأب الطيب يوساب، فغادرناهم جميعا والدموع تملأ مآقينا ومآقيهم، بعد أن قبلنا يد الأب المباركة، وكرّر علينا بعصاه التى هى رمز المعمودية، ولم نركب ركائبن إلا بعد إغلاقهم الباب خلفنا تأدياً وإجلالاً وكانت ركائبن بغلين يافعين من ثلاثة بغال جيدة، أحضرها للبيعة ذات مرة رجل مؤمن يدعى سراميتس من مدينة ليكوبوليس وقدمها هدية للأب يوساب بعدما أبرأ إبناً له، كان قد أصيب بمرض طال واشتد عليه، فحملة الرجل إلى البيعة ليناوله المناولة الأخيرة، لكن الأب يوساب أعطاه عقاراً ومسحه بالزيت الفلسطينى وقرأ عليه قرايات مقدسة، فبرئ الغلام لساعته وقام معافى ووقف على

قدميه، ولم يكن مسموحاً لنا باعتبارنا من القبط أن نركب الخيل، وكان هذا هو قانون الولاة المسلمين علينا، منذ أن تملكوا ببيعة مصر العتيقة وقصر الشمع زمن الطمٹ الهرطقي الخلدوني قيرس المدعو مقوقس، وهكذا خرجنا على البغليين أنا وثاونا، حاملين معنا زوادة من السمك المملح والزيت والبناو والمنين، وبعضاً من التمر، وجرة نبيذ، فاخترفنا الفسطاط خارجين إلى البساتين التي تليها، والفسطاط هو ما بناه المسلمون بعد دخولهم بابلون بمصر. وقد أخبرني ثاونا ونحن نعبر الفسطاط أنه قرأ في بعض الكتب أن دولة الإسلام بدأت لما انتقل المرّ من المثلة الهوائية التي هي برج الجوزاء إلى برج السرطان ومثلثته المائية، فصارت دولة الإسلام عند تمام ستة آلاف وثلاثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً من وقت القرآن الأول الواقع في بدء التحرك (يعني خلق آدم عليه السلام)، وأن القرآن وهو كتاب المسلمين من هذه المثلة وقع في أربع درجات ودقيقة واحدة من برج العقرب وهو قرآن الملة الإسلامية.

كما أخبرني أنه قرأ في ذلك الكتاب أن ابتداء هجرة رسولهم كانت يوم الخميس من أول الشهر المسمى محرم عندهم، وهذا مبتدأ تاريخهم وبين ذلك وبين الطوفان النوحى، ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

لم أكن قد رأيت داخل الفسطاط من قبل فهالتنى كثرة خططه، وارتفاع منازلها إلى أربعة وخمسة طوابق دون زينة أو استواء، وقد أخبرني ثاونا ونحن سائران أن من هذه المنازل ما يسكن فيه نحو مائتى فرد علماً بأن الطبقة السفلى مما يلي الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلاً، ويقال إن رجلاً من المسلمين في الزمن الأول عند بناء الفسطاط، يسمى خارجة بن حذافة، كان ينييه القايد عمرو بن العاص، اتخذ لداره مشربة أو طنفاً، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو أن خارجة ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها في الحال. وكنا نسير داخل الفسطاط دون أن يعترضنا أحد، وقد رأينا حمامها المسمى حمام الفار، وهو حمام صغير حقير إذا ما قيس

بحمّامات الرومان القديمة، وقد أخبرنى ثاونا، أن المسلمين الأوائل، كانوا أتقياء يميلون إلى الزهد والتقشف، وأن مدينة الفسطاط بنيت بعد أن ضاق الحصن الذى استولى عليه المسلمون عقب دخولهم مصر، فوجد القايد عمرو أنه ليس من العدل إخراج أهل مصر من القبط من ديارهم المبنية حول الحصن، ليحل المسلمون محلهم، فتركهم وبنى الفسطاط، الذى سرعان ما نما وصار مدينة ومركزاً للحكم والولاية بدلاً من الإسكندرية كما كان معتاداً فى الزمان الأول.

تركنا الفسطاط وجلّ البساتين التى هى تبعية البيعة حتى الآن، والتى كانت فى الزمن القديم كما قال ثاونا، تمتد إلى شاطئ النيل قبل أن يبنى المسجد المسمى بمسجد أهل الرّاية وسرنا بمحاذاة بركة الحبش، قاصدين الوصول إلى محاذاة النهر، حتى ننحدر إلى شبرا، ومنها إلى البلاد الموصلة للأراضى الموحلة. وكنت طوال الطريق أيم نظرى شطر المكان، فهالتنى روعة هذه البركة الفسيحة، وقد تجلت روعة الخالق فيها، حيث نمت على أطرافها أشجار وارفّة ظليلة من كل نوع وشكل، وكانت بينها أشجار مكلفة بورود زرقاء وبنفسجية وحمراء، على نحو لم أراه من قبل، كما رأيت أطيّاراً عائمة فى مياهها خلاف نوع الأوز والبط، على النحو الذى كنت أراه فى أراضى البلاد البشمورية، وكان صدح هذه الأطيّار مع طير الشجر غاية فى الروعة والحسن، كأنه موسيقا ربّانية تسحر القلوب، ويبدو أن ثاونا لاحظ انهيارى وتباطؤى فى حثّ البغلة على المسير، فقال:

– علينا أن نجتاز هذا المكان بسرعة، إذ لا يصحّ بقاؤنا فيه كثيراً، فعلى أطراف هذه البركة يعيش أهل اللهو والخلاعة، ولا يسلم الأمر من قاطع طريق هنا أو هناك، ثم إنه يتوجب علينا أن نترك بر مصر قبل مغيب الشمس، لكننا سنتوقف قليلاً فى حدائق شبرا، حتى نتزود ونسد جوعنا، لنواصل مسيرنا فندخل مدينة أترّيب قبل حلول الظلام، فنبيت فى دبرها حتى صباح الغد، لأننا لو دخلناها فى الليل، قد لا نسلم من بعض قطاع الطريق، أو عصابات الجوعى، التى تخرج بين الحين والحين إلى الطريق طلباً للقوت بأية وسيلة.

وقبل أن نترك البحيرة ومنظرها الخلاب، تنهد وهو يعب بعينيّه من مشاهدّها الحسنة، وأضاف:

- تَباً للفلاسفة والاستدلال . يا له من عارف يَعْرِفَ بالمعرف . لم أعلق، إذ لم أفهم ما قصده ثاونا بذلك الكلام وسرنا بجذّ، حتى أوشكنا على الدخول إلى حدائق شبرا، وإذ ببعض من عسكر المسلمين الركابيين على الخيول يسيرون ناحيتنا بسرعة، فنزلنا عن الركائب، بمجرد أن رأيناهم، ويبدو أنهم كانوا من الأتقياء فلقد نزلوا عن خيولهم تادباً واحتراماً لما رأوا ملابسنا الكنسية، فقالوا لنا أشياء، وكنت لا أفطن للسانهم كما ينبغي فلم أفهم إلا بعضاً مما قالوه، لكن ثاونا حيّاهم وقال لهم بكلامهم المكتوب، والذي أقرّاه وأفهمه عندما يكون مكتوباً:

- نحن ذاهبون بأمر من أبينا الرئيس يوساب رئيس بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع في مهمة خاصة في الأراضي الموحلة.

ما أن نطق ثاونا به الأراضي الموحلة، حتى بأن الغضب على وجه مقدّم العسكر، وبدا وكأنه استراب فينا، لكن ثاونا، أسرع موضوعاً:

- معنا كتاب من متوكلي الفسطاط بألا يعترضنا أحد منكم، لأننا ذاهبون في شأن يخصّ الوالى.

ثم إنه أخرج من جرابه لفيفة بردى، دفعها لمقدّم العسكر، فلما فتحها الأخير، بان أنها مكتوبة بالقلم العربى، والقلم القبطى أيضاً، فراح المقدّم يقرؤها بعناية وبعدما تأكد من صحة ختم الأمير الوالى عليها، طواها، ثم دفعها بأدب مرة أخرى إلى ثاونا، وقال:

- عليكم الإسراع فى المغادرة، لأن بعضاً من العامة قد تهيّجوا فى منية السريج، وأخشى أن تلاقيا المتاعب، إذا كبسوا عليكم فى الطريق، لأن أكثرهم من الغوغاء الصعاليك معدومى القوت والطعام.

ثم إنه أمر اثنين من جنده أن يرافقانا حتى نصل إلى حدائق شبرا.

شكرنا الجنديين وودعناهما عند وصولنا إلى حدائق شبرا، بعد أن أعطاهم ثاونا بعضاً من المنين، وقدرأ من التمر السكوتى الفاخر، كنا قد حملناه معنا من البيعة، وهو من ثمار عدة نخلات قديمة بالبيعة، ربما يعود زمن زراعتها إلى ما قبل

إنشاء الببعة بسنين عدة، ثم إننا دخلنا الحدائق، فبدت لى عظيمة الاتساع، بالغة العز بأشجارها وزراعتها المتنوعة، وكأنه لا يوجد جنس زرع أو شجر فى كل الدنيا، إلا وقد زرع أو غرس بأرضها، وبدا شجر النبق والجميز والسنط واللبخ والكافور والتوت، عظيماً ضخماً على غير المعتاد، فالمياه المتسربة من النهر إلى الأرض فى هذا الموضع غنية وفيرة، لا تترك الشجر فى حاجة إلى شرب، كما أن الأرض بخيرها لكثرة الطمى المجلوب وقت صعود النيل .

راح ثاونا، غزير العلم والمعرفة، يذكر لى أسماء بعض الأشجار التى لم أكن قد رأيتها من قبل، وكان منها شجرة الدوم، التى لم أر فى حياتى إلا ثمارها، فقد كان يجلبها إلى أراضيها البشمورية بعض من فقراء السودان الجوالين، ليبيعوها لنا فى الطرقات، وكانت الحدائق تصل حتى حواف النيل السفلية، وقد برزت عليها أشجار أم الشعور، بأغصانها الشعرية واختلطت بمياه النهر وكانت الحدائق عامرة بالناس فى كل موضع منها، حتى إننا رحنا نبحث عن موضع خال، أسفل شجرة، لنجلس مستظلين ونتقوت بشىء من طعامنا وشرابنا، فلما وجدنا توتة وافرة الأوراق، عميمة الخضرة، افترشنا النجيلة تحتها، فصلبنا وشكرنا، ورحنا نأكل شيئاً من الطعام. وبينما نحن نزرد زادننا سألت ثاونا سؤالاً ظل يشغلنى طوال الطريق:

- ثاونا العزيز: لعلك تظن أن البشموريين سوف يرضون بكلام أبينا ويوقفون الحرب مع الأمير.

نظر ثاونا إلى قليلا وهو يأكل، وبدا لى وكأنه غير راغب فى أن أغوص فى مثل هذا الأمر. تردد قليلاً فى الكلام، لكنه همّ بذلك لولا أن امرأة جاءتنا بوعاءين من شراب السكر، وطمفور زلابية قدمتهم لنا بينما وجهت كلامها لثاونا قائلة:

- هل يسمح أبى بتقبل هذا الشىء اليسير منى، ويبارك أطفالى الذين هناك ؟  
ثم إنها أشارت بيدها إلى موضع شجرة حبّ العزيز، حيث راح ثلاثة أطفال يجرون ويلعبون، فلما أوما لها ثاونا موافقاً، ذهبت، ثم عادت بالأطفال وكان



جميعهم من الصبيان حسنى الصورة المفعمين بالبراءة، فأخذ ثاونا يباركهم ويصلب عليهم ويرقيهم برقايا، ثم تلا: «بسبب هذا أحنى ركبتي لدى أبى ربنا يسوع المسيح الذى منه تسمى كل عشيرة فى السماوات وعلى الأرض، لكى يعطيكم بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه فى الإنسان الباطن، ليحلّ المسيح بالإيمان فى قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكى تمتثلوا إلى كل ملء الله، والقادر يفعل فوق كل شىء أكثر جداً مما نطلب ونفكر، بحسب القوة التى تعمل فىنا، له المجد فى الكنيسة فى المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين».

وبعد أن انتهى ثاونا من مباركة العيال وقرائاته، دقق فى أوسطهم، ونظر فى حدقته ملياً، وكذا عمل فى فمه، بعد أن فتحه بيده، ونظر لفته، وكانت باهتة مبيضة، لا تشوبها حمرة الدم، مثلما كانت حدقته على النحو ذاته، تصعب ثاونا وسأل المرأة:

– هل يأكل هذا الولد كثيراً؟

هتفت المرأة بدهشة، وقالت:

– أكثر مما يأكل أخواه مجتمعين يا سيدى المبجل، ولكن لينك تبارك الأصغر، فهو مصاب بعلّة شيطانية دوختنى فى علاجها، دون نتيجة، حتى يأسب وخاب رجائى فى برئه منها، ثم إنها رفعت جلباب الصبى، وأزاحت بعضاً من سرواله وخاب الكتانى الخشن الساتر لعورته، حتى قرب نهاية فخده، فبان على لحمه خراج متقيح جداً باحمرار من كل جانب، وقد تورم موضع الفخذ كله عند هذا المكان.

تأوه ثاونا لما رأى ذلك، فصلب وقال للمرأة بجد:

– تباً للشيطان أينها المرأة الطيبة. هذا الخراة خطر بحق الرب، وقد يودى بالولد، إذا ما ظل على هذه الحال.

ثم إنه قام وهم إلى موضع البغلين، وأخرج من جراب بغله، حقاً، فتحه بسرعة، وسألني أن آتيه بواحدة من أوراق التوت الطرية اللبانعة، مكتملة النمو، فلما قطفت واحدة قدمتها له، وضع عليها بعضاً من الدهن الذي بالحق، وقال للمرأة:

- عندما تعودى إلى دارك، اغسلى جيداً ذلك الموضع من الفخذ بالماء الدافئ، واعصرى ما بالخراج من قيح بخرقه كتان طاهرة، ثم ضعى من هذا الدهن عليه عليك أن تغمسى خرقه الكتان جيداً فى صحن مملوء بعرق البلح، وكذا عليك مسح أصابعك ويديك جيداً بعرق البلح، حتى لا يصيبك فى يديك ما أصاب ولدك فى فخذه. افعلى ذلك مرة عندما يفيق ولدك فى الصباح ومرة قبل نومه فى الليل، على أن تلقى موضع المرض بخرقه طاهرة مغموسة فى عرق البلح كذلك. ثم إنه التفت إلى الطفل الآخر، وقال:

- إن ولدك هذا مصاب بالدودة الشيطانية المسماة «بند»، وقد تمكنت منه واستقرت فى جوفه، وهى تأكل ما يأكله جميعه، لذا فهو مصفر هزيل، لذلك عليك إعطاؤه شرباً من صمغ السليخ ممزوجاً بزهر النعناع الفلفلى مع الصاس الذى يسمونه بلسان العرب الآن الخروج، على أن يؤخذ قبل التريق، بعد رجّه جيداً فى قارورة لمدة ثلاثة أيام، حتى تموت الدودة وتخرج من جوفه مع ما يخرج من فضلات، وإذا تقيأ مرة، فلا تخافى، فهذا من الأمور المعتادة عند تناول مثل هذا الشراب، ومعناه أن الترياق قد بدأ يفنى الدودة وهى فى سبيلها إلى الموت والنزول، ولو شرب الشيخ المغلى قبل النوم كل ليلة فسوف يأتى النفع سريعاً، ويخلص الولد مما هو فيه.

صمتت المرأة قليلاً، ثم قالت بعد تردد:

- ولكنى يا سيدى أربط حجاباً له داخل ملابسه، فهل أتركه فى موضعه مع ذلك، أم أزيله وأعمل الدواء لا غير؟  
رد ثاونا بتعجب:

- أرى حجاب أيتها المرأة؟

قالت بتوجس:

- حجاب حافظ صنعه لى رجل مشهور بذلك فى نواحيننا، وقد أعطيته مقابله ثمن بر ونصفى فضة.

- أرى الحجاب، قال ثاونا.

مدت المرأة يدها، وأدخلتها تحت جلباب الصبى، ثم أخرجت لفيفة صغيرة كانت قد ربطتها بحبل من الصوف ولفته حول بطنه، ليكون الحجاب على موضع السرة منه، فلما أخذ ثاونا اللفيفة، وكانت قطعة من القماش الكتانى الأبيض وقد خط عليها بالقلم الأحمر بكتابة قبطية، راح يقرأ ليسمعنى: «أنا خرجت من مدينة آن شمس مع قسوس معبدها الكبير ومع أصحاب الحماية وملوك الأزلية والوقاية. أنا خرجت من صا الحجر مع المعبودات الأمهات اللاتى تراعيننى بحمايتهن وتلقننى العزائم عن سيد جميع الأشياء بقدر ما توجد أبواب منها. وهذا لأجل أن يذهبن الآلام الصادرة عن كل معبود والمرضى من رأسى هذا ومن جيدي هذا ومن ذراعى ومن لحمى هذا ومن أعضائى هذه، ولأجل أن يعاقبن سفلة الرؤساء الذين أدخلوا فى لحمى هذا المرضى وسحروا عظامى هذه، حتى إن الوجع دخل فى لحمى هذا وفى رأسى هذا وفى ذراعى هاتين وفى جسمى وفى أعضائى هذه بحق شفقة رع القائل: أنا أحميه من أعدائه، وبحق مرشده هرمس الذى يبلغه الكلام، ويبدع الكتب وعنه تأخذ العلماء والأطباء جميع المعارف فيستمدون منها ويحلون مشكل كل غامض أنا أخذ الذين يحبهم المعبود ويجعلهم أحياء، فالمعبود يحيينى ويحفظ حياتى. هذا هو كتاب الشفاء لكل مرض فهل لإزيس أن تشفينى كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أزوريس. فى إزيس أنت الساحرة الكبيرة اشفينى وخلصينى من كل شىء مكر ردى شيطانى ومن أمراض اللبسة والأمراض المقتلة والخبيثة بأنواعها التى تعتزنى كما خلصت وأنقذت ابنك حوريس.. فها قد دخلت النار وخرجت من الماء، فهل من الممكن عدم وقوعى فى الشرك هذا اليوم، بقولى -أنا صغير

وجدير بالشفقة- يا رع أنت الذى قرأت هذه العزيمة على جسمك يا أوزوريس  
أنت تعبد لإجلالك -يتلوع لأجل جسمه ويعبد أوزوريس لإجلاله . هيا خلصانى  
من كل شىء مكر أو ردىء، أو شيطانى ومن أنواع الحميات الخبيثة والمقتلة .  
سكت ثاونا دون أن يقول شيئاً، وبدا كمن يفكر فى أمر من الأمور، ثم صلب  
وقال:

- اسمعى أيتها المرأة الطيبة . هذه تعويذة قديمة، لا نفع منها فى الشفاء من  
المرض، أنصحك ألا تضعيها لولدك، فالرب هو الحافظ وهو الشافى من كل علة،  
وعندما تعودين إلى دارك أحرقها، أو ارميها بعيداً فى أى مكان ولا تعودى لعمل  
مثل هذه التعاويذ أبداً عند أى ساحر أو خلافه .  
ولكن ما أن قامت المرأة من بين يديه وهمت بالانصراف، حتى عاد يقول  
لها:

- على أية حال . إذا كنت تتوسلين بها إلى شفاء ولدك، وتظنين أنها ستجلب له  
النفع، أرجعها إلى الموضع الذى كانت عنده كما كانت من قبل .  
فرحت المرأة جداً لما قال ثاونا ذلك، وكان الغم والاسترابة قد ظهرها على  
وجهها قبل ذلك، فلما ذهبت قال ثاونا:

- لقد قلت لها أن تحتفظ بالتعويذة، خوفاً من ألا تعطى ولدها الدواء، فعوام  
الناس من العلمانيين وخصوصاً النساء يعتقدون كثيراً فى مثل هذه التعاويذ  
والأحجية التى تعود إلى أزمنة الوثنية السحيقة، وما الأسماء التى فى هذه اللقافة  
إلا من أسماء آلهة قديمة عبدت زمناً على هذه الأرض .  
كنت مشغولاً بمعرفة الدهن الذى قدمه لعلاج ولدها الآخر، فانتهزت الفرصة  
وأنا أقول له:

- فليرحمهم الرب يا ثاونا، هؤلاء الناس الذين يخاطبون الوثنية بالديانة الحقّة  
دون قصد، بسبب ضعف علمهم وخضوعهم للهرطقات، لكن أليس الدهن الذى  
قدمته لها هو الدهن الذى رأيت مثله كثيراً فى نواحينا البشمورية فى الماضى .

رد ثاونا محاولاً إفهامى:

- لا.. يا بدير، إنه ليس دهن الحوت الذى تقصده، وإن كان يشبهه، لكنه دهن معمول من أوراق الصفصاف وأوراق الرجلة وعصارة الحلوة المرة والزعفران وزلال البيض وقليل من الأفيون. يسحق مجتمعه، ثم يضاف له بعض من النبيذ النقى ويستخدم كما سمعتنى أصف للمرأة منذ قليل.

هجست أقول له بما يدور فى داخلى:

- لكن الولد ضعيف جداً وربما كان مبلباً بعلّة أخرى غير دودة الشيطان. الرب أعلم.

لا أعرف لماذا دخلنى وأنا جالس انظر إلى المرأة وأطفالها أن هذا الطفل لابد وأن يموت، ورحت أفكر فى موت الأطفال والرضع، وأنا الذى أشهد موتهم كثيراً، عندما يأتى أهاليهم بهم إلى البيعة للصلاة على أجسادهم قبل دفنهم ويتوجب علىّ عندئذ عمل ما تتكلفه الجنازة، وأوجر على ذلك. كانت مسألة موت الأطفال تحيرنى كثيراً فسألت ثاونا:

- أترى يا ثاونا أن الله يأخذ الأطفال كثيراً لأجل ذنوب والديهم؟ أم لأمر آخر؟

رد ثاونا قائلاً:

- لا تظن يا ولدى ذلك. لكن ينظر الله جنس البشر، وقد عمل أكثرهم إرادة الشيطان باهتمام باطل، والجحيم عامر، والنعيم الفردوس خال، فيأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيئة إلى الفردوس موضع الرحمة.

عدت أسأله:

- ولماذا أخرج الله الشيطان من السماء من قبل أن يخلق العالم والناس؟  
فأجابنى وهو يتابع بنظره خففساً قد حمل فتية خبز مما تساقط من أكلنا:

- يا ولدى، ومن أنا البائس الحقير عند هذا القول حتى تسألنى عنه.

لكنى أكثرت عليه اللجاج والطلبية فى السؤال، فقال لى: قال القديس غريغوريوس الثاولوغس: «إن الشيطان كان منذ أول خلقه الله يسعى بأصحابه الملائكة إلى الله، وكان الله يمهله ويصبر عليه، فلما خلق الله سماء جديدة، وأرضاً جديدة، وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق فى علم الله أن الشيطان محب للكبرياء، فأمره أن ينظر إلى آدم وحسن منظره، فأخذ معه العسكر الذى جعله مقدماً عليه ومضى إلى حيث آدم، فلما نظره تعجب منه، وقال لأصحابه: أريد أن أنصب لى كرسيّاً على السُحب، وتكون الجبال العالية تحتى، وأكون مثل العلى، فيكون العالم كله فى قبضتى وأملك عليه، ثم إنه صعد إلى السماء، فقال الله له: أأعجبك ما رأيت ورضيت بالعالم المخلوق؟ لعلمه بضميره، ثم قال له: قد جعلتك رئيساً عليه، وقال له: كل هذا لئلا يسقط من المجد الذى كان فيه، وكان هو يحفظ الشر، وفكره فيه سوء، ثم إنه بعد ذلك تأمل فقال: أنا أريد أن أعرف كيف اللاهوت، لى إذا نزلت أفعل ذلك ولا تبقى لى حاجة عند الله بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به، وأراد أن ينظر اللاهوت، فدخل فى وسط الملائكة بسرعة فأمر الله ربوة من قوات الملائكة السمائية أن تحطه إلى الجحيم الأسفل فى الظلمة البرانية هو وكل من معه، وهذا ما أظهره الله لإغريغوريوس الثاولوغس، وهو الذى وضع لنا ذلك، والمجد لله إلى أبد الآبدين».

ثم إننا قمنا فسحبنا ركائبنا إلى حافة النهر، ونزلنا بها قليلاً حتى شربت وارتوت، وكنا أثناء الطريق نعلقها بالفول المنيأوى والحشائش فلما كفت عن الماء، أقلنا راجعين إلى الطريق وقد توكلنا على الله لندخل أتريب قبل حلول الظلام.

خيّل لى ونحن نهم بدخول مدينة أتريب، أننى قد مررت على هذا المكان من قبل أثناء هيامى وتجوالى بعد هربى من بلدتى ترنيط، وقبل العثور على هائماً فى البرية التالية لقصر الشمع من ناحية حلوان، إذ كانت صورة بريها الظاهرة على البعد من الأماكن التى أظن أننى رأيت مثلها من قبل، فلما صرنا عند أسوارها العالية وأبوابها العديدة التى أحصيتها عند وصولنا فكانت اثنتى عشر باباً. دخلنا من بابها الكبير المسمى باب الخلق، فوجدناها مدينة عظيمة عامرة بالأسواق مليئة بالناس، وكان بها خليج تجرى فيه مياه النيل تتفرع إلى ترع صغيرة، يحمل منها الماء للمساكن، أما بيوتها فبدت فى عيني غاية فى الحسن، خصوصاً تلك الواقعة على شارعها الأكبر المتعامد على خط النيل، وكان به منتزه جميل، وكان هناك شارع أصغر عمودى على شارعها الأكبر ويشقها من جنوبها حتى شمالها.

قادنا بعض الطبيبين - لما سألناهم - إلى الدير مباشرة، وكان يسمى دير العذراء على مسمى بيعتنا فى قصر الشمع، وهالنا أن أبوابه لم تزل مفتوحة رغم أن الوقت كان حوالى درجتين قبل الزوال، فلما دخلنا رأينا أناساً كثيرين من الرجال والنساء يبيعون ويشترون، وبعضهم يأكل ويشرب، والأطفال يمرحون، وكان جل الناس من الفلاحين، وقد جلبوا معهم شراب السكر والجلاب ومثارد السميد، وقطع الخمير، والأطفال يشخلون بشخايل الخوص، وهم فى أثواب جديدة ولا يكفون عن النط والصياح والتهبيص.

هتف ثاونا وقد أخذ بمشهد الناس غير المتوقع:

- فليرحمنى الرب يا بدير، اليوم هو العيد السنوى للبتول، فهو يقام فى الحادى عشر من بؤونه. إذن فقد وصلنا هنا يوم العيد.

رددت: آه. ثم تابعت مبهوراً مشاهد العيد، وقد ذكرتني بمشاهد الأعياد التي طالما عشتها في بلدتي الحبيبة ترنيط، وإن كان ملابس النساء هنا في أتريب أجمل وأبهى من جلابيب نساء ترنيط، إذ إن معظمها قد صبغ بألوان الأرجوان الزاهية، والزعفران الأصفر، وقل ما صبغ منها بالنيلة الزرقاء كما في ترنيط، كما أن نسيجها ناعم رقيق يشف ويرف على الجسد.

أخذنا قيم الدير إلى ناحية مقر الأسقف، فاستقبلنا بحفاوة وكرم، وقد عرفه ثاونا بنا، وبأسباب مجيئنا، فزاح يسأل عن الأحوال في مصر العتيقة وفي بيعتنا، فأخذ ثاونا يفضض عما يعتريه من قلق، ويقول:

- نحن في كرب طوال الوقت، فالوالى يضيق علينا بالخراج، مثلما هو حادث في كل مكان، وعينه على بساتين البيعة ومعاصرها، وهو يرسل بين الحين والحين من يحصى القائمين عليها والعاملين في أرضها وزرعها، وليشم كل من يجده هناك، ومن يكون غير موشوم بعد بعلامة الأسد، يتعرض لمشقة عظيمة، وأنت تعلم أن ذلك كان قد سرى، منذ سنة ٤٢٢ شهداء، على الفلاحين القرارية بغرض حصر الضرائب، لكن ذلك صار يسرى علينا الآن نحن أهل البيع والأديرة، والتشديد في مصر العتيقة على ذلك أكثر من أى موضع آخر في البلاد بسبب أنه صار في بساتيننا من القبط والمسلمين من يعمل بالفلاحة، وكذا بالمعصرة، فلزم تمييز هؤلاء عن تلكم. أما في القسوط فالجند يثورون بين الحين والحين بسبب انقطاع الرواتب، وبعضهم صار يعمل لدينا في البساتين سراً حتى يجد ما يتقوت به، وقد عطفنا عليه، وأثناء قدومنا إلى هنا في أتريب، قال لنا مقدم حراس الطرق الذى التقيناه أن الناس قد خرجت تطالب بالطعام في منية السيرج من نواحي شبرا.

تمتم الأسقف مؤمناً على كلام ثاونا، وقال:

- ليرحمنا الرب جميعنا. القلاقل في كل مكان. وأنا خوفي يتزايد على هذا الدير يوماً بعد يوم، خصوصاً بعد حلول قبيلة كبيرة من قبائل العرب، ورسوها عند مشارف البلدة من ناحية الصحراء فهي لا تفتأ تغير على زراعاتنا وعلى



الفلاحين، فتنهب الزرع وتفسد الأرض، بل إن الأمر وصل ببعض منها إلى حد خطف البنات وأولاد من الأهالي ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً، وقد سألتنا الوالى أن يحمينا من الإغارات عدة مرات، دون جدوى، والآن الخوف كله، أن يدخلوا علينا الدير ذات مرة وينهبوه، وهذا الدير إن ضاع ضاعت معه المدينة واندثرت، لأن معظم أهلها من المشتغلين فى أراضيهم ومعاملهم، خصوصاً معمل نسج الكتان، ومعمل الزجاج، فلدنيا زجاج يضارع أفضل أنواع الزجاج المعمول فى دير الزجاج الواقع بيرية هيب قرب مريوط، وأنا أتضرع للرب ألا يحدث ذلك، خصوصاً وأن كثيراً من الأهالي قد تركوا بيوتهم، وذهبوا للالتحاق بالبشمورى كمحاربين فى جيشه بالأراضى الموحلة.

صلبنا جميعاً طالبين رحمة الرحيم، ثم إن قيم الدير قادنا إلى موقع قلالية لنستريح فيها قليلاً حتى يحين المساء.

لبثنا فى القلالية وقتاً، وسرعان ما حل المساء فقمنا وشاركنا الرهبان الصلاة ثم تلونا بعض السادوكيات، وفى الآخر تعشنا عشاء ريانياً خفيفاً، وكانت ساحة الدير لا تزال عامرة بالناس الذين أخذوا يوقدون الفايده والشموع لحلول الليل، أما خارج أسوار الدير فقد كان هناك لغط عظيم إذ تخالطت أصوات الغناء مع دقات الطبول والمزامير وراح الراقصون يشطحون فى حلقات عديدة، ضمت رجالاً ونساء على السواء، وقد بدوا جميعاً فى حالة من النشوة الغامرة.

زفر ثاونا بصنيق وهو يحادث الأسقف محتجاً على كل ذلك اللهو داخل ساحة الدير وخلف أسواره، خصوصاً وأن ذلك لم ينقطع حتى أثناء إنشادنا المزامير وصلواتنا وتقديسنا، وكنا قد جلسنا معه بعد تناول العشاء، فقال الأسقف أنه حاول منع الناس مراراً من فعل ذلك دون جدوى، وهو يخاف التشديد عليهم حتى لا ينفروا من الدين وأهله من الرهبان خصوصاً أن معظمهم كان فى الوثنية حتى عهد قريب، ولم يدخل حظيرة الإيمان إلا مؤخراً، بعد ذلك وأثناء توجهنا لقلايبتنا حكى لى ثاونا أن الأب شنودة رئيس الدير الأبيض المتنحى منذ زمن بعيد قال ناهياً عن فعل العامة فى الموالد والأعياد: «جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر

الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويظهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة فى -  
مخافة المسيح، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو أو بالحرى ليزنى  
ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط فى الشراب والبعى والفساد والإثم، فهذا هو الكافر  
بعينه. وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرءون ويتناولون الأسرار  
المقدسة إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر.

بيتى بيت صلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. لقد جعلتموه سوقاً لبيع  
العسل والحلى وما شابه ذلك. لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق  
حميركم وخيلكم. جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع. فبائع العسل بالكاد  
يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئاً من الفائدة  
نظير أتعبه. حتى الأشياء التى لا يمكن أن تحدث للبيع فى الأسواق العامة،  
تحدث لهم فى موالد الشهداء.. يا للغباء؟ يا لعقولكم المغلقة! وإذا كانت بناتكم  
وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الذنس الذين ينظرون  
إليهن، وإذا كان أبناءكم وأخوتكم وأصدقائكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم  
إلى مواطن الشهداء، فلماذا جعلتم لكم بيوتاً؟ هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد  
لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجر بدلاً من أن  
يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس. دعونى أقول لكم بصراحة تامة إن  
كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذراً قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا  
تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء، فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو  
المباني القريبة منها أو فى أركانها.

هتفت لثاونا متعجباً:

كأن الأب المقدس شنودة حاضر بيننا، يشهد بعينه ما يحدث هنا فى هذا  
المولد الآن، وهو ما يجرى مثله فى كل الموالد الأخرى بالبلاد فيما أظن، فأنا  
أذكر من أيامى فى ترنيط أن وقت خروجنا إلى المولد، كان من أبهج الأوقات،  
ونحن كنا نقيم مولد القسيس استيفانوس فى بشنس من كل عام، ونفعل فيه فعل  
هؤلاء الناس هنا فى دير أتريب. يا لله!

ولم أفض لثاونا بما فاضت به مشاعري وأنا أقول ذلك، فلقد أخذتني الذكرى، وعصفت بروحي، إذ إن ولعى بالغالية آمونة بدأ عند ذلك الوقت الربيعي الجميل، كنت أنا وكذلك هي في مقتبل الدفاعة والصبا، فوقعت عيني عليها لأول مرة، وقد خرجت مع أخواتها وأمهأ، وهي ترتدى ثوبا من الكتان الأبيض الخفيف الموشى بخيوط من الحرائر المذهبة، فبدت لى أجمل من بسنته الماء اليناعة، وأروع من زهرة الرمان المتوهجة، فلم أتمالك نفسى لمرأها واشتهاها قلبى الآثم، وضعفت روجى، تحت وطأة رغبتي فيها، فرحت أتقرب منها وقت أن بدأ الرقص، وأخذت أهمس فى أذنيها بأجمل كلمات الوجد، حتى سرت عدوى روجى فى روحها، فأخذتها وابتعدنا عن حلقات الراقصين، وزحام الناس فى المولد، وجرينا باتجاه الحقول فدخلنا دروة من دروات الفلاحين الطينية المعمولة فى الغطيان للاستفاعة وقت القيط، ورحنا نتهامس وأنا أقول لها يا أجمل بسنته على مياه النهر، يا وردة البلاد الجميلة، يا رمانه الشتاء وبرتقالة الصيف، أما هي فقد همست لى بأجمل كلمات الحب وشعرت أن قلبها فاض بما فيه وكأنه فيضان النيل إذ يجيء فجأة كل عام، وأن قلبها بات مثل قلبى ريشة لا تملك أمرها وقد طوحها النسيم.

ولم نتمالك أمرنا، فأخذتنا جاذبية الأجساد، وتملكنا جنون الأرواح إلى الحد الذى أقسمنا عنده على الحب والمودة ما بقينا، وأعلنت لها أننى سأطلب من أبى أن يزوجه لى بعد موسم الحصاد، لكن القدر كان أسبق، فكان من أمرى وأمرها ما كان.

أظن أننى سرحت بعيداً بأفكارى، وأنا أستعيد كل ذلك، إذ لم أنتبه إلا لنهاية كلام ثاونا، وهو يقول:

— ثم إن الأب شنودة مات سنة ٤٥١ بتواريخ الروم بعد رئاسة دامت ٦٦ عاماً للدير. وهذا معناه أن كثيراً من الناس لم يتخلوا عن عادات الوثنية الأولى حتى الآن. يا رب ارحم: كيراليسون.

نمت نوماً متقطعاً فى القلاية طوال الليل، فقد كانت الحرارة شديدة خلافاً لما هي عليه عادة فى هذا الوقت من السنة وقد ترطب الهواء ترطباً شديداً ببخر

النيل، رغم أننا لم نبلغ شهر مسرى بعد، وكانت أصوات الطاربين والراقصين خارج الدير مع طبلهم وزمرهم لا تتيح مجالاً للنعاس والنوم إضافة إلى هائمات الريف من الناموس والطنائرات المتغذية على أخضر الأرض، وقد سهرت تطن طوال الليل، وما أن قارب الفجر على الانبلاج، وبينما كان النوم يأخذنى حيناً والصحو حيناً آخر، إذ سمعت أصوات صراخ وهرج فى الدير، فخرجت من القلاية مع ثاونا سريعاً لنستجلى الأمر، وكان قد هب مفزوعاً عند سماعه ذلك. تتبعنا مصدر الأصوات فى الظلام، حتى وصلنا إلى الجناح الخاص بقلاليات الرهبان عند الطرف الآخر من الفناء المواجه لقلابتنا، فوجدناهم قد تجمعوا حول راهب بينهم، وقد أخذوا فى ضربه وركله، بينما هو يصرخ ويستغيث، ثم سحبوه واقتادوه إلى قلاية الأب الأسقف سرابيون رئيس الدير ونحن معهم، فأمرهم أن يكفوا عن ضربه ويتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر، وما أن كفوا عن ضربه وتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر وهادأوا قليلاً حتى تقدم راهب، كنا قد تعرفنا عليه أثناء العشاء واسمه نركيصوص، حاملاً لفائف وأوراقاً بردية خاصة بالراهب المضروب، وكان بعض الرهبان قد أشعلوا خلال ذلك وقيدة ليستضىء بها الجميع، وقال نركيصوص أنه لما فتح تلك الأوراق، وجد بها هرطقات ودساً على يسوع والكنيسة، فأمر الأب سرابيون بإحضار المزيد من المشاعل والشموع، فلما أحضروها، أمر الراهب المضروب أن يثلو على الجميع، والذين كانوا بقمصان النوم الخفيفة، ما بها بعد أن استفهم عن ملكية الراهب لهذه الأوراق، فلما قرأ ما بها، اتضح أنه فسر كلاماً من الكتب العبرانية على غير وجهته، وأخفى ما فيها من نبوات الأنبياء عن السيد المسيح حتى إنه لما جاء إلى ذكر الشجرة التى كان فيها كيش إبراهيم الخليل مربوطاً بقرنيه، وفسر الآباء أنها مثال خشبة الصليب، أخفى ذكرها وأزاله، واتضح أيضاً من قرايته أنه فسر كتباً كثيرة كذباً، كما أن له أقوالاً مخالفة كلها شقاق، مثل قوله: إن السيد المسيح مولود من مريم ويوسف، وأنكر قوة الولادة العجيبة، وأن السيد المولود بلا تعب، هكذا ولد من العذراء بلا تعب، هو الإله وهو الإنسان بالحقيقة وهو واحد من اثنين، وخالف الإنجيل الصادق كما شهد متى، وما قال فى الولادة ولا تقدر أبواب الجحيم أن تقاومها،

واتضح من قرايته للفائفه المكتوبه بخط يده الآثمه، أنه قرأ كتب الصابئة والمعتزلة، وكان يتلو ذلك دون أن يعتذر أو يستغفر، بينما نحن جميعاً نصلب ونستغفر ولا تكف أفواهنا عن قول: حاشا لله. وكان الأب سرابيون صابراً عليه، وعلى سماع قوله الطمث حتى يستجلى الأمر منه كله مرة واحدة، ثم إن الأب سأل نركيصوص عن كيفية وقوع أوراق الملعون فلا أس- وهذا كان اسمه- فى يده، فقال نركيصوص إن فلاس دفعها إليه بعد صلاة الليل ليقرأها، وأنه كان قد تجادل معه فى الصباح، فقال الملعون له، أنه يعتقد بأقوال الألعن منه آرابيا، وخصوصاً مقالته بأن النفس تموت مع الجسد، وتقوم معه فى يوم القيامة، فصلب الرهبان جميعاً بعد أن قال الأب سرابيون: إن هذه مقالة مفسودة أبعدها البيعة المقدسة بعد انعقاد مجمع للنظر فيها، ثم إنه آمن بأن الابن مخلوق والروح القدس، فما أن بلغ نركيصوص هذا الحد من أقواله حتى أمره الأب سرابيون بالسكوت، ثم إنه سأل فلاس عن اعتقاده فى هذه الهرطقات، فلم يرد ولم يستغفر، وعند هذا الحد، أمر الأب سرابيون أن يجر الملعون إلى سرداب مظلم بالدير، وأن يمنع عنه الطعام، وألا يعطى إلا شربى ماء كل يوم حتى يتوب، ثم إنه أمر بإحراق هذه البرديات الطمث وأن تفتش قلاية فلاس جيداً ويخرج كل ما فيها، وأن تطهر بطهورات كثيرة حتى تخرج ما بها من شياطين وأن تقرأ بها المزامير عند صباح غد، بعد فعل ذلك.

فأخذ الرهبان فلاس وظلوا يضربونه حتى سح دمه وتمزقت ملابسه، وبان لحمه، فلما نظروا عورته، وجدوا قلفته كما هى، وظهر لهم أنه غير مخن، فاكتملت فضيحتة وتأكدت نجاسته وتيقن الكل من أنه ليس مسيحياً تاوضوسياً حقاً.

وهكذا عدنا إلى قلاياتنا جميعاً لنلبث بها، حتى وقت صلاة باكر عند الفجر. كانت هذه هى المرة الأولى منذ التحاقى بالبيعة، التى أرى فيها إنساناً هرطقياً بعينى، وأسمعه بأذنى، لذا كنت مضطرباً جداً، وزاد اضطرابى ما رأيته من ضرب وبهذلة له، وهو لا يقوى حتى على رفع رأسه والنظر إلى أحد لشدة حنق

الجميع عليه وكراهيته لهم، فما أن دخلت القلاية حتى ارتيمت على فراشي وطلبت من ثاونا بكل أدب ورجاء أن يعطيني شربة ماء من القلة الموضوعية بجانب كوة القلاية، فلما شربت واستعدت نفسى قليلا، قلت لثاونا وكنت فى غاية الانفعال:

- أنا حتى الآن لا أكاد أصدق كل ذلك الذى رأيته، كيف يجرؤ بربك واحد كافر كهذا الفلاس أن يخفى أمره ويدلس بالعقيدة على إخوانه فى الدير؟! ما طينته بحق الرب، والله أظن أنها من طينة الشياطين يا أخى! تنهد ثاونا وقال بعد أن تناول القلة منى وشرب:

- الشياطين ليسوا من طين يا بدير، إنهم من نار، وربما كان فلاس هذا ملكانياً، وقد ثبتت حقيقته بمسألة الختان، فقد يكون أندس فى الدير لسبب من الأسباب. ربما جاء ليتعرف على أحوال كنيسة الديرانية، فهو لا يمكن أن يكون يعقوبياً مثلاً، فنحن أشد تحفظاً فى ديننا وممسكون بنظام الديانة أكثر من الملكية، ومسألة الختان هى من مسائل الخلف بيننا وبينهم فى الفروع، فنحن القبط متبعون آثار أبينا إبراهيم فى الختان الذى أمره الله تعالى به، حيث قال له: «أكل نفس لا تفعل هذا تفرز تلك النفس من شعبها» وأطاع إبراهيم مع شيخوخته الله واختتن، والقيبط يتبعون ناموس الله فى ذلك هنا فى العتيقة. والسيد المسيح له المجد صاحب الشريعة الجديدة دخل بيت الختان واختتن، وإلا فما كان اليهود يجدون عليه فى صلبه علة أكثر من أنه غير مختون، ولولا أكمل سنة التوراة فى الختان ما كتب اليهود اسمه فى منظره الكهنة ليخدم فى الهيكل، كما شهد إنجيل لوقا أنهم دفعوا له السفر ليقرا وكان الفصل الذى قرأه: «روح الرب على»، لهذا أرسلنى أبشر العميان بالنظر والمأسورين بالتخلية وأبشر بالسنة المقبولة للرب».

- آه. قلت. ثم واصلت قولى:

-كنت أظن أن الفرق بين القبط والملكية هو فى أصل واحد فقط وهو الاتحاد. قاطعنى ثاونا موضعاً:

- لا .. لا يا بدير. فنحن مختلفون في ثلاثة عشر فرعاً غير الأصل، ومتفقون في الثلاثة الأقسام ووحداية الجوهر. فنحن الذين على مذهب يعقوب، نعتقد أن المسيح له طبيعة واحدة من طبيعتين ومشية واحدة من مشيئتين وأقنوماً واحداً من أقنومين، لأن أقنوم الابن الوحيد الكلمة له المجد لمّا شاء اتحاده بطبيعة البشر أخذ من الظهر المريمى ناسوتاً كاملاً ذا نفس عاقلة وجعله واحداً مع لاهوته من غير اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ولا تغيير، فصار الناسوت المأخوذ من الظهر المريمى مع كثافته بهذا الاتحاد الذى يفوق العقول البشرية مع الابن الأزلّى قبل كل الدهور واحداً فى فعله الإلهى من إشفاء المرضى وإقامة الموتى وتطهير البرص وفتح عيون العمى للنظر.

قاطعته بدورى متسائلاً:

- ولكن ما علاقة الملكانية بالكتب الممنوعة. لقد اتهم فلاس بقراءة كتب ممنوعة؟

فبدا الحزم فى صوته وهو يقول:

- بدير، فلننه حديثنا هذا ونصل ثم ننام. الكتب الممنوعة هى للصابئة والمعترلة، ولا داعى للخوض فى أمرهم وأمر فلاس الملعون.

فليكن كل منا فيما يعيننا ويخصنا. الدنيا ليل، والشياطين تسعى فى الظلمات، فلا داعى لأن نفتح لها باباً تدخل منه وتهيمن.

ثم أخذ يتلو: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب. انظروا، اسهروا، وصلّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. كأنما إنسان مسافر ترك بيته وأعطى عبده السلطان، ولكل واحد عمله، وأوصى الباب أن يسهر. اسهروا إذ أنكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت، أمساءً أم نصف الليل، أم صباحاً الديك، أم صباحاً لئلا يأتى بغتة فيجدكم نياماً، وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا».

غادرنا الدير بعد الصلاة مباشرة، والشمس عروس مزهضة فى سمائها، فتركنا أتريب لنواصل رحلتنا إلى الأراضى الموحلة دون أن ننتظر لنقف على ما كان

من أمر الملعون فلاأس، وكان الرهبان قد زودونا بزودة من عسل أتريب المشهور بجودته وحلاوته، وقدرته على شفاء الأمراض، لأن النحل العامل للعسل أكثر غذائه على زهر البلسان الذى يقال إنه يكثر وينمو جيداً فى هذه النواحي منذ الزمن البعيد، وكذا قدموا لنا جرة صغيرة من السمن المصنوع من أجود أنواع حليب الجاموس المنتشر بقرى المدينة، والذى أكثر مرعاه من الحشائش الطرية المنتشرة فيما بين النيل وبرة المدينة، وكان من عادة أهل القرى فى هذه النواحي، كما قيل لنا، أنهم يتركون هذا الجاموس يرعى طيلة الوقت فى أحشاش البرية دون خوف وكأنه يرعى فى الحقول، على أن يجمع للحلب والمبيت أواخر النهار. وقد علمنا كذلك أن العديد من أراضى قرى أتريب هى تبعية ديرها، لذا فهذا الدير يعد من أعظم وأغنى الأديرة فى البلاد، وقد شاهدنا الفلاحين وهم منصرفون لأعمالهم فى الغيطان، فكانوا كلما مررنا بالقرب من بعضهم يرفعون رءوسهم ويحيوننا باحترام وإجلال، أو يسألوننا أن نباركهم. كما قدم لنا بعضهم جميلاً وتوتاً وغيرهما مما كان يجمع من ثمار وقتئذ.

هكذا رحنا نجتاز القرى حتى وصلنا إلى البرية، وبقينا سائرين، حتى وجدنا نفسينا أمام عمارة مهيبية شامخة، قال لى ثاونا: إنها برة أتريب القديمة.

بقيت وقتاً وافقاً أمامها، مأخوذاً بمشهدها العظيم، وقد رأيت عماراتها قائمة على عمد طوال ضخام من الحجر الأسوانى الأسود، المكلل بتيجان حفرت على شكل زهرة البسنت التى لم تتفتح أوراقها بعد، وقد بدت لى هذه التيجان وكأنها تيجان أعمدة بيعتنا التى تركناها فى قصر الشمع بمصر العتيقة. سألت ثاونا أن ندخل قليلاً لنشاهد هذه البرية من الداخل، لأن البرابى القديمة العظام قلما كانت توجد فى أراضينا البشمورية، ربما كان ذلك بسبب كثرة الماء والغمر فى مجمل هذه الأراضى، مما يعرض العماثر مهما كانت عظمتها للتلف. وكنت مدفوعاً برغبة اللولج ومشاهدة ما بداخلها، ربما لأن هذه المرة كانت الأولى فى عمرى التى تسنى لى فيها رؤية برة كهذه من برابى الكفرة ومشاهدتها عن قرب، بدا ثاونا متردداً قليلاً، لكنه سرعان ما تحمس للدخول، وكأن هاتفاً قد هتف به أن



يفعل . نزلنا عن ركائبنا، ودخلنا مجتازين العتبات الحجرية العالية، وما أن انتهينا،  
حيّي وجدنا نفسينا داخل بهو فسيح ممتد، وقد خرجت جوانب من حوائطه  
وعمده، أما ما تبقى منها، فهو مزين منقوش بالنقوشات البديعة التي لم تقع عيني  
على جمال مثلها قط، إذ حفلت بتصاوير وأشكال، غاية في الذوق والتناسق. أخذ  
ثاونا يصلب وهو يتأمل النقوش . قلت له:

– يا الله! برّيا عظيمة يا ثاونا! يبدو أنها كانت ذات شأن في زمنها القديم،  
وربما بناها واحد من ملوك العماليق الأقدمين؟!

لم يرد ثاونا، إذ كان منهمكاً في تأمل النقوش والتصاوير المحفورة على بقايا  
الحوائط، وبعد ذلك قال لي إنها كتابات سجلت بالقلم العتيق .

لا أدري، لماذا خيل لي أن ثاونا يقرأ جيداً ويفهم ما هو موجود على هذه  
الحوائط، فلقد نظرت إليه وراقبته خلسة أكثر من مرة أثناء تجوالى وتفقدى للبهو،  
فخيل إلى أنه يحرك شفّتيه حركة القارئ للكتابات، وهو يصلب بين الحين  
والحين .

قلت له لأخرجه من تأملاته، ولأجاذبه بعضاً من حديث:

– أترى هذه العُمدُ العظام يا ثاونا؟ أليست أخت أعمدة قاعة الصلاة الجامعة  
في بيعتنا المحروسة بقصر الشمع؟! وكأن من عمل تلك، هو من أبدع هذه التي  
نقف أمامها ونراها الآن!

تنهد ثاونا، ورد:

– في بيعتنا فقط؟! قل في كل البيع والمساجد، ألم تر أعمدة المسجد الجامع  
في فسطاط المسلمين؟ إن عمارة بيع القبط، وعمارة مساجد المسلمين، ما كان لها  
أن تكون على ما هي عليه من العظمة والجلال، لولا هذه البرابي يا بدير لأن  
العمد العظام، والأحجار الجيدة من الجرانيت والبازلت وخلافه، والتي شيدت بها  
البيع والمساجد، إنما جيء بها من عمارة هذه البرابي، وخصوصاً برابي منف

وعين شمس وأتريب لقربها من بابلين وقصر الشمع وفسطاط المسلمين، أما في مصر العليا، فقد تحولت بربابي بكاملها إلى كنائس وجوامع، ولم يسلم منها إلا ما كان بعيداً عن الأعين، عزيزاً على الأيدي. واقعاً خارج القرى والبلدان، ولقد ظلت هذه البرابي لزمن ملائماً ومقراً لكثير من المؤمنين المسيحيين الفارين من اضطهاد الروم والوثنيين وملوكهم، وفي برية أدفو دلائل تدل على دخول المسيحيين إليها والعيش تحت أسقف قاعاتها المسرلة بسخام الشموع والوقايد والأسرجة التي كان يستضيء بها هؤلاء الأتقياء أثناء قراءتهم للمزامير وتأديتهم للثاؤوكيات.

سكت قليلاً وهو يشخص ببصره بعيداً، ثم واصل كلامه:

- لكن هذه البرية لن تستمر على حالها وتسلم من الأذى، إذ سرعان ما ستختفى مثلما اختفت من قبل برية عين شمس، وهي المدينة التي كانت تسمى قديماً «أون»، وهذه البرية كانت في الأصل هيكلًا يحج إليه الناس ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل التي كانت في قديم الدهر، ويقال أن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن هرمس الأول المتكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجد الله فيها.

ويقال أن هياكل هذه البريا، كانت عدتها في الزمن الغابر اثني عشر هيكلًا وهي هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة وهيكل النفس، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات وهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشتري وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضًا مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثنى.

وعلاوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: «لما كان صانع العالم مقدساً عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، ويتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقربين لديه، وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم ويكونوا وسائط لهم عنده».

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها، وهى هياكلها، وأنه لا بد لكل روحانى من هيكل، ولابد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحانى إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاريها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالى والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو فى موضعه من العلم الرياضى.

وسموا هذه السبعة السيارة أرباباً وآلهة، وسموا الشمس إلهة الآلهة ورب الأرباب، وزعموا أنها المقيضة على السنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيين لتقربهم إلى البارئ لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يصلون لكل كوكب يوماً يزعمون أنه رب ذلك اليوم، وكانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، والثانية عند استوائها فى الفلك والثالثة عند غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشتري يوم الأحد وللمريخ وللنجم يوم الجمعة.

طفنا بالبريا قليلاً، كانت تماثيل عظيمة الحجم، دقيقة الصنعة، ملقاة هنا وهناك، وقد تهشمت أجزاء منها، أو سلب ما كان يغطى بعضها من ذهب على الرعوس وجوهر فى مواضع العيون، وكانت أحجار كثيرة ملقاة على نحو مهمل. وقد تغطت برسومات ملونة بديعة، أو نقشت بالقلم المصور القديم، وقفت تأمل كل ذلك بإعجاب، لكنى كنت لا أكف عن اختلاس النظر إلى ثاونا بين الحين والحين، وقد داخلتنى رغبة بشأنه، فقد تيقنت أنه يقرأ القلم القديم، وربما عرف مغزى هذه الرسوم والتصاویر، ويبدو أنه تنبه لذلك، إذ قال لى فجأة:

— هيا يا بدير، علينا أن نجد السير، حتى نصل إلى مكان مأمون قبل أن يليل الليل علينا، ونواجه مشاكل قد لا نتوقعها فى الطريق. هممت أن أسأله: هل كان

يقرأ حقاً ما هو منقوش على الأحجار؟ وهل هو ملم بالقلم العتيق المنعدم الآن؟ لكنى خفت أن يظن ثاونا بى الظنون بعدما تذكرت ما كان من أمر الراهب، فلاس، وخصوصاً أننى أبديت له إعجابى بالأصنام- وليسامحنى الرب على ذلك - وقد حبست سؤالى، رغم أن ثاونا لم يكن- فيما يبدو لى- كبعض من الكنسيين المتزمتين الذين أصادفهم فى بيعتنا، بل كان واسع الصدر، غزير العلم، عميق الإيمان، وإن كان قد تردد عنه فى البيعة، أنه كان فى حياته العلمانية الأولى، قد درس فى مكتب للصبيان ببلدته أخميم، كما تعلم الحكمة والطبابة وفنون التصوير على يد عجوز مشهورة فى هذه البلدة، يقال لها دلوكه، وأن هذه المرأة ظلت حتى موتها متمسكة بوثنيتها، وكانت تجل دين آبائها من عبدة الشمس، وأن المسيحيين المؤمنين، كادوا أن يفتكوا بها أكثر من مرة، كما جرى مع كثير من الوثنيين.

وفى النهاية تركوها، بعد أن طالبوا الجميع بتجنبها، فلما شاخت، ذهبت إلى برىا قديمة بالبلد، وظلت مقيمة فيها، حتى وجدها بعض البدو الرعاة ميتة هناك ذات صباح، وهناك من يقول إن المؤمنين فتكوا بدلوكه داخل البرية وهدموها، والله أعلم بذلك.

لذا كان بعضهم يتهامسون بين الحين والحين بأن ثاونا له فى السحر والكيمياء والسيما، ويقال أن الأب يوساب أمر بتفتيش صومعته ذات مرة، لكنهم لم يجدوا عنده شيئاً يشين، بل كانت صومعته كلها -وكما هى الآن- مملوءة بكتب العقيدة، وكل هذا كان بسبب كتاب فيسيولوجى، وجوده يقرؤه ذات يوم فى فناء البيعة، وهو كتاب به كلام وأساطير وقصص خيالية وتلميحات لاهوتية، فصحوه بتركه، والفروغ إلى كتب اللاهوت الخالصة.

عند خروجنا من البرىا وكانت واسعة جداً، وجدنا جماعة من هوام الناس ينبشون بهمة فى أكوام الحجارة والشقافة، عند الأجزاء التى تهدمت منها. هالنى منظر هؤلاء الناس، إذا كانوا برعوس حاسرة لا تغطيها طواق أو عمائم كما هى عادة أهل الريف والمدن، وكانت شعورهم متربة مهوشة، منكوشة على أجسادهم

شمالات خشنة رثة، وبدوا لى وكأنهم من العلمانيين البرابرة الذين لا يعرفون اللسان القبطى أو اللسان العربى، داخلنى خوف من مرآهم، وخشيت أن يهاجمونا فيلحقون بنا مكروها، وأفضيت بمخاوفى إلى ثاونا، مقترحا عليه أن نختبئ حتى يذهبوا، لكنه أخذ يهدئنى، ثم إنه أقبل عليهم وحياهم، وسألهم عن الطريق، وكنت أعرف أنه يعرفها كما أنى أعرفها، لكن خيل إلى أنها وسيلة ابتدعها ليأخذ منهم الأمان، وقد صدق حدسى، إذ تمس بعض منهم وتقدم ليدلنا على الطريق، فلما نظرت إليه متأملاً، وجدته يحمل صنما صغيرا من الحجر الأسود لا يزيد حجمه على كف اليد، وقد تعجبت عندما سأل ثاونا أن يأخذه ويعطيه مقابلته أى شىء.

أخذ ثاونا الصنم من يد النباش، وراح يقلب فيه ثم قال:

— لا.. أريد شىئا أفضل من ذلك، هل لديك ما هو من الذهب أو به جوهر؟

أشار النباش على ثاونا أن ينتظر قليلا، ثم إنه غاب بعض الوقت، وعاد حاملا وعاء ارتفاعه حوالى شبرين، قدمه لثاونا وهو يرمقه، بنظرات ذات معنى.

تناول ثاونا الوعاء الذى بدا لى للوهلة الأولى، وكأنه غير ذى معنى، وراح يرفع غطاءه المحكم عليه، وهو على هيئة ابن آوى، انقبضت قليلا بينما كان ثاونا يعمل ذلك، فلما نظرت معه ما بداخل الوعاء، وجدنا ما يشبه بقايا أحشاء آدمية جافة، وإن كانت زكية الرائحة، أعاد ثاونا الغطاء إلى ما كان عليه مرة أخرى، ووضع داخل جراب سراج بغله، ثم أعطى للنباش نصف فضة، ومضينا بينما الرجل يلهج بالشكر والامتنان لثاونا.

قلت لثاونا محتجاً:

— ماذا ستفعل بهذا الشىء الذى أخذته من الرجل بريك يا ثاونا؟!

رد ثاونا بهدوء:

— اسكت يا بدير، ولسوف ترى بعد قليل.

وقبل أن ألحف عليه بمزيد من الأسئلة، استمر شارحاً:

- هؤلاء الناس من الحوريات، وهم جماعة من العلمانيين الذين لم تهتد أرواحهم بالإيمان بعد، وقد ظلوا جيلاً بعد جيل، لا يتعشون إلا من نبش البرابى القديمة والحفر والتنقيب فيها، وهم منتشرون فى جميع أنحاء البلاد، ولقد أطلق عليهم اسم الحوريات، نسبة إلى معبود قديم، انتشرت عبادته فى أزمنة قديمة اسمه حور، وكان كثيراً من هذه البرابى يقام لعبادته، والتقدیس له.

عندما يتحدث ثاونا بكلام من هذا النوع أشعر أنه يخفى معرفة لا يبوح بها، لكنها تغلت من لسانه بين الحين والحين، وكان يبدو لى كلما تكلم، بكلام من هذا النوع، وكأن هنالك أمراً يعذبه، أو أن روحه لا تعرف الطمأنينة واليقين، وكنت أوشك فى كل مرة يخبرنى فيها بمثل هذا الكلام، أن أسأله:

- كيف عرفت ذلك يا ثاونا؟ من أخبرك بكل هذه المعرفة؟ لكنى كنت أؤثر السكوت، إذ يظل شىء ما بداخلى، مخزساً للسانى، يمنعلى من الفضفضة والبوح، ربما لأنى كنت أخاف أن يقول لى ما هو غير إيمانى فأفقدته، فقد أكون تأثرت، بما يقال عنه فى البيعة، وربما لهذا السبب أتشكك دوماً فى صحة إيمانه، لكن، فليسامحنى الرب، فأنا لم أسمع عنه أبداً ما يلوئه ولم تخرج من فمه إلا الكلمات الطاهرة الطيبة.

أثرت السكوت، بعد أن قال ثاونا ما قاله، وإن بقيت متشوقاً إلى ما سوف يكون من أمر هذا الإناء الذى حمله معنا.

قطعنا مسافة تاركين أتريب وبريتها خلفنا، وبقينا سائرين حتى أوشك النهار على الانتصاف. كنا قد درنا حول الزراعات مرة أخرى، وبقينا ملتزمين الانحدار مع خط النهر، إلى حيث غايقنا فى الأراضى الموحلة، وكنا قد بدأنا ندخل فى مناطق حرشية من البرارى، حيث انعدمت آخر قرى أتريب من نظرنا، بعد مدى قصير من رحلتنا، وكانت هذه المناطق البرية، لا تفلح ولا تزرع من قبل أى إنسان، بل كان ينبت فى أغلبها البوص والهيث وأصناف عدة من الحشائش الطوال، وكانت الطريق صعبة بعض الشىء إذ كانت تضيق حيناً فلا يمكن لنا اجتيازها إلا ركوبة خلف ركوبة، وتتسع حيناً آخر اتساعاً عظيماً، حتى إننا نضل،

ولا نعرف إلى أية جهة نهتدى، اللهم إلا إذا بدت لنا علامة تدل على الطريق،  
كأثر لأقدام ركوبة، أو رجل إنسان، وكان خط النهر يضيع منا أحياناً، فلا نعرف  
أين الأرض وأين الماء، لكثرة المياه المتجمعة في الأراضي السبخة، فلما بلغنا ذلك  
الحد من السير، قلت لثاونا:

- من هنا يكون مبتدأ أراضي البشموريين فهي ممتدة من الشمال عند البحر  
الرومي، لكن مازال أماننا الكثير من المسير حتى نصل إلى مبدأ البلدان والقرى  
ونصل إلى موقع حريهم، وهذا الطريق لا يسلكه إلا بعض من الأهالي، إذ إن  
أكثرهم يروحون ويحيثون بالمراكب والقلايك في النهر، إذا ما هبطوا إلى بابلون  
أو بلاد الصعيد، أما إذا أرادوا التعدية إلى الإسكندرية أو مريوط فهم يركبون  
مراكب في البحر الرومي، وهو لا يخلو من مخوفات، فقد ذهب عم لى ذات مرة  
إلى الإسكندرية فظهرت للمركب الذي أقله دابة عظيمة من دواب البحر وكادت  
أن تقلب المركب أو تفتك بمن عليه، لولا أن الرب ستر، واستطاع المراكبية قتلها  
بحرابهم والتغلب عليها.

غامت الشمس فجأة لوقت يسير، وسرعان ما هطل مطر غزير، لم يسبق لنا أن  
شاهدنا مثله في هذا الوقت من السنة، إذ إن شهر بؤونة الذي نحن فيه من الشهور  
الحارة، المعتاد فيها انعدام الأمطار، رحنا نحمل أنفسنا من ذلك الهائل، الذي  
باغتنا دون أن نحسب له حساباً، فقصدنا شجرة عريضة الأوراق، وقفنا نحتمي  
بها حتى يتوقف الماء، وبالفعل فقد انتهى دفعة واحدة فجأة، مثلما هطل فجأة،  
ولكن لم يمر إلا وقت يسير، وبينما نحن نتأهب لمواصلة المسير، وإذ بالسماء تسودُّ  
مرة أخرى، وتصبح الدنيا وكأنها حالك الليل، رغم أننا كنا فيما بعد الزوال،  
بقليل، تطلعون إلى الأفق، فوجدنا جيشاً جراراً من الجراد، يهبط إلى الأرض،  
ويخبط بعضه بوجهينا ورأسينا، ويحط بعضه على البغلين، فأخذنا ندفعه ونحن  
نصلب ونقدس، ذاكرين اسم الرب مراراً، بينما راح البغلان ينهقان وينفران وقد  
فرعا من هذه الهوام الطائرة الهابطة من السماء. لا أدري، كم من الوقت مضى  
علينا، مغمضين عيوننا ونحن على هذه الحال، لكن ما أن فتحناها مرة أخرى،

ونظرنا الأرض حولنا، إلا وجدنا الأخضر، وقد تحول إلى أصفر، فقد أتى الجراد على كل مخصوضر مورق، ولم يترك على مرمى البصر إلا الأعواد، التي بدت وكأنها حراب طوال ثبتت إلى الأرض.

تمتم ثاونا بحزن:

- يا مخلصنا يسوع.. إنها مصيبة سوف تحل على الفلاحين وأصحاب الزراعات فى القرى والبلاد، فهذا الجراد لن يترك لهم شيئا من الزرع، الذى أوشك معظمه على النضج والحصاد.

لم أرد، إذ كنت أفكر فى دوبيات الأرض ووحوش المكان المختبئة بين الأعواد والحشائش، والتى لا بد أن تكون قد خرجت بعد نزول الجراد، كنت أخشى فى الحقيقة، أن تسبب لنا أذى أو مكروها، فلما عبرت لثاونا عن مخاوفى هذه، قال:

- لا أظن ذلك يا بدير، فمعظم دوبيات الأرض سوف تسعد بهذا الجراد، فهو وليمة ربانية جاءت من السماء، إن الرب يسبب لكل شىء سببا، المسألة الآن هى أن لدينا عملا نريد أن ننجزه فى هذا المكان قبل تركنا له.

كان يقول ذلك وهو يتلفت حوله كمن يبحث أو يفتش عن شىء، بقيت أتبعه وهو يسير، حتى بلغنا موضعا توقف عنده وراح ينظره باهتمام، كان بقعة بلقعا لا نبت فيها ولا خضرة، على نحو مغاير لما حولها كثيرا، تعجبت وسألت ثاونا، وقد لاحظت ارتفاع ذلك الموضع قليلا عما حوله من الأرض:

- كيف تأتى ذلك يا ثاونا؟ كيف تتحجر الأرض فى هذا الموضع ولا يشملها الطين مثل المواضع التى حولها؟!

- انزل يا بدير أولاً، وهيا معى حتى ننتهى من مهمتنا.

طلب منى ذلك وراح يخرج الوعاء الحجرى الذى كان قد أخذه من النباش والموضوع داخل خرجه، وحمله سائرا وأنا أتبعه حتى وصلنا إلى فتحة بالأرض وقبل أن ندخل أمرنى ثاونا:



– اعقل الدابتين وتعال .

ذهبت إلى الشجرة التى كنا قد احتمينا بها منذ قليل وأنا أسحب الدابتين وكانت على بعد خطوات قليلة من الموضع الذى بقى عنده ثاونا ينتظرنى، فلما عدت هبطنا من الفتحة قليلا لندخل إلى مساحة صخرية جافة، وبدا المكان وكأنه مأوى لوحش من الوحوش البرية التى تعيش فى هذه المنطقة . خفت أن أتقدم أكثر لكن ثاونا أشعل وقيدة من الزناد الذى يحمله بجيبه السيال دوماً ولا يفارقه، فلما استبان المكان، هالنا ما رأينا من رسومات ملونة لشخوص وحيوانات على جدران هذا الكهف وزاد اندهاشى لوجوده فى هذا الموضع، وكانت التصاوير جيدة وبحالة سليمة وألوانها زاهية دون فساد وكأنما رسمت بالأمس فقط . تمت ثاونا وقد حبس أنفاسه :

– إذّ.. فقد قادتنا الكا إلى صاحبها، والجراد كان علامة أظهرتها لنا . ثم أنه شمر عن أكمامه وراح ينقب الأرض بسكينه، حتى نقبها نقباً يكفى لإنزال الماعون بها، وكنت أرقبه مرتعداً، فأنا لم أفهم شيئاً مما قال، بل والحق أقول- لقد خفت منه قليلا أثناء ذلك، وقد شعر أنه يعمل عملاً من أعمال السحر والغموضات، فلما أقر الوعاء فى الحفرة، وهال عليه التراب مرة أخرى، طلب منى أن نشرع فى ترتيب قُداس جنائزى، ترددت قليلا قبل أن أفعل، لكنى تذكرت وصايا الأب يوساب، وتذكرت أن مرتبة ثاونا فى الكهوت هى ضمن التشمسة، وما أنا إلا قِيم يأتى موضعى فى آخر ترتيب الكهوت، فامتثلت لأمره دون أن أنطق، ورحت أرتل وراءه وأنا أصلب، وقد أخذتنى آيات الرب :

«وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا، وإن أحببتهم الذين يحبونكم فأى فضل لكم: فإن الخطاة أيضا يفعلون هكذا، وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم، فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لئى يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً، فيكون أجركم عظيماً وتكونوا بنى العلى، فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار، فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيماً، ولا تدينوا فلا تدانوا . لا تقضوا على أحد

فلا يقضى عليكم. اغفروا يغفر لكم. اعطوا تُعطوا كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يعطون فى أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذى تكيلون يكال لكم».

فلما انتهى وانتهيت، تنحنحت وسألته بأدب واحتشام:

- عفوا أيها العزيز ثاونا، ولكن كيف نصلى ونقرأ كلمات الرب على هذا الشئ الذى هو بقاءا جسم لم يتعمد، ألم يقل سيدنا يسوع المسيح للناس: «إن لم تولدوا من الماء والروح لم تعابنوا ملكوت الله لأن المولود من الجسد، جسد هو، والمولود من الروح فهو روح، وحث على حياة النفس بهذا الشرط، فصار كل من يشتهى أن يحيى نفسه من موتها، يقبل شرط الغطس فى ماء التوبة أولاً، ثم الاعتماد على اسم الثالوث المقدس الآب والابن والروح القدس وحفظ جميع ما أوصى به سيدنا المسيح.

نظر إلى ثاونا بمحبة، وقال:

- صدقت أيها الأخ الطيب، وصدق الرب فى كلماته، لكن هذا الإنسان الذى عثرنا على بقاياه، عاش زمن الوثنية، قبل أن يوافى ملاك الرب سيدنا، ربما بأكثر من ألف عام، فهو لم يعيش زمن الإيمان، لكنه إنسان ربما لو عاش بيننا الآن، لكان قد آمن وصار مثلنا من أهل الديانة والتقوى، ونحن بصلاتنا هذه نتشفع له ونضمه إلى قطيع المؤمنين، وذلك لأن ساير النفوس كلها كانت ميتة، بخطية آدم منذ أول الزمان، لما أخطأ قال الله له لأجل خطيته: «موتا نموت» فماتت نفسه من الحياة الذى كان حيا بروح القدس الذى كان مشتملا عليه حتى إن آدم بذلك تنبأ وقال عن حوى: إن هذه لحما من لحمى، وعظما من عظمى، هذه تدعى امرأة لأنها من المرء أخذت وتعزى آدم من الله العلى الذى كان لابسه، وماتت نفسه الموت الحقيقى، ثم جسده بعد تسعمائة وثلاثين سنة، ولم تنزل نفوس نسله ميتة كما نفس أبينا آدم إلى حين مجئ سيدنا يسوع المسيح وظهوره فى عالم الطبيعة.

فصاحب الجثمان الراقد هنا، سلبت منه أحشاؤه الموضوععة فى هذا الوعاء على عادة أهل الزمان القديم، الذين كانوا يعتقدون مثلنا أن الروح تفارق الجسد عند

الموت، لكنهم وليرحمهم الله، كانوا يظنون بعودة هذى الروح إلى الجسم عند الدينونة، لذا فهم كانوا يحرصون على حفظه من التلف، ويبدلون فى سبيل ذلك الشئ الكثير للمشتغلين بالتحنيط والحفظ، وفقاً لمقدرة كل منهم وثروته، ولما كانت الحشا هى أكثر أجزاء الجسد عرضة للفساد، فقد كانوا ينزعونها من الجوف بطرق وفن، ويضعونها مع ملح النطرون الكثير، حتى تذبل ويجف ويذول عنها ماؤها، ثم يضعونها فى أنية كذلك الإناء الذى نظرت به ويخلطونها بالمر والحنوط وزيت خشب الأرز الثمين المجلوب من الجبل اللبناى، وهآ أنت نظرت الإناء بنفسك، فما وجدت غير بقايا المصارين وقد جفت وقطعة من كبى، وقلب متحجر، ويبدو أن نباشى القبور فى الماضى البعيد قد نهبوا مقبرة الميت صاحب هذا الإناء بحثاً عما يدفن معه من ذهب وجوهر وثمانى، لأجل وقت قيامه فى الآخرة وفقاً للمعتقد القديم، فحملوا معهم هذا الإناء ضمن ما حملوه من المقبرة، ويبدو أنهم رموه فى برىأ أترىب، فعثر عليه هؤلاء النباشون الجدد، وباعه لنا هذا النباش، لكن روح الجسد الهائمة ظلت تدفع بالإناء حافظ الأحشاء إلى موضع الجسد، فقادتنا إلى هذا المكان وظهر لنا الجراد كعلامة، لنتوقف ونرده إلى مثواه، وربما كانت هناك قبور أخرى عديدة، جعلت فى هذه البقعة كلها، لكنها اندرست مع اندراس مدن وقرى أصحابها وتغطت بالطمى والحشائش، فلم يتبق ظاهراً منها غير ذلك الموضع الصخرى لارتفاعه عن بقية ما حوله من أرض، فلم يترسب الطين عليه وتطلع به خضرة، وربما كان الموضع كله فى الأصل من الصخور، لكن الطمى طمرها شيئاً فشيئاً على مر الأيام والسنين، غفر الله لصاحب الروح ولنا جميعاً يا بدير.

لا أدرى لماذا تذكرت فلاس النجس فجأة، وتشوقت لأن أعرف ما الذى سوف يكون من أمره، فسألت ثاونا:

- ترى أيها العزيز ثاونا، ما الذى سوف يكون بعد ذلك من أمر فلاس فى دير أترىب؟

زفر ثاونا بقتوط ورد مفكراً:

- فلندعو الرب أن يهديه ويعود إلى زمرة الأتقياء يا بدير فيقرر ويعترف بخطاياہ ويتوب عنها، فأنت تعرف أن ما قاله تجديف خطير، فإذا أراد أن يحيى نفسه من موتها عليه أن يعترف لأبيه فى دير أتریب بجميع خطاياہ وأنه كان عبداً للشيطان بطاعته له فى المخالفة بكتبه المقدسة وقراءة الهرطقات الطمث، وكل خطية أخرى يكون قد ارتكبها سواء بقتل أو زنا أو سرقة أو كذب أو شهادة زور، أو ارتكاب أى من المحارم، فبيندى الأب يجريه، وهل أقبل إلى الله من كل قلبه، أم ذلك تجربة منه وقنطسة لا لزوم لها، ويوجب عليه الأب صوماً وصلاة وصدقة من ماله وسجوداً على قدر قوته مدة معلومة وإذا ثبت فى حرارة شدة شوقه إلى السيد المسيح وإلى الحياة الدائمة، فيما أمر الأب به، عند ذلك يعذبه الكاهن مرة أخرى فى دهليز سرداب ويوقفه فيه مدة أخرى معلومة. فإن ثبت على هذا الشوق، عبر به إلى أحد جوانب الدير ليحضر سماع الفصول والإنجيل المقدس خاصة، ثم يمسه الكاهن بيده ويخرجه حتى لا يحضر تقديس السراير الإلهية، ولا تتقدس نفسه بحلول روح القدس عليها، كل ذلك امتحان وتجربة لصبره، هل هو عائد ثابت لما يراد منه أو لا، وهذا هو حد الإقامة تحت التوبة والوعظ.

ثم يتقدم به ويدخله إلى عرى البيعة في الدير ويصلى عليه صلاة الموعوظين أولاً، ثم يقرى عليه التحليل من نجاسة الأمم الغربية، ويدهنه الكاهن بزيت فارغ ثم يقرأ عليه صلاة تليق بأوایل أمره، ثم بعد ذلك يؤمر برفع يده اليسرى إلى فوق ويستقر على حقيقة جحوده للشيطان وجنوده وأسبابه التى منه وبه، الصايرة إليه، وهى القتل والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور والجور والحقد والبغض والنميمة والكسل عن الصلاة والعظمة التى هى أول الرذائل، والانصراف إلى قراءة الهرطقات والممنوعات، والتجديف والزندقة.

فإذا تحقق عن الموعوظ جحوده ذلك بعدة دفعوع، فى حضور جميع الكهنة والرهبان، حينئذ يعرى ذلك الفلاس، كما تعرى سيدنا المسيح له المجد عند صلبه ويشهره الكاهن كما شهر جسد سيدنا المسيح وهو عريان.

فإن بانئت منه الأمانة المستقيمة التى هى: نؤمن بالله واحداً إلى آخرها، ويقول ما يقوله الكاهن ويداه الاثنان مرفوعتان، ثم بعد فراغ تلقينه الأمانة يسأله الكاهن سؤالاً استفهامياً: آمننت؟ يقول الموعوظ الذى هو هنا فلاأس: - آمننت. هكذا ثلاثة دفعوع.

ثم بعد ذلك يجرى نقله إلى مكان المعمودية المقدسة ويُدَهَنُ بدهن الغاليلاون. ثم يبتدى الكاهن بصلاة على ماء المعمودية ويسأل الله الأب ضابط الكل باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا أن يحل على الماء العنصرى الذى هو فى المعمودية روحه القدوس ليتقدس به الماء، ثم يقدس على الماء قداساً كاملاً خصيصاً به فى إحياء تلك النفس المؤمنة بالله وبابنه الوحيد وبروح القدس.

ثم إنه لابد وأن يجرى تختين فلاأس ونزرع قلفته حتى يتطهر بذلك تطهيراً كاملاً، كل هذا إذا تاب وعاد، وبرئت نفسه مما بها من غواية الشيطان وجنوده الفاسقين.

سرح ثاونا بعد ذلك ببصره قليلا، وسألنى فجأة:

- ترى كم تبقى لنا من الطريق حتى نصل إلى محلة البشمورى؟

فكرت، وأنا أحسب بالتقريب، البلاد والكور التى علينا أن نقطعها ومسيرة الوقت لزوم ذلك، حتى نصل إلى محلة البشمورى، وقلت:

- سنعبر عدة قرى وبلادا وقد يتطلب الأمر بقية النهار قبل أن نصل إلى قرب بحر حاروس، ومن هناك سننطلق إلى سكة محلة البشمورى بعد ذلك لو شاء الرب.

فكر ثاونا قليلا قبل أن يرد:

- إذن علينا أن نبني ثاونا فى مكان قريب. ربما كان أول قرية تصادفنا، ونواصل بعد ذلك المسير مع بزوغ نور الصباح لو أراد لنا الرحيم البقاء حتى ذلك الوقت.

رحت إلى موضع الدابتين لأحلهما من الرباط فى الشجرة التى ربطناهما عندها. فلما جئت بهما وركبنا، بادئين التقدم والمسير، بدت الأرض زلقة للغاية صعبة السير بسبب سقوط المطر عليها، وكان الجراد يفتش الطريق، بعدما تعب من طوال ترحاله وأكله بنهم، فمات أكثره وسقط، ويبدو أن البغلين قد عافا المسير فوق الجراد والزلزلة، إذ إنهما أجفلا وتحننا كثيرا، فلم نتقدم فى المشى إلا قليلا، رغم اقتراب الشمس من الدخول فى الغياب وكنا قد تعبنا ومللنا هذا البطء الذى بلا طائل، فقال ثاونا:

- ما رأيك يا بدير، نبني هنا فى هذا الموضع حتى يصبح الصباح؟ الصباح رباح.

هتفت منزعاً:

- هنا فى هذه البرية الموحشة غير المسكونة، لا أظن أن ذلك سوف يكون من الحكمة والأمان يا ثاونا.

### حاول إقناعى قائلا:

- لا بد أن يكون هناك ما نأوى إليه فى هذا المكان، ونحن نستطيع المبيت تحت شجرة من الأشجار، ألا تذكر رحلة السيدة البتول مع السيد المسيح من بيت لحم إلى أرض مصر، وكل تعبها ومعاناتها، دون أن تفكر فى متاعب الطريق، ألم تركز إلى جذع شجرة لتستريح وتستشفى؟ ولم يكن هناك من مأوى يحميها أو سقف يقيها حر النهار وبرد الليل؟ إن الرب هو الحامى يا بدير، ونحن فى رحلة لأجل مجد الكنيسة، وخطاب الأب يوساب يجب أن نحفظه ونصونه حتى نؤديه للبشورى وتلك هى مهمتنا، فيجب أن نحتمل فيها كل ما يواجهنا من صعاب.

سكتُ وقد خجلت من اندفاعى فى الكلام، ولم أجادله فيما قال، وقد ردتى إلى طمأنينة الإيمان، بينما راح يجول ببصره باحثا بعينه عما يمكن أن نأوى إليه، وكنا قريبين من حافة النهر، فتركنى وابتعد قليلا لينظر المكان، وسرعان ما نادانى لأتبعه، فلما وصلت إليه، أشار بيده إلى موضع قريب عند أسفل الشاطئ، وقال:

- أرايت هذا؟ إنه فيما يبدو خُصَّ لبعض صيادى السمك، قد أقاموه ليستقيثوا فيه وقت صيدهم. إن الله لا ينسى عباده الصالحين يا بدير، هيا نحتمى به حتى صباح الغد إن شاء الله.

بدا ثاونا فرحًا جدا بعثوره على الخص، وكنت قد بدأت أشعر بالاطمئنان والسكينة بمجرد أن رأيته، فثاونا لا يعرف مخاطر الأراضى الموحلة مثلما أعرفها، لأنه لم يعيش فيها، إنها مليئة بالحيوانات والوحوش البرية المتخذة من أداغالها مستقرًا ومعاشًا، وهى فى أغلب الأحوال شرسة قاتلة كثيرا ما تنقض على الدواب والناس وتفتك بهم، ولعل أخطرها الحلوف الذى يفضل الاختباء والعيش فى الأحرش وكل برية غير مأهولة، وهو شديد الخطورة والكل يحتقره لنجاسته وطياشته فى العدوان على الزرع. نزلت عن البغل ومشيت ساحبًا إياه منحدرًا مع ثاونا إلى أسفل الشاطئ وقد أمسكت طرف ثوبى الطاهر الكنسى بيدى حتى لا يتوسخ ويتدنس من حماة الأرض، ثم إننا دفعنا باب الخص ووقفنا نستجلى ما

خلفه قبل حلول الظلمة، فوجدنا فيه بالفعل ما يدل على أثر لصيادين، مثلما توقع  
ثاونا، إذ كان به منقد لحرق الأخشاب وبعض من فروع الأشجار الجافة، كما  
كانت به حصيرة من تلك الحصر التى يصنعها الصيادون، ملمومة ومركونة إلى  
جانب أحد الحوائط اللبنية للخص، إضافة إلى جرة بها بعض الماء، وسنانير  
وشبك تالف وعدة من الأشياء لزوم حرفة الصيد.

أدخلنا الدابتين حتى نأمن عليهما، وسارعنا بفرش الحصير، ورحنا ننزل الزاد  
من الأجرية، حتى نستريح ونأكل شيئاً، وبينما نحن نفعل، قال ثاونا:  
- ما رأيك أن نتعشى سمكا من عطايا الرب؟ سأصطاد سمكة أو اثنتين  
نشويهما. ونأكل قبل أن نبيت ليلتنا.

ثم إنه سحب سنارة وخرج إلى النهر، بينما بقيت أنا أهئ مائدة مما حملناه  
معنا، وكان رهبان الدير فى أتريب قد زدونا ببعض أرغفة أتربية معجونة بلية  
الخروف مما تشتهر به أتريب، وبعد ذلك قمت فوضعت بعضاً من فروع الأشجار  
فى المنقد وأشعلتها وخرجت لأجمع بعضاً من الأعشاب لأقوت البغلين قبل أن  
يحل ظلام الليل علينا، ولانستطيع الخروج من الخص.

صليت وصليت لله فى سرى وأنا أتمنى ألا تكون بين الحشائش عشبة سامة  
تفتك بركائبنا، ففتعثر رحلتنا، وكان الأب يوساب قد عرض علينا بغلا ثالثا نسيره  
معنا طوال الطريق، كما هو متبع فى العادة، حتى إذا أصاب مكروه بغلاً، وجدنا  
ما يعوضنا عنه، لكن ثاونا أثر الاكتفاء ببغلين، لأن الثالث لا بد وأن يلزم  
الاكليروس فى شئونهم إذا ما خرجوا من قصر الشمع إلى أى موضع من المواضع  
فى القسطنطينية، أو إذا عدوا بالمراكب إلى بر الجيزة، وإِقال للأب يوساب: وهل ركب  
السيد غير أتان واحدة؟ الرب هو الحافظ يا سيدى، فسر الأب يوساب لذلك وباركه  
وهو يدعو لنا بالتوفيق.

بينما كنت أحش بعض الأعشاب بالخنجر الصنعانى، الذى أعطانى إياه ثاونا  
قبيل رحيلنا من قصر الشمع، إذ سمعت صرخة تتعالى من الجهة التى هبط إليها  
ليصطاد أسفل شاطئ النهر.



تركت ما بيدي، وهرعت إليه قاصدا وجهه صرخته، وقد حملت الخنجر بيدي لأتصدى به لمن يهاجمه سواء أكان وحشا أم إنسانا، إلا أنني عندما بلغتته وجدته جالسا القرفصاء، وقد تكور على نفسه، ممسكا بساقه، الذي أخذ ينزف من أسفله بغزارة، وما أن رأيته على هذا الحال حتى صرخت بدوري، لكنه أخذ يهدئني بصوت متماسك، ويقول:

- اهدأ يا بدير، إنه حنش. لقد لدغني دون أن أشعر، يا الله، إن أنيابه كأنها موسى حادة لحكيم، هيا يا بدير، شرط الجرح بسرعة بالخنجر، قبل أن يسرى السم مع الدم إلى كل أنحاء الجسد.

ترددت قبل أن أفعل ما طلبه مني، فمَنظر الدم يثيرني ويقلب أحشائي مما يجعلني على وشك التقيؤ، كما أن جرح ثاونا بخنجرى كان أمرا يشق على نفسي، أخيراً تحاملت وتجلدت ورحت أشرط موضع الجرح باسم الصليب، حتى خرج منه أكثر الدم، ثم إن ثاونا انحنى على ساقه وراح يمتص دمه بفمه، وينقله سريعاً، ثم خلع زناره الكنسي الملفوف على وسطه وراح يربط به ساقه فوق موضع الجرح جيداً، وأخيراً قام وأخذ يتوكأ على كتفي حتى دخلنا الخص.

ما أن تمدد على الحصير حتى قال لي:

- اذهب إلى خرج بغلتي، هناك بعض الحقوق، أحضرها بسرعة وعد لي بها. مددت يدي إلى الخرج، وأخرجت منه عدة أحقاق مثلما طلب، وكنت في غاية الدهشة، إذ كانت هذه المرة الأولى منذ ارتحالنا التي أعرف فيها أن ثاونا يحمل معه كل هذه الأشياء داخل خرجه، كان بعض هذه الأحقاق قد صنع من خشب السنط والعنبر والأبنوس، وبعضها الآخر من الألباستر والجمشت والجزع العقيقى، والعاج واليشب، طلب منى أن أفتح ذلك المصنوع من العاج، لأعطيه بعضاً مما فيه ليبتلعه.

رفعت غطاء الحق، وأخرجت منه حبوباً بنية صغيرة، لم أر مثلها من قبل، فهي لا تشبه الذرة أو الفول، أو أيّاً من الحب الذى أعرفه مما يؤكل أو يتفقع، وبدا

لى حبا أقرب إلى فول النوبة، وإن كان أصغر حجما مع بُنيته، قدمت له الحبّ  
فجرشه بأضراسه قبل أن يبتلعه، ويقول:

– هذا حب العرب يا بدير، يجلبونه من بلادهم البعيدة، وهو عظيم الفائدة  
وسيجعلنى متنبهاً لا يغلبنى النعاس، إياك أن تتركنى أوسن ولو قليلا يا بدير، حتى  
لو اضطرك الأمر لأن تلمنى على وجهى، أو تصب على رأسى ماء باردا، فلو  
غبت عن الوعى فإن السم سوف يسرى فى دمنى بسهولة حتى يصل إلى مكامن  
الأعصاب فى الرأس ويكون فى ذلك نهايتى المحتمّة.  
صليت وأنا أتمتم بخوف وانفعال:

– بعد الشر عنك يا ثاونا وعافاك. سوف أفعل كل ما تأمرنى به. لا تخش  
شيئا، أنا معك والرب يحفظك، سأظل ساهرا إلى جوارك طوال الليل. ثم إنه طلب  
منى أن أعطيه حق الأبنوس بعناية فائقة، وكان حقاً صغيراً للغاية، فتحه بهدوء  
وحذر بعدما تناوله منى وراح يأخذ شيئاً يسيراً مما فيه من دهن، بدا لى أشبه  
بدهن الميرون المقدس، وراح يمسح به موضع الجرح حيث غرز الشعبان أنيابه،  
وهو يجز أضراسه جزاً، صابرا متجلدا، دون أن يتأوه أو يتأفف مما أصابه من  
بلاء، فما إن انتهى من الدهن، أخذت الحق وأعدته إلى موضعه فى الجراب  
ثانية، ثم إنى رحت أعمل وقيدة فى بعض من قلاحات الذرة الجافة لنستدفى  
بها، فلما بانث النار وأجمرت كما يجب، دفأت شيئا من العسل فى قارورة من  
ثلاث قوارير زجاجية كنا ابتعناها، فى أتريب وقدمته له كى يشربه، فلما انتهى  
جلست إلى جانبه وعرضت عليه أن يأكل شيئا مما معنا أو أن نشرب نبيذا لكنه  
رفض وقال إن اللببذ لايفيد فى حالة اللدغ. وكنت أظن أنه سيخفف عنه أوجاع  
الجرح، لكنه أفهمنى أن كل مغيب عن الوعى لايفيد فى مثل حالته.

تضرعت إلى الله فى سرى أن ينقذ ثاونا ويحفظه من سم هذا الحنش الذى  
طالما كان أبى يحذرنى من أمثاله فحنشان الشط خطيرة. ولدغتها يصعب الفكك  
والبرء منها. كنت أقوم بين الحين والحين لأغذى النار حتى لا تنطفئ وأرتل:

«أما الروح فحياة بسبب البر. وإن كان روح الذى أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذى أقام المسيح من الأموات سيحيى أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» وتلوت كذلك بعضا مما أحفظه من المساجوجى والتعاليم الإيمانية كما رحلت أذكر قول يوحنا فم الذهب: «كل إنسان على ظهر البسيطة لابد أن يرى ما كتب عليه».

لكن بعد انتصاف الليل بقليل، بدأ ثاونا يغيب عن الوعي بعد أن أخذته الحمى، وراح جسده فى الارتعاد بشدة حتى إنى وضعت خرج الدابة الصوفى عليه، رغم أنه كان قد تغطى بغطاء الكتان الذى حملناه معنا لتتغطى به أثناء الليل فى الطريق.

سددت باب الخص ووضعت خلفه حجرا، ورغم سخونة الجو فإن ثاونا ظل يرتعد وبدأ لى وكأن الحمى قد دخلته وتمكنت منه، إذ صار واهناً ضعيفاً يبذل جهداً كبيراً كي تظل عيناه مفتوحتين وهو يقول بصعوبة:

— اسمع يا بدير، إذا غبت عن الوعي، عليك أن تعالجنى بالماء البارد، اجلبه من النهر فى أى قدر وبلل رأسى طوال الوقت به، فإن هذا يفيد، أما إذا حم قضاء الله، فلا تبتئس، أفعل ما يفعل للموتى، واطلب لى الرحمة، لكن عليك أن تذهب بأقصى سرعة إلى البشمورى، لأن أبانا يوساب ينتظر رده، فهو يريد أن يواتيه ويكلمه وجهاً لوجه إذا ما وجد منه اللين والقبول. فهذه مهمتنا الكنسية الآن يا بدير، يا أخى الطيب العزيز.

ثم إنه أخذ يدخل شيئاً فشيئاً فى الحمى، رغم أننى قمت لفورى وجلبت ماء بارداً من مياه النهر، وكانت قلنسوتى المضروبة كما هو مفروض فى قلانس الأقباط مفيدة لتشربها بالماء جيداً، حتى بعد عصرها ووضعها على رأسه، لكن ذلك لم يوقف الحمى، بل إنها زادت إلى الحد الذى بت فيه يائسا تماماً، فرحت أبكى عليه بكاء مرا، إذ كان ثاونا هو كل ما لى فى الحياة الآن، وهو أقرب الناس إلى روحى وقلبى، تذكرت ما كان من أمرى الأول فى هذا العالم، آمونة. أمى. أبى. أخوتى. أصدقائى وأترابى، فلم أتمالك نفسى ورحت أنتحب كالنساء، لأننى

بعد غياب ثاونا، لن يكون لى أحد فى هذا العالم، فليرحمنى الرب. فجأة وبينما أنا جالس إلى جواره، ضائع الروح، كمدا لا أدري ما الحرى بى أن أفعله فى هذه المحنة، إذ به يهذى متممًا بين الحين والحين:

- يسوع المخلص مريم البتول، عشائنا الأخير، الحنش. سمّ. البلسان، آه الإله أعظم من الزمن والأبدية وكل المخلوقات. لا يمكن تسميته لا يمكن رؤيته بأى عين. نستعين على معرفته بالأسماء والصور. الذهب. العاج. الصندل. هورب الجميع. كل يعرفه بطريقته. الثالوث المقدس. هرمس المعظم ثلاثا. تحوتى. مثلث الرحمات. أتريب الضائعة. فلاس الطمث. البلاد تقاسى الألم. الآلهة هجرت الأرض وزهبت إلى السماء. العوز والاملاق فى كل مكان. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء نى فى (١). كا. با. ب. ن وم (٢).

امحوتب. أوكير يوس ميثابنتون إيمون (٣). امحوتب. رئيس الكهنة أين اناتولاس فليباس (٤) ملك الحكمة. اناستاسيس (٥). ساكامورا. ذوكسا. باترى كى ايوكى اجيو (٦) ابنفماتى هكسبلا.

لم أشالك نفسى وأنا أستمع إلى كل ما يتفوه ويهذى به ثاونا. وراح جسدى يرتجف خوفا، مثلما يرتجف جسده بالحمى، وقد أيقنت أن الشيطان قد تغلب على روحه ودفعه إلى مثل هذا الكلام المخلوط مع كل ما هو طاهر ومقدس من كلمات. تملكنى قلق عظيم من أن هذه الاختلاطات علامة على اقتراب تلف أخى العزيز وفنائه. وأن هلاكه سيكون هلاكا للروح والجسد، فهذى هى الشياطين- ويا حسرتى- تقود روحه إلى السعير. أسرع بإحضار لفيفة الكتاب المقدس الذى كان قد أعطانا إياه أبونا يوساب لنستعين به على مخاطر طريقنا وما قد يصادفنا

(١) نى فى: روح. نفس. بالقبليطية.

(٢) ب ن وم أ: الروح القدس. باليونانية.

(٣) أوكير يوس ميثابنتون إيمون: «الرب مع جميعكم» باليونانية.

(٤) أين اناتولاس فليباس: «والى الشرق انظروا» باليونانية.

(٥) أناستاسيس: القيامة. باليونانية.

(٦) ذوكساباترى كى ايوكى اجيو: المجد للأب والابن والروح القدس. باليونانية.

من شياطين وأرواح شريرة، إن لم تسعفنا الذاكرة مما نحفظه من آيات تستلزم ذلك. كان الكتاب قد دون بالقلم الإخميمي في كل آية من آياته، يقابله القلم العربى، فكنت أقرأ مرة من هنا ومرة من هنا، إذ كان ثاونا صاحب الفضل، وولى المعرفة قد علمنى قدرا يسيراً من الإخميمية وقد كنت أجهلها، أما العربية فقد حصلت مقداراً منها على يد خال في ترنيط كان قد استعمله متولى الكورة التى تتبعها البلدة، كمازوت من موازيت القرى، والذين كان أكثرهم من القبط للترؤس على القرى والبلاد، لأنهم أعلم بأمورها وأعرف بأحوال أهلها.

وكننت خلال قراءتى المتعثرة يداخلى ندم كثير، لأننى لم أتعلم كما يجب ويصح، فليغفر الرب لى إن كنت قد أخطأت فى رسم كلماته المقدسة بلسانى، ولتعمى عيني، إذا لم أتعلم بعد ذلك- بمشينة السيد- لغة كتبه المقدسة.

ثم أنى نذرت أثناء ذلك، هو أن اعترف صادقاً للأب يوساب بخطيتى الأولى وأتوب توبة حقّة، إذا ما قدر لثاونا أن يبرأ من علته ونعود سالمين إلى قصر الشمع بعد انتهاء مهمتنا عند البشمورى. وقد حلفت برأس المبارك مرقس ابن القبرى أن أفعل صادقاً وهو القائل «لا غفران للخطايا بدون الاعتراف».

ذلك أننى أوقن الآن بأن ما حل بثاونا وما أنا فيه من حيرة وضياح. لم يكن إلا بسبب ضعف إيمانى وتدليسى على أبينا فى الاعتراف، فليرحمنى الرب وليواتبنى سريعاً باللحظة التى أعتزف وأتطهر فيها، ولتحل أربطى بكلمته مثلاً أحل الأنبا ساويروس شماساً بكلمته، ولسوف أرضى بحكم أبينا يوساب، وما يأمر به، من تأديبات كنسية تحل على، ولسوف أقف بين يديه بكل أدب كما يجب، جاثياً على ركبتى مطأطى الرأس، مؤدياً مطانيات ثلاثة أمم المذبح، وليصل على فى النهاية صلاة التحليل لأمنح بركة التناول. وقد تبت وتطهرت روحى من كل إثم مضى.

كانت دموعى لانتوقف عن النزول، وأنا أفكر فى كل ذلك، بينما لسانى يعمل فى تلاوة الآيات والمزامير. وإن كنت قد توقفت عن تبليله بالماء، وقد اضطربت وخشيت أن أضغ يدى عليه أو ألامسه حتى لا يصيبنى مس من الشيطان مثلاً

أصابه. وقد تأكد لى ذلك بعدما نطق باسم هرمس الممنوع وتخلط كلامه عن يسوع والعذراء بتجديف خرج من أعماقه. ونطق لسانه بطلسمات لا أدرى من أمرها شيئاً، ورغم أنى أعتبر ثاونا قرين نفسى، وخليلى، ورفيقى، وتوأم روحى، وأخى الروحانى بالمعمودية إن لم يكن أخى الجسدانى بالدم، إلا أننى بدأت أشك فى صحة إيمانه، وأنا أستعيد، ما كان يتردد عنه ببيعتنا فى قصر الشمع، وما كان يتناقله البعض عنه من أحاديث وحوادث جرت لهم معه مثل تلك الحادثة التى حكاها ذات مرة للشماس اسطفانوس من أنه فى إحدى اللبالي أراد أن يخرج من القلاية لشم الهواء فى ساحة الدير، فلما وصل إلى قلاية ثاونا وجد ماء كثيراً أخذاً فى الارتفاع شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى ما هو فوق قامة الانسان وهو واقف فخاف جداً، وتسمر فى موضعه ممتنعاً عن التعدية والعبور كيلا يغرق، وعاد إلى قلايته مرة أخرى وهو يرتجف. وكذلك ذكر قيم آخر فى البيعة اسمه سمعان أنه نظر ثاونا ذات مرة عند الظهيرة. فوجده يحدث هدهداً صغيراً، حط على ركبته، ويقول له كلاماً بلسان غريب لم يسمعه من قبل، لكن الأب يوساب كان يستمع إلى كل ذلك، ويدحض أقوالهم بالآيات لما ظهر له من حسن إيمان ثاونا وطاعته الكاملة لقوانين البيعة وتفانيه فى الخدمة.

ساورتنى رغبة فى فتح أحقاقه جميعاً لأتبين ما بها. وأن أفتش فى خرج البغلة فقد أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة الأمر لكنى كنت خائفاً أيضاً. فريماً مسئى ضر من جراء ذلك، أو لحقنى سحر، فبقيت فى مكانى ساكناً، مرتعداً، أنظر إليه، وقد تورم ما حول جرحه وانتفخ. وقد تحول لونه إلى الأحمر وكأنه نقع نقعا فى صبغ الأرجوان، وفى لحظة لم أتمالك نفسى فأوشكت على الصراخ رعباً، إذ وجدته يهتف:

- دلوكة.. أيتها الأم العظيمة يا من بوركنت من المقدسة أم الآلهة إزيس سائلة الآلهة الأوائل، سيدة العطر والمر. يا من زرعت الساكمورا وأدخلتها إلى بر مصر. يا ربة الأرياب. معلمتى فى المكتب. يا من دنت لك طوال الحياة بالعلم والمعرفة. ربة أرياب أولئك الذين لا يعرفون ولا ينطق باسمهم أبداً.

تحتوي.. معلمتي.. أجل.. أجل.. أحفظ كيميت في قلبي، مجدها العظيم.. لا.. لن يزول.. اللسان.. أجل.. أجل.. يا أمي سأتلو عليك ما حفظته من درس.. آه.. انعدم.. وقل.. نعم هو في المطرية وعين شمس الآن فقط.. أعرف أنه في موضع محوط عليه محتفظ به.. سأقول كل شيء يا معلمتي.. بريك امهاليني فقط.. امهاليني، لا تعاقبيني، لا تضيعيني في دهليز المكتب المظلم.. فيطلع لي انوبيس وينهش قلبي.. لساني ثقيل، سأقول لكن لساني ثقيل.. وجسدي يغطني كله.. آه.. شجرته.. يبلغ ارتفاعها نحو ذراع.. ذراع وربما أكثر.. عليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين.. وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته.. رائحته عطرة محببة.. ورقه شبيه بورق السنداب.. آه الجنى سأقول عن الجنى.. يجتني دهنه عند طلوع الشعري.. تشدخ السوق.. إلى ما تحت عنها جميع ورقها وشدها يكون بحجر يتخذ.. مجدداً، بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقاً لا ينفذ إلى الخشب.. فإن نفذ إليه لم يخرج منه شيء فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بأصبعه مسحا إلى قرن، فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر، وفي الجذب وقلة الندى، يكون اللثا أنزر، ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيط وحماره الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس، ثم تتفقد كل يوم.. فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها، فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيّمه في الخفية.. لا يطلع على طبخه أحد، ثم يرفع إلى الخزائن ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة، المبرون.. في ماء المعمودية اللسان..

هل حفظت الدرس يا أمي جيداً؟ قولي بريك براوة.. براوة يا تلميذتي النجيب المطيع وامنحيني بركتك.. آه يا سيدتي البتول.. يا أم السيد.. لقد وضع المبرون في ماء المعمودية بأمر الرب.. السنسكار أحفظه عن ظهر قلب كما حفظت الحكاية دون زيادة أو نقصان.. أقول حفظتها.. نعم سأقول أنا أعرفها.. فليحفظني الرب

يسوع لما خرجت به أيتها البتول العظيمة ومعك يوسف النجار من بيت المقدس.  
كان الشيطان هيرودوت ملك اليهود. نزلت أول موضع من أرض مصر بسطا.  
بسطا المقدس بويس. رابع عشرى بشنس. لم يقبلكم أهلها. بقيتم بظاهرها  
وأقمتم أياما.

بدير.. بدير الطيب. القرارى العائش فى الخطيئة. نعم سرتم إلى سمنود تعديّة  
النيل إلى الغربية. السير إلى مدينة الأشمونين..  
هتفت باكيا وقد قال عنى فى هذيانه ما قاله:

- لا.. لا يا ثاونا العزيز.. لا لن أعيش فى الخطيئة بعد ذلك أبداً.  
فليرحمنى الرب. أشف يا ثاونا وعد لي، ولن تجدنى إلا طاهرا تائباً سأعترف  
لك يا ثاونا. سأعترف لك بخطيئتي ورائى الأول الذى يعذبنى وبأكل روى.  
بدأ جسده فى الرجفة والارتعاد، لكنه ظل يواصل، وقد تسارعت كلماته وزاد  
فى تخليطه:

- فرس النحاس القائم على أربعة أعمدة. سقط الفرس وتكسر لما نظرته  
ودخلت. له المجد. آيتة فى الأشمونين. خمسة جمال محملة، زاحمتكم أيها  
المقدسون فى مروركم. صرخ يسوع فيهم. فيهم صرخ فى الأشمونين. فصارت  
الجمال حجارة فيلس. فيلس بها أيام، ومنها إلى قس وقام -القوصية- فنطق  
الشيطان من أجواف الأصنام التى بها. وقال: قال: قال...

كدت ألطم وجهى وقد لبث وقتاً يردد قال هذه، وقلت ها هو قد دخل فى النزع  
الأخير. يا لتعاسى وشقائى. يا لمصيبتى فى خلى وصفى ثاونا.  
ولكن ما أذهلنى بعد ذلك هو أنه يتكلم وكأنه يردد عن ظهر قلب بعضاً من  
السادوكيات إذ أخذ يقول:

- نطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، وقال: إن امرأة أنت ومعها  
ولدها يريدون خراب بيوتكم ومعابدكم، فخرج مائة رجل بسلاحهم وطرادوكم عن  
المدينة.



فمضيتم إلى ناحية ميرة غربي القوصية ونزلتم موضع الدير المحرق وأقمتم به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار- فى المنام -من يخبره بموت هيرودوس ويأمره أن يرجع بالسيد إلى القدس.

فعدتم جميعا من ميرة حتى وصلتم قصر الشمع. أقمتم بالمغارة عند كنيسة أبى سرجه، ثم خرجتم منها إلى عين شمس واسترحتم جميعا بجوار ماء فغسلت البتول ثياب السيد يسوع من ذلك الماء، وصببت أيتها المقدسة غسالتك قبالة الأراضى فأنبت الله هناك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فانقطع من هناك وبقي بهذه الأرض.

آه .. فلترضى عنى أيتها العظيمة دلوكه .. يا معلمتى . مريم البتول والسيد سيدى .. سيد بدير .. وسيد يوساب وسيد كل من على الأرض أجمعين .



عندما فتحت عيني وقد غشاها ضوء النهار الساقط من بين أعواد البوص المكدلة لسقف الخص، لم أجد ثاونا ممددا إلى جانبي في مكانه على الحصير، فهبت وقد أخذتني الدهشة، وتمكنني الخوف الذي لم يفارقني منذ الأمس، وخرجت مسرعا بعد أن وضعت قدمي داخل خفي وكنت قد عدلت شراكه، مخالفا بذلك أوامر والي الفسطاط، كما أشار على ثاونا عند دخولنا في البرية الحلفاء للأراضي الموحلة، حتى لا تتلوث مؤخرة أقدامنا وكعبونا بالوحل، ففي هذا المكان لا يمكن أن يرانا أحد من رجال الوالى.

وإن كنا قد التزمنا طوال الوقت بملابسنا زعفرانية اللون، ويعقدى زنارنا المعمولين من خيط الكتان الغليظ على وسطينا وكذا برمانات الخشب على سروج الركائب في موضع القرايبس، وكل ما فرض علينا كأقباط حتى نفترق في هيتتنا عن هيئة المسلمين.

ما أن خطوط مبتعدا عن الباب، حتى وجدت ثاونا واقفا قبالي، بيتسم ويلقى إلى بتحية الصباح، وكأن لم يكن في الأمر شيء، أو كأنه لم يحم طوال ساعات ليلته.

هتفت مذهولا وقد أخذنى الفرح:

- ثاونا.. العزيز ثاونا.. يا أخى الحبيب، هل أنت بخير، كيف استطعت القيام والخروج؟ حمدا لله على نجاتك. هذه معجزة من عند الرب يا ثاونا.. يا الله!

كنت مضطربا للغاية، والكلمات تتلاحق مندفعة خارجة من فمي، بينما الدموع تنهمر من عيني. كنت أشبه بطفل تائه عثرت عليه أمه بعد حين. ضمنى ثاونا إليه، وراح يربت على قائلا:

- يبدو أنك سهرت إلى جانبى طويلا ليلة أمس يا بدير وتعبت جدا، حتى أنك لم تفق وقت صلاة الصبح، على أية حال لقد أدبت صلاتى، وصليت لأجلك أيضا، الحمد للرب، الذى بفضله ونعمته نجوت مما كنت فيه. دهن اللسان من أعظم الدهون الشافية للدغ الحيات والعقارب، وكل الآفات والدوبيات الضارة، كما أن بن العرب أفادنى فى أن الغيبوبة لم تصل إلى مداها فى الدماغ، حمدا لله هيا نترى، فقد جمعت بعضا من ثمرات رمانة، يبدو أن صاحب الخص قد زرعها بالقرب من هنا ووجدتها دانية فأتيت بها لأنها ممسكة للمعدة إذا ما أكلناها، وسوف تمنع زلقة أى خضار نأكله من الأرض أثناء مواصلتنا المسير.

دخلنا لنأكل، وهممت أكثر من مرة أن أفاتحه فيما بدر منه أثناء حمته فى الليل. لكنى كنت أترجع فى كل مرة، وآثرت تدبر الأمر حتى أصل إلى وسيلة فيها كياسة وذوق لقول ما أريد طرحه عليه من سؤالات دون أن أجرحه، فلما أشار على أن ننجز طعامنا بسرعة ونواصل المسير، وافقته فورا ولم أضف شيئا.

التزمنا السير بحذاء النهر معظم مسيرنا بعد ذلك، وكان الطريق يقطع أحيانا بالمياه التى أخذت فى الزيادة كلما توغلنا أكثر، فنضطر للالتفاف والدوران حتى نجد طريقنا مرة أخرى، وكان بعض الصيادين يتطوعون بنقلنا فى قواربهم لمسافات قصيرة بالقرب من الشاطئ، فهم يخافون الخوض بعيدا داخله خلال ذلك الوقت وكانت كثرة من البلاد والقرى التى عبرناها أثناء ترحالنا، قد خربت، وبانت مهجورة من أهلها تماما وكان كثير من حقولها قد تلف وخرب، وقد أخبرنا بعض الصيادين أن كثيرا من الأهالى الزراع، قد التحقوا مع نسائهم وعيالهم بالبشموريين وراحوا يحتمون بهم معلنين العصيان، بعد أن سدت السبل فى وجوههم ولم يعد لديهم ما يقاتلون به، وهم يخشون التعصير والضرب من قبل مشدوى الكور والمحتسين، وكنا نشاهد أثناء سيرنا كثيرا من الهائمين على وجوههم من الرجال اليافعين، وكذا النساء، وهم يتسولون فى الطرقات، وهم فى ملابس بالية، وأحوال مزرية قذرة، وقد نصحنا الصيادون أن نتجنب هؤلاء قدر استطاعتنا، لأنهم قد يخطفون منا الرحائل. ويسلبون ما نحمله من حوائج وما معنا من طعام عنوة وقد عز القوت عليهم فلم يجدوا ما يأكلونه.

وقد أخبرنا عجوز ممن التقيناها أثناء ذلك، أن معظم هؤلاء الناس كانوا من أهل القرى الموجودة على أطراف البرية من ناحية الصحارى التى سكنها العرب القبائل، وخصوصا قبائل الحوف الشرقى فأكد لنا أن هؤلاء لا ينأون عن مهاجمة هذه القرى، فيسلبون سكانها ممتلكاتهم وعيالهم وأحيانا نساءهم، وكذلك يتلفون الزرع، حتى خربت معظم هذه البلاد وهجرها أهلها، فرارا من هذا الحال، وأن ذلك العجوز، هو الذى أخبرنا بحادثة دير العذارى العجيبة، ولم نكن أنا وثاونا قد سمعنا بها من قبل، ولا أظن أن أى إنسان من أهل بيعتنا قد علم بأمرها شيئا حتى هذا الوقت، فكل ما علمناه هو أن مروان متولى البلاد قد أباح لأعدائه الذين عادوا إليه بعد أن هزمهم البشامرة وطردوهم، أن يذهبوا ويعملوا القتل فى كل البلاد التى يطلعون إليها، فسار هؤلاء إلى الصعيد وقتلوا جماعة من الأراخنة ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وأهاليهم وأولادهم وأحرقوا ديارات الرهبان.

أخبرنا العجوز أن بدير العذارى رهبانات كن عرائس للمسيح وعدتهن ثلاثون عذراء فملكهن عسكر مروان، وكان فيهن صبية عذراء دخلت إلى الدير وهى ابنة ثلاث سنين فلما نظروها بهتوا من حسنها وقالوا ما شاهدنا قط فى بنى آدم صورة مثل هذه فأخذوها وأخرجوها من وسط أخوتها وتشاوروا فيما يفعلونه فيها، فمنهم من قال نقترح عليها، ومنهم من قال نمضى بها إلى الملك، وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبية أين هو مقدمكم أعلمه بشيء يساوى أموالا، وتخلونى فأنا عابدة لله وما يحل لكم أن تفسدوا عبادتى، بل إذا أعلمتكم بذلك الشيء الذى يحصل لكم فيه أموال تردونى إلى دبرى، فقال لها مقدمهم: أنا هو. فقالت له: أبائى كانوا قوما مقاتلين شجعانا أقوياء، دفعوا لى دواء كانوا يدهنون به إذا خرجوا للقتال فلا يعمل الحديد فيهم شيئا وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قدامهم، فإن خليت سبيلى دفعته لك، وإن كنت لا تصدق كلامى فأنا أدهن رقبتى قدامك، وجب أجود سيف يكون مع رجالك ودع أقوى من فيهم يضربنى فلا يقطع فى شيء لتعلم صحة قولى، وإنما قالت ذلك لأنها رأت أن تموت بالسيف ولا تلتصق بها نجاسات الإثم ولا يتنجس بها جسدها الطاهر، ثم دخلت بيتها فأخرجت برنية فيها

زيت قد صلى عليه القديسون، وكان محفوظا عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها،  
وجميه جسدها وصلت تركب على ركبها ومدت عنقها؛ فظن الجهال أن الأمر  
صحيح ولم يعلموا ما فى قلبها. ثم قالت لهم: من كان فيكم قويا وسيفه ماض  
قاطع فليظهر قوته فى، فإنكم ترون مجد الله فى هذا الدواء، عند ذلك وثب شاب  
شجاع بسيف يفاخر به فسترت وجهها ببلينها وطمأنت رأسها وقالت له اضرب  
بقوتك كلها ولا تبال؛ فضرب القديسة الشهيدة، فطارت رأسها فعلموا حينئذ ما  
فعلت وأنها خدعتهم فندموا وحزنوا حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد، ولم  
يلتفتوا بعدها لواحدة من الرهبانات العذارى بل تركوهن ومضوا وهم يمجدون  
الله.

فتمتئنا بمجده نحن أيضا بعد سماعنا ذلك، وراح ثاونا يكفكف دموعه  
المتساقطة رغما عنه تأثرا، ومضينا تاركين العجز، على أن نحكى لأبينا يوساب  
عن هذه القديسة الشهيدة، بمجرد عودتنا إلى قصر الشمع إن كان لنا عمر  
ونصيب فى العودة.

لاحت لنا بعد مسافة قرية على البعد، فاقترح ثاونا أن نخرج إليها، لنغتسل  
ونبدل ملابسنا التى كانت قد اتسخت أطرافها رغم حرصنا على ألا تتلوث  
بقذارات الأرض، وكنت ميالا للتوقف أيضا، حتى نتتمكن من حلق رءوسنا،  
وفكرت أنه ربما سحت لى فرصة خلال ذلك لسؤاله عما بدر منه أثناء مرضه،  
لكن وبينما نحن نسير على الطريق، رحت أفكر فى كل ما مر بنا فلما وصلت إلى  
حد ما كان من أمر فلاس الهرطيق. تذكرت حكاية الشماس الساحر، ووجدت  
أنها تمحيكة مناسبة لمفاتحة ثاونا فيما أُرغب بمفاتحته به، فهتفت بسرعة أقول  
له:

- ثاونا.. هل تذكر حكاية الشماس الساحر التى رواها بعض الآباء البطارقة  
توقف قليلا، لدرجة أنني تقدمته بعدة خطوات رغما عني، وقال:  
- أعوذ بالله! لماذا تتذكر حكاية هذا الملعون الآن ونحن فى الطريق؟!

صمت قليلا ثم قلت:

- لا أدري لماذا خطرت ببالي الآن؟ أظن أن ذلك الشماس قام بعمل سحر وقتل طفلا فعوقب لهذا السبب.

تحمس ثاونا، وقال:

- لا.. لا.. لم يقتل الصبى، فوفقا لما هو مروي، أن الله أنزل على كورة مصر بلاء عظيما، لما خرج عبيد الله من مصر وتولى بعده القاسم ولده الذى صار فيه الشر أكثر من أبيه دفعات كقول الإنجيل المقدس: إن كل شجرة ردية تثمر عمرة ردية، هذا فعل الشر قدام الله والناس فى مملكته وسلك المسلك الردى، وقد قال سليمان بن داود الحكيم: الويل لأهل المملكة التى ملكها صبى. وكان هذا القاسم صبيا فى عمره وفعله، وارتكب خطايا كثيرة، وكان أول البلاء. غلاء عظيماً فأول سنة كانت البلاد شراقياً فقلت الخيرات وغاب القمح وعدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كثير وبهائم كثيرة، ثم جاء وباء على كورة مصر ثانى سنة لم يكن مثله، ومع ذلك لم ينقص شر القاسم بل ازداد، وضاعف الخراج على الناس وكان الإنسان إذا نام ليلا يخاف من ضوء الصبح، وما يشتهى الليل حتى يفرغ من كثرة البلايا، وبعد السنة الثانية المواتة، جاءت السنة الثالثة شراقياً، لم يصعد النيل التبة، ولم ير الناس فى أيامه خلاصاً، بل كانت السنين تنقلب، هكذا بأمر الله سنة وباء وسنة شراقي إلى آخر السنة التى أخذت منه فيها المملكة وهى السنة السابعة، وكان الوباء من أول هتور كل سنة إلى الثانى والعشرين من بؤونة، ومعظمه بمصر لكثرة الخطايا التى كانت بها وكان من ثامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونة حل بالناس فناء لم يحص بعض من مات فيه. يوم يموت ألفان، ويوم ألف ومائتان ويوم ألفان وأربع مائة بمصر والجيزة من سائر الناس القاطنين بهما، وتجار من الغرياء، حتى انقطع دفن الناس الأموات، والقبور، ولا يدفن رجل حتى يعلم به السلطان، ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذى يرضع ثم إن آبائنا سألو الرب، وأيضا الفقراء والأغنياء وتضرعوا إليه بالصوم والصلاة والبكاء والابتهاال إلى أن ترأف الرب بهم ورفع الوباء ورحمهم.

وبعد هذا باع التجار القمح للناس، وظهر وكثير، فمضى قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن في منف وهي مصر القديمة، ودفعوا له مالا كثيرا وسألوه أن يعمل سحرا ليغلوا به القمح، فبدأ يعمل أعمالا تغضب الله بصنعتة وسحره المرذول، وكان عنده صبي يتيم ابن امرأة أرملة ليس لها ولد سواه، فقال لها: أنت مالك شيء تأكلينه ولا تطعمين ابنك، ادفعيه لى أجعله لى ولدا وأعلمه صنعتى، فسلمته له وهي مسرورة، وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحرة كثير فى مواضع حتى علموه سحراً عظيماً، ففعل ما غلب به القمح، ثم إن الكافر أخذ ولد الأرملة ودخل به بيتاً وأغلق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عن الأرض وفعل به ما يغضب الله ولم يزل يسلخ جلد الصبي من وجهه إلى رأسه كل يوم إلى أن انتهى إلى أكتافه فغاب القمح وعدم بعد أن كان قد بيع عشرة أرباب بدينار وبيع مدان بدينار، ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الأرملة، وقال لها: لولدك عدة أيام ما جاء عندنا فبأى موضع هو، فمضت إلى ذلك الكافر وسألته عن ولدها فقال لها: لى عدة أيام ما رأيته وخرج من عندى ومضى إلى عندك ولم أعلم له خبراً، فلما سمعت هذا منه مضت بحزن عظيم، وكان الصبي إلى ذلك اليوم لم يمت بل معلقاً قد سلخ كثير منه، وكان الصبي العريف ينظر معلمه الساحر يدخل ساعة بعد ساعة إلى الخزانة التى فيها الصبي معلقاً، فقال فى قلبه ماذا يصنع معلمى فى هذه الأيام، يدخل هذه الخزانة ويخرج، وكان ذكياً فدخل المعلم فتتبعه الصبي بمكر فسمع ابن الأرملة يبكى ويتضرع إليه وهو لا يرحمه وكان يقول كلاماً يحزن القلب: الوليل لك يا أمى الحزينة الأرملة لأنك ما تعرفين ما حل بى، الوليل لبطنك التى حملتنى ولثدييك اللذين أرضعانى، أين أنت تنظرين عذاب ولدك اليتيم، ليتنى مت وأنت حامل بى ولم تلدينى على الأرض حتى أقع فى هذا العذاب. ويقول مثل هذا كثيراً، والصبي العريف يسمعه، فخرج مسرعاً بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيت الأرملة أم الصبي، فقال لها: قد وجدت ابنك. فجاءت مسرعة بعد أن أعاد عليها ما سمعه من فم ابنها فمضت إلى الوالى وأعادت عليه القضية وما سمعته، فأنفذ معها قوماً ثقات من المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت الكافر، فوجدوه داخل الخزانة التى فيها



الصبي معلقا مسلوخا من رقبتة إلى كتفيه فحملوه والساحر مكتف معه إلى الوالى  
ويغثةً ربطوا يديه ورجليه وقطعت أذناه بين يدى الوالى، فاعترف له بكل ما كان  
منه وأحضروا الصبى، وعاینوه على تلك الحال وكتبوا فى الوقت إلى القاسم ملك  
مصر، فلما وقف على الكتاب أمر برجم الكافر وحرقه بالنار.

ما أن فرغ ثاونا من حكاية الشمس الساحر، حتى التفت لى بجد وقال وهو  
يثبت نظره فى ناظرى:

- بدير.. أصدقنى القول: هل قلت شيئا لا يلىق بينما كنت محموماً أهذى؟

رحت أراوغ، محاولاً ألا أغضبه أو أخجله وهو بمكانة المعلم منى، فقلت له أنه  
تحدث بكلام كثير تضمن اختلاطات فى المعانى والألسنة، وأنه كان يهذى بلسان  
قبطى حيناً، وعربى حيناً آخر، كما قال يونانيات، وقد ذكر يسوع الكليم والسيدة  
البتول، وأسماء أخرى وكلمات غير مفهومة لا أعرف بأى لسان هى، وإن كنت  
أظن أنه اللسان العتيق.

احتدت نظراته وبدأ ساهماً وتساءل:

- أية أسماء غريبة يا بدير تلك التى نطقت بها وأنا غائب عن الوعى؟ بالله  
عليك قل يا بدير يا أخى الطيب شبيه يوحنا فم الذهب.

قلت وقد ضيق على:

- أسماء لا أتذكرها الآن يا ثاونا.

- بدير.. أصدقنى القول بحق الصليب؟

عند هذا الحد، فاض بى، وكنت قد استشعرت مدى ضيقه وألمه، فقلت:

- الحق وقد قلت بحق الصليب، أقول لك أنك نطقت باسم ذلك الذى لايجوز  
النطق باسمه، كما أنك ذكرت الأوثان يا ثاونا. رحى أزدرد ريقى الجاف وأنا  
أخبره بذلك، ولم أكن أجروء على النظر فى عينيه خوفاً من أن يتهمنى بشيء أو  
يكشف لى عن إثم أكون قد اقترفته فالشيطان شاطر ويستطيع أن يخدع الإنسان

دون أن يدري، وما أنا إلا قيم مسكين أخبز القربان وأرعى شئون البيعة، ولا طاقة لى بالعمل الكنسى ولا أملك الخوض فيه، وما زال إثمى الدنيوى الذى اقتترفه فى ترنيط يعذب روحى ويدنس أفكارى.

زفر ثاونا بحزن وبأس، ثم قال:

- إذن. فقد أفلت لسانى لما كنت محموماً، ونطق بما لا أرغب فى النطق به. أجل يا بدير لقد عشت زمناً فى الهرطقات قبل أن تطهرنى الكنيسة. وعرفت العلم والفلسفة سنين طويلة. وكنت مسيحياً غنوصياً أقول بالمعرفة الحقّة الموصلة للسبب الأول الذى هو الخير عن طريق الحدس واكتشاف النفس للخاصة المصطفين وذلك لفترة من الزمن، لكنى تطهرت بفضل الرب من كل ذلك الرجس وصوت تاووضوسيا حقاً، والفضل فى ذلك يعود لكثرة اجتهادى فى الإيمان وقراءة اللاهوت الحق. ولكن الحق أقول لك يا بدير: فى بعض الأوقات تراودنى أفكار مختلطة عن هذا العالم الذى نعيش فيه، وهناك مسائل لا أفهمها رغم اجتهادى فى العلم ودرابتي، بالناس وأمورهم، قل لى بريك يا بدير: ما معنى كل ذلك الذى يحدث الآن. وأبونا فى قصر الشمع يبعث الرسل بين الحين والحين إلى البشامرة يأمرهم بطاعة أولى الأمر والسلطان ودفع ما عليهم من خراج، وها نحن من أولئك الرسل الذين يرسلهم، والخوف كل الخوف أن يتجرأ علينا البشامرة بالعنف، أو يقتلونا مثلما قتلوا إسحق ومن معه، وهو الرسول الذى كان أبونا قد أرسله لهم فى العام الماضى. ثم إن العرب المسلمين يثورون أيضاً ضد هؤلاء الولاة ويرفضون دفع الخراج مثل القبط، ودين المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن فعل المنكر، ولا ينكر السيد والبتول، وعامة الناس من المسلمين العرب بسطاء متقشفون فى حياتهم وملبسهم وجوامع الصلاة لا ذهب فيها ولا فضة فهم يركعون ويسجدون للرب فى خشية وخشوع بكل أدب وبساطة، إذن قل لى بريك يا بدير: لماذا يتجبر هؤلاء الأمراء والولاة ويسلكون مسلك أباطرة وملوك الروم فى الزمن القديم، ولماذا يتوسط أبونا يوساب بينهم وبين البشامرة بدلاً من أن يقوى البشامرة عليهم؟ ولماذا لا يأمر الولاة بالمعروف وينهاهم عن المنكر،

ليكونوا مثلما كان الولاة فى مبدأ الإسلام، كما قرأت عنهم فى الكتب وسمعت:  
أتقياء بسطاء، يخشون الرب ويعيشون فى الزهد والتقشف وكأنهم رهبان داخل  
قلايات؟ لكن انظر أولئك الذين يحكمونا الآن. انظر هذا المروان، كيف يتصرف  
ويسلك هو وأجناده، الذين باتوا متغطرسين جبابة وكأنهم عسكر فى جيش  
ببزنطة. أنا لم أعد أفهم شيئا يا بدير، لا أفهم لم كل هذه الحرب، ولم كل هذه  
المشاحنات فى البلاد؟ أنا خائف يا أخى والله، ولم أعد أعرف أين الحقيقة وأين  
رأسى من قدمى.

صلبت وقد أخذتلى الدهشة ورحت أقول:

— أنتت أيها العزيز ثاونا الذى تقول ذلك؟ أنتت لاتعرف أين الحقيقة وأنتت  
غزير العلم والمعرفة، لا، لا أظن ذلك، ولكن لعلك لاتعرف البشموريين مثلى، فهم  
أهلئ وناسئ، إنهم أجلاف، قساة، خشنون لايعرفون شيئا من أمور السياسة، فهم  
أهل فلاحه وصيد، ولعل أبانا أدرئ بمصلحتهم منهم، فهو فى قصر الشمع بمصر  
العتيقة يرى مالا يرونه هم فى كورهم البعيدة، وهو يريد تجنيبهم سفك الدماء  
ويحرص على سلامتهم وسلامة نساءهم وعيالهم، ويريد أن يكون واسطة خير  
بينهم وبين الوالى.

تنهد ثاونا بضيق، وبدا وكأن كلامئ لم يعجبه، بل لمحت ما يشبه البسمة  
الساخرة المشفقة على وجهه، بينما هو يلکز بغله لبيبئ سيره قليلا، ويقول:

— يا لك من برئء طاهر يا بدير الطيب، لا، لا أظن أن ذلك هو السبب فقط يا  
عزيزئ، فأبونا يوساب عينه أولا وأخيرا على بيعتنا اليعقوبية وممتلكاتها وثرواتها،  
وحر به أولا وأخيرا ضد الملكانيين الهراطقة، وهو يتمنى الوقت الذى يحئ  
فينقطع دابرهم من البلاد، فانتشار الإسلام فى القرئ والكور لايقلقه، هو حريص  
على رباط الود مع المسلمين جميعا وخاصة الولاة والأمراء، حتى يقوونه فى  
حر به ضد هذه الكنيسة الملكانية، التى إن سادت فى البلاد، فريما عاد الروم إليها  
وسادوا مرة أخرى مثلما كانوا فى الماضئ، آه يا بدير، فليرحمنا الرب برحمته.  
إن بلادنا مسكينة يا بدير، مبتلية دوما، تخرج من نقرة فتقع فى حفرة. ربما

كانت مأساتنا تكمن فى أننا نتخذ جل معاشنا من الزرع والفلاحة، ولا نعرف لنا حيلة غير الأرض والطين، فنلتصق بها نروم السلام والدعة ونكره الاشتغال بأمر الحرب.

كان يقول ذلك وهو متألم جدا. فتذكرت ما قاله فى هذيانه وهو محموم «البلاد تقاسى الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق فى كل مكان يا يسوع المخلص. يا مريم البتول».

نظرت إليه مشفقا، كان سارحا يتطلع بعينيه بعيدا إلى الأفق الأخضر الممتد أمامنا بينما يحث دابته على المسير مرة أخرى، وبدأ لى أنه يتألم، لا... بل يقاسى الألم.

دخلنا القرية وقد قيل لنا أن اسمها «غيفة»، وبدت للوهلة الأولى وكأن بها قليلاً من الناس الساكنين، إذ كان معظم أبواب بيوتها مغلقا، وليس هناك من يستقبلنا بالصياح والزياط عند ولوجنا طرقاتها من الأطفال والعيال الذين يوجدون فى ذلك الوقت عادة للهو واللعب، فيعلنون بذلك فى الترو لأهاليهم عن مقدم الأجانب والأغرب.

فلما بلغنا ساحتها، وكانت ساحة واسعة لزوم درس البر وذرايته كما هو معتاد فى البلاد والقرى، لم نجد بها إلا نورجا واحداً فى ركن منها، ثم إن فلاحه ذات وجه شائه كثير الغضون انبرت لنا، وراحت تتأملنا باسترابية من خلف باب دارها الموارب، ويبدو أنها اطمأنت لنا بعد حين، وقد تيقنت من لباسنا الأصفر وزنارينا المجدولين أننا من أهل البيع وأصحاب الملة، فرحبت بنا كثيرا، وكأنها عادت إلى الشباب، وهى العجوز التى ليس فى فمها إلا سن وحيد إضافة إلى ناب ظهر لنا وهى تتبسم، ثم إنها اعتذرت عن استرابتها وتلكؤها فى الترحيب بنا بسبب خوفها من الأغراب، وضعف باصرتها بسبب المرض، وقد ألم منذ زمن بعينيهما، ثم إنها لما سلمنا عليها وطمأنأها ورحنا نستفهم منها ونسألها، أخبرتنا أن القرية صار يسكن بها قلة من الفلاحين المشتغلين بالأرض، بعد أن هجرها معظمهم، وأن القرية صارت منزلة قافلة الحاج فأسلم كثير من الناس لما يحصلونه من فوائد

وميز من جراء ذلك، وفضلوا خدمة الحاج على خدمة الأرض لإدراجها عليهم الفضة والدنانير مقابل ما يؤدونه من طعام وشراب للمرتحلين، لذلك لم يعد بالقرية إلا قلة من أهل الكنيسة، وقد أخبرتنا هذه الأم الطيبة لما سألناها، أن هذه القرية قديمة كانت عامرة حتى وقت قريب، وأن من هم أكبر منها وحضرتهم قبل موتهم، كانوا يقولون بأن البلد تعود إلى زمن صواع الملك، الذى فقد من مدينة مصر، وجد فى رحال إخوة يوسف النبى، وأنه كان من «غيفة» هذه.

ثم إن العجوز استقبلت لنا فى مودة، وأجلستنا فى مكان المضيفة، وقدمت لنا الكامخ والصحناء والصبر وشيئا مما طبخته لغدائها، كما أشرتنا شراب الحلبة المحلى بالعسل، وقدمت لنا ما كان عندها من عنب الفيوم وردى اللون كبير الحب، وهو عكس ما كان من كروم بيعتنا المخصص للخمر، الأصفر اللون صغير الحب والمسمى بالبنتاى لخلوه من البذر، فلما انتهينا من كل ذلك شكرناها كثيرا وهممنا بتوديعها ومعاودة المسير، لكننا قبل أن نفعل قالت أنها تريد أن تسألنا مسألة، ونساعدها على حل مشكلة، أما المسألة فهي أنه لما كان معظم سكان القرية الذين تبقوا فيها قد تحول إلى الإسلام، ولم يعد هناك إلا قلة من المسيحيين لا يوجد منهم من يصلح لابنتها البكر، فقد اضطرت لتزويجها برجل كان قد دخل فى الإسلام منذ زمن يسير، وشارطته على أن يترك البنت على دينها إذا ما أرادها تحته فى بيت واحد، على أن يكون له كل مالها وموجودها وأرضها بعد أن تموت وترثها الفتاة، فوافق الرجل وترك زوجته على ما هى عليه، تنطقس بطقوس الكنيسة، مثلما كانت تفعل فى بيت أمها، وقالت العجوز أنها تخشى أن تكون قد عصت أمرا لله، لأنها ما أرادت غير سعادة ابنتها والاطمئنان عليها قبل موتها، لكنها لا تريد أيضا إلا رضا السيد المخلص عنها، وأن تموت وهى مطمئنة للتعلم فى ملكوت الرب..

أسقط فى يد ثاونا، وهو المتكفل بالكلام فى هذا المقام، أما أنا فسكت لأنه لا تحق لى الفتيا فيما لا أعلمه، وظل ثاونا صامتا لفترة، يتأمل المرأة وأحوال الدنيا، لكنه قال أخيرا:

— هذا زمن صعب يا أمي، وهناك مسائل لا تحل إلا يوم الدينونة، فليغفر الله لك ولابتنك ولزوجها ولنا جميعا، ولكني أقول لك ما قاله بولس الرسول إلى أهل رومية من كلمات درية مقدسة.

«وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة، لأنى لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فيأياه أفعل، فإن كنت أفعل ما لست أريده فإنى أصادق الناموس أنه حسن. فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطيئة الساكنة فى فإنى أعلم أنه ليس ساكن فى، أى فى جسدى، شىء صالح لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد، لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده، بل الشر الذى لست أريده فيأياه أفعل، فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل، فلست بعد أفعله أنا، بل الخطيئة الساكنة فى،

ثم إن ثاونا أخذ يصلى ويصلب، والمرأة تصلب وتصلى معنا، وبعد ذلك أشار عليها ثاونا بضرورة أن تتحصل على كتاب الرب وتحفظه فى بيتها، حتى يحفظها ويحفظ ابنتها، ولو أنها لا تقرأ ولا تنتظر فيه، كما نصحتها بالذهاب كل أحد إلى البيعة للصلاة الجامعة، وكذا بالصوم، والحرص على التطقس بالطقوس التاوضوسية والالتزام بها، وأن تحصن ابنتها على فعل ذلك دوما، لأن المسلمين لا يخالف ملتهم التزوج من ملة اليهود والتاوضوسيين لأنهم أهل كتاب يعترف بنو الإسلام بأنبيائهم ورسولهم، ثم إنه قام برقى العجوز كما طلبت منه. ثم قادتنا إلى موضع المشكل الذى أرادت أن نعينها على حله وكان قنأ للدجاج وضعته إلى جانب موضع حيواناتها التى تربيها وترعاها فى فناء دارها الخلقى، حيث كان إلى جواره حضانة كتكايت، وقالت إنها تتبع الأصول المعتادة فى التفريخ بالحضانة، لكن أغلب البيض يفسد ولاتخرج منه الكتكايت، ثم أنها أرتنا بيت الترقيد، وكانت صفته مربعا طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة تقريبا، وله باب فى عرضه سعته شبران وعقد فى مثله، وفوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر مسقفة بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساسى وهو مشافة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين، وكان الطوب

مرصوصا كما هي العادة، وسائر البيت مطين ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار، وكان في سقفه شباك كما ينبغي سحته شبر في شبر بما يحكي صدر الدجاجة، وكان هناك أيضا حوضان من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة إصبع، وحيطانه نحو أربعة أصابع، وكان هذا الحوض لوحا واحدا كما ينبغي على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن وقد جف الطاجنان وركبا على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قبالة على الطرف الآخر تركيبا محكما، وقد أخذ وصولهما بالطين أخذا متفقا، وهذان الطاجنان يحاكيان جناحا الدجاجة كما هو مقدر، والبيت مفروش بقفة تبين وممهّد وفوقه ضب حصير، والبيض مرصوف فوقه رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكم لتتواصل الحرارة فيه، وكان كله قد وضع في هذا الوضع الذي هو وضع الترقيد، والحضانة مسدودة الباب بلبد مهندم، والطاقة مسدودة بساس وكذا الشباك، وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار. وكان في الطاجنين زبل البقر اليابس أى الجلة، وهو حوالى قفتين أى نحول ثلاث وبيات، وموقد فيه سراج من جميع جهاته وهو لم يصبح رمادا بعد ولم ينته اشتعاله. وقد قالت العجوز أنها ظلت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن وضعت على عينها، واعتبرت حرارته، أى أنها اختبرت زواقه، فلم تجده يلذع العين لتقلبه ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله بما يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدتها إياها بعينها، وهذا ما يسمى السماع الأول، لذا فهي لم تزل الزبل الذى صار رمادا ولم تتركه بلا نار إلى نصف النهار، بل أضافت له زبلا وعادت الإشعال وذافت البيض بعينها فلم تجد أن حرارته معتدلة بل كانت تلذع، وقد تكرر معها ذلك عدة مرات، وكان البيض يفسد فسألت كاهنا ممن عرفت عنهم الأعمال ليعينها على نجاح الحضانة، فعمل لها تعويذة لم تنجح ولم تؤت مفعولها، ثم إنها دفعت إلينا برق، أخرجه من حفرة كانت قد حفرتها بالأرض إلى جانب الحضانة، فلما فتحها ثاونا رحنا نقرؤها، وكانت مكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية التى أدركت قراءتها جيدا وكانت:

«أنا أدعوك أنت يا أتراك، الملاك العظيم الذى يقف عن يمين الشمس والذى تدن له بالولاء كل قوات الشمس، اذهب حتى حافة الهاوية، الفضة اذبحها، الصلب اكسره. الحديد أذبه. الحجر فثته. مياه البحر جففها. الجبال حركها. انى أدعوك يا رؤساء الملائكة السبعة ميخائيل وجبرائيل وأورييل وراكوثيل وسرويل وأنوثيل وسلفوثيل، لتنزلوا جميعا حتى ميخائيل إلى هذا المكان ولا تسمعوا شيئا إلا ما أقوله لتمكنوني طلبى وتحققوا الرغبة التى تجيش فى عقلى وتتنوق إليها نفسى. أنا سأعبر أنهار النار السبعة. وأصعد إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصباؤوت. وسأجد ميخائيل واقفا عن يمين الآب. أسرعوا أسرعوا. أنا أتضرع وأستحلف وأتوسل إليكم أيها الشهداء القديسون. أنا تيودورا المرأة العجوز الخاطئة، أضع أمامكم هذا الاتهام ضد كل من يفسد بيض حضانتى من الناس والأرواح الشريرة المتخفية فى الحيوانات، ولتحل اللعنة على كل من يفسد بيضى وليشتت شمله ولتشملة النقمة ولتنزل فى الحال الذراع الجبارة واليد القوية عليه. أيها الشهداء القديسيون أسرعوا ونفذوا مطلبى. أرسلوا قواتكم ومعجزاتكم. أسرعوا ونفذوا مطلبى؟» دفع ثاونا الرقعة إلى تيودورا مرة أخرى وهو يقول لها:

«استغفر الله من كل هذا. أحرقى يا تيودورا الطيبة هذا اللغو فى النار عندما تخبزين خبزك، أما كتاكيتك وحضاناتك فالمشكل فيها أن السراج لا يشتعل كما ينبغى، إذ أن فتيله مهترئ ويحتاج إلى تغيير. ولم تكن العجوز تدرك ذلك بسبب ضعف بصرها.

ثم إنه قال لها بحنو وهو يربت على كتفها:

— هل استعملت يا أمى شيئا يفيد فى تقوية البصر، حتى يمكنك تأدية ما ترغبين لتدبير شئون حياتك؟

ردت المرأة بقبليتها المزوجة بالعربية، والتى كانت تحدثنا بها من قبل:

— أنا أقطر فيها بين الحين والحين ملح الشب المطحون، بعد أن أمزجه بالماء الأول من النيل والذى أخزنه فى قواريرى عند نزوله كل عام وقت هلول بشنس.



رد ثاونا بسرعة:

- لا.. لا.. محلول الشب لا يكفى وحده يا أمى لعناتمة العين، بل عليك بالعصارة الطرية من الجميز، ثم إنه يتوجب عليك بين الحين والحين، خصوصا في شهور الله الحارة، أن تقطرى في عينيك مزيجا من الخروع والزاج الأزرق وزيت الفجل وبعضا يسيرا من القلافونية، على أن يكون كل ما سبق بمقادير متساوية ومقدارين من الماء الطهور، فهذا القطر يدرأ سموم الحر التي يدفع بها الشيطان إلى أبصار الناس.



رغم المشقة وتعب الطريق، فإن رحلتى مع ثاونا إلى الأراضى الموحلة، بدت لى من أجل الأزمنة التى عشتها فى حياتى، فملازمة رجل قليل الوجود مثله لهو من دلائل النعم التى يفيض بها الرب على الإنسان، ولئن قال من قال: الرفيق قبل الطريق، فإن ثاونا لم يكن مجرد رفيق جديد، ولا مجرد شماس تقى، غزير العلم، واسع المعرفة، أرافقه فى مهمة كنسية واجبة، بل كان منى بمثابة الروح من الجسد، والهواء من التنفس، أو إنه ضياء يستضىء به وجدانى ويعتمر، فأهتدى إلى شطآن السكينة واليقين، أنا المتخبط دوما فى ظلمات اليأس والعذاب، لا يفارقنى القنوط أبدا وهو من أرشدنى إلى حقيقة أن الحجاب على منى، وأنى الغمامة على شمس نفسى، وأن على أن أعرف حقيقتها ومواطن العتمة واللين فيها.

لقد حدثته ذات مرة بما يثقل صدرى، وكنا جلسنا تحت شجرة نبق لنستفىء ونستريح قليلا، فوجدتنى أبوح له بما لم أبح به لأحد أبدا، حتى لأبينا يوساب وحكىته له حكايتى مع آمونة كما كانت وجرت على وجه الدقة، دون زيادة أو نقصان، فأمسك بكفى، وهو يكفكف دمعى. بمنديله وقال:

-أتعرف يا بدير أن الرب يسبب الأسباب فلولا حكايتك هذه مع آمونه، لما كنت قد سلكت طريقك فى الحياة، حتى وصلت إلى طريق الرب فى البيعة وصرت مسيحيا جيدا سليم الإيمان، وربما لو بقيت إنسانا علمانيا بعيدا عن الخدمة، لم تسلك فى الأكليروس، أخذتك الدنيا إلى شطآن الضلال تتخبطك الأفكار، وتدفع بك فى كل اتجاه ولا تسلمك إلى سكة اليقين أبدا. إن قصتك ليست وحيدة فريدة أيها الأخ العزيز، فأنا أيضا، كلما تذكرت قصتى الأولى عندما كنت

أعيش في الوثنية والضلال، أتيقن أن الرب إنما وضعني فيها حتى تقودني قدماي في النهاية الى طريق الصدق والإيمان.

هتفت بدهشة، وقد دفعني الفضول:

- ثاونا.. قل لي بريك ولا تحجب عني شيئا، هل لك قصة مثل قصتي؟

هل عرفت صنف النساء في حياتك من قبل يا ثاونا؟ يا الله!!

ابتسم ثاونا ابتسامة باهتة، ربما لانى قلت ذلك بلهفة بينة، ورغبة قوية في معرفة أمر يخصه ويخفيه. ربت على كتفي وقال:

- ولماذا تظن أنني لم أعرف نساء من قبل؟ وتدهش إذا كان لي قصة معهن ذات يوم؟ ألسنت رجلا كاملا أمامك. وكنت ذات يوم شابا فتيا يافعا له جسد يطلب ما يطلبه الرجال؟

ثم إنه أخذ يبتسم مرة أخرى وهو ينظر إلى بحنو وعطف.

خجلت من نفسي، وقد رد على بذلك، لكنى في الحقيقة، كنت أرى ثاونا وكأنه كائن نوراني، وكأنه ساروفيم سماوى وليس كبشر جسداني، فقلت له:

- لا.. لا بحق السيد يا ثاونا، أنا لم أقصد ما يعنى أنك لست كاملا، لكنى أنزهك عن كل خطيئة شهوانية وأستحيلها بالنسبة لك، فأنت حكيم، راجح الوجدان، راسخ المعرفة.

قاطعنى بسرعة:

- لا.. لا يا بدير ذلك لأنك عرفتني بعد أن اهتمديت، أما في الماضي فقد عشت في الخطيئة، والمشكل يا بدير- ودعنى أصدقك القول، وليسامحنى ويغفر لى الرب- هو أنني حتى هذه اللحظة التى أجلس فيها وأحدثك، لا أشعر أنها خطيئة بل كلما طافت الذكريات برأسى، وتمثلت صور الماضي أمام ناظرى، وكأنها حدثت بالأمس القريب، انتعشت روحى بالفرح، وغمرتني سعادة لا أقوى على احتمالها أحيانا فأشعر أنني أرغب فى القفز والطيران والعلو والارتفاع حتى أعالى السحاب.

فتحت عيني بقوة وأنا أحدق في عينيهِ بدهشة، وقد وجدتهما تلمعان بقوة زادتَهما جمالا وبهاء، فصار وجهه أكثر وسامة وجلالا، وقلت له وقد أخذني الشوق والعجب. مما يقول:

- يا الله يا ثاونا! أنت تقول ذلك؟ تقول أنك لا تشعر حتى هذه اللحظة بالخطيئة؟!

- أجل.. أجل يا بدير.. أن لا أشعر بالخطيئة أبدا، وأتعذب لذلك كثيرا لأنه يفترض أن أشعر بالخطيئة وأتوب إلى الرب، ولا أعرف، لماذا يحدث لى ذلك يا بدير.. قل لى لماذا لا أندم وأتوب؟ بل لماذا أتمنى أن أعيش ما عشته من قبل والذي يسمى خطيئة.

صلبت بسرعة، وداخلنى شعور مباغت، بأن ثاونا بدأت تدهمه اختلاطات. وقد تذكرت من جديد كل ما أشيع عنه فى السابق وكذا هذياناته وهو محموم، وآثرت أن أنهى الكلام فرىما كان ثمة شياطين تحل فى المكان أخذت فى الهيمنة علينا مبتدئة به، قلت له بارتباك:

- ثاونا، هيا بنا نصلى صلاة المساء، فالساعة الآن حوالى الرابعة بعد الزوال، ولنتوجه بعد ذلك بسرعة إلى غايتنا ونعاود المسير.

قال بسرعة، وكأنه يحدث روحه أمام صفحة نبع رائق، وكأن قوة جبارة تدفعه للكلام دفعا ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفه.

- لا يا بدير لن نعاود المسير قبل أن نسمع حكايتى، أنا أريد أن أقص لك خبرى عن دلوكة، أريدك أن تعرف حبيبتى دلوكة، معلمتى وسيدتى ومولاتى أمس واليوم وغدا، وحتى أبد الآبدين.

كيف أصفها لك يا بدير؟ أأصف لك روحها، أم أنشدك أغنيات جسدها، إنها معلمتى الأولى، عرفت الحكمة على يديها، فهمت الفلسفة والحساب خبرت أمور الطبابة، إنها آخر النساء العظيمات.. وربما لن تجود القرون القادمة بمثلها.

كانت تعلم فى مدرسة برية بلدتى أنطونيوبوليس، وكانت هذه البرية تقع عند آخر البلدة على مشارف الجبل القريب منها، وكانت دلوكة موقرة، محترمة بين الناس، مشهورة بعلمها ومهارتها، التى يقال أنها ورثتها عن آبائها وأجدادها، وكان أبى أثناء ذلك متمسكا بدين الوثنية، يذهب إلى البرابى ويتعبد، فدفع بى إليها لتعلمنى منذ أن أبلغ العاشرة، فلما بلغت وصرت فتى يافعا، تأخذنى أشواق الذكورة والرجولة إلى نوع النساء، تولعت بها، ولم أعد أملك من أمرى أمرا، وكانت دلوكة جميلة آسرة، كشمس شتوية فى نهار بارد وقد زادها العلم بهاء، والحكمة فتنة وحضورا وقد هيمن على جسدها فأصبح ياتمر بأمره، ولعلك تعلم أن أبدع الأجساد هو ما كان مطية للعقول، فتتحول الغرائز إلى ملكات، ويروض الإنسانى كل ما هو وحشى، وهكذا كانت دلوكة، فالمرء لا يدرك سر هيامه بها، أهو بسبب تشكيلها الجسمانى المترتب فى تناسق وإحكام، أم أنه يعود إلى فيضها الروحانى السابغ عليه بما لا يقوى على مقاومته ولا يسعفه به الفهم والتفسير؟ وهكذا باتت تهيمن على روحى وعقلى، وتأسر كلى، وبعضى، فزهدت الطعام، وأخذت بالشراب، وصرت، أببت ليلى وأصبح صباحى، لا أدرى قمرا مثلها أو شمسا، ويبدو أنها فطنت إلى حالى، وهالها ما سوف يصير إليه مالى، وهى المرأة العليمة الحاذقة، فقالت لى ذات يوم وقد ذهبت إليها فى البرية لأسألها فى أمر من أمور جالينوس فى التشريح، وقد كنت رأيت فى بعض الرمم أن عظم الفك الأسفل هو عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، على عكس ما يرى جالينوس فى كتابه حيث يقول إنه عظمان بمفصل وثيق من الحنك، المهم أنها أفادتنى وأجابتنى عن المشكل بما نفعنى، ثم إنها قالت وهى تحديق فى عيني طويلا:

- ثاونا.. اتبعنى يا حبيبى الجميل، إلى حيث أكون معك وحدى.

سرت وراءها كالمسحور، وكأنها أرسلت من لحظ عينيها نارا أشعلت بها جسدى، وضجت بها نفسى، حين هتفت بنداؤها: «حبيبى الجميل».. فلا أعبر كيف عبرت الدهليز، أسرت أم طرت؟ ثم إنها أمسكتنى لما وصلنا الباحة المنتهى إليها ذلك الدهليز، وراحت تنصو عنى ردائى شيئا فشيئا، وتدفع بجسدها - وقد

تعرت مثلى - تجاه جسدى، فما لبثنا إلا قليلا، حتى غرقنا فى منهل القبل، وسرعان ما ارتفعنا حتى بلغنا فراديس النشوة العلوية، وكانت هذه هى مرتى الأولى التى ألج فيها إلى بساتين النساء، وكانت الأخيرة أيضا أيها الصديق العزيز؛ فقد وجدت دلوكة مينة بعد ذلك بوقت يسير وقيل وقتها إن جماعة من المسيحيين المؤمنين هاجمت البريا فى وضح النهار؛ وهدمتها بعد أن قتلت كل من فيها- وحطمت ما بها من أصنام وأتلفت كل ما كان على جدرانها مكتوبا بالقلم المرسوم، ثم إن أبى ارتحل بى وبأهلى من البلدة بعد ذلك، بعد أن بقينا مختبئين فيها ننقل من مكان إلى مكان سرا، وذلك بسبب تخوفه من هذه الجماعة. فليرحمنى الرب يا بدير وليغفر لى، وليحشرها فى زمرة التائبين، لكنى أقول لك إن دلوكة أول وآخر النساء فى حياتى فأنا لا أرى النساء كلهن إلا فيها، ولا أراها إلا كل نساء الأرض، ولذا أقول لك، وليرحمنى الرحيم إننى لا أنساها أبدا، فهى كامنة فى أعماق روحى كسلافة عتيقة، تزيدها الأيام تعتقا ويندر مذاقها، لذلك فإن ذكرها تطر روحى وتمنحنى نشوة حاضرة تعيننى كقنديل مضىء فى ليل حالك، فما من شىء- فى عالمنا هذا- يمنح المرء اليقين. كل شىء مضطرب يا بدير، والتحولات لا تترك لك مجالا ترتب روحك عليه بسبب سرعتها، فما هو كائن اليوم يختفى فى الغد، وما تراه عينك فى هذه اللحظة سرعان ما يغيب فى لحظة أخرى.

لقد عشت فى بلدتى وأنا أظن أننى لن أغادرها أبدا، وهى أنا قد غادرتها منذ سنوات بعد مقتل دلوكة، وقد عشت زمنا فى الوثنية والعلمانية، لكنى صرت بعد حين من رجال الأكليروس، فلما صرت فى الدير، جلبت إلى بيعتنا فى قصر الشمع وأنا أظن أننى لن أغادرها أبدا، وهى أنا الآن أسير إلى الأراضى الموحلة - والله يعلم وحده- هل سنعود إلى قصر الشمع مرة أخرى، أم أنه سيقضى بنا أمرا آخر كان مفعولا.

لم أكن أدرك أن ثاونا مضطرب مثلى، إلا خلال هذه الآونة.

وعندما قال ذلك قاله وهو واثق الإيمان، قوى المعرفة، لكن يبدو أن هناك أشياء تحدث حولنا تدفع بالمرء لأن يتخبط بين الحين والحين .

ربما كانت الأرواح الشيطانية ما زالت أقوى من الأرواح الطيبة فى تسيير كثير من الأمور، قلت لأهون عليه، وقد شعرت بمزيد من الحنو، وبنوع من الشفقة عليه: إنه زمن صعب يا ثاونا، ولكن لكل شىء آخر، والله لن يتخلى عنا أبداً، وهو القادر وحده على منح الراحة لأرواحنا.

تنهد، ثم سألتنى فجأة:

- أنعلم أننى متشوق جداً لرؤية الأرضى الموحلة ؟ فأنا أتخيلها وكأنها جزر فى البحر يحيطها الماء من كل جانب، ولا أعرف كيف تكون موحلة كما يقال عنها يا بدير!؟

شعرت للمرة الأولى عندما قال ذلك أننى أعرف شيئاً لا يعرفه، وربما - وليسامحنى الرب- داخلنى شىء من الرضا بسبب ذلك، فسارعت أقول:

- والله من الصعب أن أصفها لك، لكنك على أية حال سوف تراها بعينك بعد وقت ليس بكبير، وهى على أية حال أرض يتم فيها اختلاط مياه البحر الرومى بمياه النيل العذبة، وقد تداخل فيها رمل البحر مع طمى النيل وغرينه . وترسب ذلك كله ترسباً قوياً متيناً فى بعض المواضع، بينمابقى لطيفاً خفيفاً فى مواضع أخرى من الأرض، وبانت له سيولة وزلاقة تغوص فيها أقدام السائر، وأقل إهمال أو عدم احتراز فى السير أو غياب للتنبه، قد يؤدى إلى الغوص والتهلكة لأن كثيراً من مواضع تلك السيولة ليس له قرار، ويمكن أن يبتلع الإنسان ويحتويه داخل الطين مقلماً هو الماء الخالص تماماً، لذلك يجب أن يكون هناك أدلاء عارفون بمواضع السير فى هذه الأرضى، إذا ما كان هناك غريباء، أما أهالى هذه الأرضى وساكنوها وكلهم من البشموريين أمثالى فهم يعرفونها جيداً بسبب تمرسهم عليها منذ صغرهم، وقد بنوا كورهم وقراهم على ما بها من مواضع راسخة التربة متينة القرار.



تنحنح ثاونا قليلا، وبان وكأنه متحرج من أن يسألنى شيئا، فقد صمت، وربما كان يفكر فى قول ما يرغبه على نحو لا تجانبه الرهافة، ثم قال:

- ولكن- ولئسامحنى فى ذلك يا بدير- لماذا اشتهر أهل الأراضى الموحلة من البشامرة بالخشونة والغلظة والعنف؟! ولا تؤاخذنى يا عزيزى فى ذلك فأنت منذ أن عرفتك فى الببعة ومازلت حتى الآن لطيف المعشر لين الطباع، لم يظهر منك ما يعتبر من الغلظة والخشونة فى المسلك والأخلاق.

حرت جوابا، فأنا وإن كنت قد سمعت ذلك مرارا خلال تجوالى، لا أدرى له سببا، وإن كنت أتضايق كثيرا بسبب ذلك، بل كدت أصرب رجلا ذات مرة، لأنه عيرنى عندما عرف أننى بشمورى، فقال: مياه مالحة ووجوه كالحة، وكان يقصدنى ويقصد أهلى البشامرة بذلك، ولم أتركه إلا بعد أن خلصه الناس منى، وكان ذلك بالقرب من قرية صادفتها وبدت فى عينى وقتها كتيبة مربية لا زرع أو خضار فيها، أهلها المجذومون المنبوذون الذين يترقبون خروج ووصول الحجاج المسلمين عند البركة الواقعة على أطراف الصحراء، فيتسولون منهم ما يقتاتون به.

أفضيت إلى ثاونا بذلك، ثم قلت مجيبا عن سؤاله: كان أبى يقول لى دائما، إننا نعيش كمن يعيش فى الماء، فنحن لا نعرف مبتدأ أراضينا من منتهائها وهى فى حالة تغير دائم، بسبب دخول البحر إليها حيناً، وانحساره عنها حيناً آخر، كما قال لى ذات مرة، إن مبتدأ وجودنا بهذه المواضع، كان سببه البحر، فأجدادنا الأوائل كانوا من راكبي البحر والمشتغلين به، لكنهم مع مرور الأزمنة توطنوا وأنسوا إلى الزراعة فصارت معاشا لهم، وإن ظلت طباع البحر وأخلاقه هى المهيمنة عليهم، السائدة فيهم، فانتقلت إلينا من جيل إلى جيل، كما أن وجودنا فى مبتدأ البلاد بالقرب من البحر دوما، جعلنا فى موضع الصدارة لكل وافد غريب، أو معتد باغ، فطالما تعرضنا للغزو والنهب، خصوصا من لصوص البحر، الذين كانوا يسرقون إذا ما هبطوا - كل شىء حتى الناس.

لذا فأنت ترى أن سحنات الناس عندنا متخالطة، متداخلة، وإن مالت إلى البياض وكأننا من الروم أو من السوريين .

كنت قد تذكرت أبى وأهلى وأنا أروى له ذلك، فجاشت مشاعرى بالشوق اليهم، لكنى تجلدت كثيرا حتى لا تتساقط دموعى، ويبدو أن ثاونا أدرك ما أنا فيه، فقال محيدا بالحديث إلى موضع آخر :

- يا الله يا بدير أذهبت إلى قرية المجذومين أثناء هيامك قبل وصولك إلى الببعة؟! عجيب أمرك والله يا بدير! لكن الحمد للرب لأنك لم تصب بعدوى من هؤلاء المجذومين، لأن الجذام مرض فظيع يا عزيزى، ورحم الله يوحنا بن ماسوية الطبيب، فقد كان واسع العلم، عظيم المعرفة، وقد صنف كتباً كثيرة، فاق عددها الأربعين ومن بينها مصنف عظيم فى مرض الجذام، لم يسبقه إليه أحد ولا حتى جالينوس، ويقال إن هذا المرض يأتى وينتشر من علة تتعلق بدابة عضاضة ربما كانت نوعا من السلاحف، والتي يسميها بعض العرب «فكرون» .

بقيت فترة صامتا أسير وقد تجسدت فى عيني مشاهد المجذومين فى قريتهم الغربية، بعد أن نجح ثاونا أن يأخذنى بعيدا .. عما يهيج ذكريات أهلى فى ترنيط، ربما كانت مشاهد هؤلاء أبشع ما رأيت طوال حياتى، وقد تجمعوا نساء ورجالا فى ذلك المكان وكأنهم ليسوا من أهل الأرض، وقد تساقطت أنوف معظمهم، وبقي كثير منهم بلا أصابع تقريبا، وكانوا قذرين على نحو لا يصدق، وربما لا يدل على بشريتهم إلا عيونهم الشاحصة دوما إلى لا شىء، ورغم توهانى خلال ذلك الوقت إلا إننى لم أنس مناظر هؤلاء القوم أبدا، بل أقول إنهم ربما ردوا إلى جانبنا من وعيى وشعورى، وكانوا عبرة لى لأحمد الرب على ما أنا فيه، وعلى كل حال، فى كل وقت ومكان .

هكذا رحنا نحاول على ساعات الوقت ودروجه، وكلما أوغلنا فى الكلام ومكاشفة النفس للنفس بما يعترىها ويهجسها، ازداد شعورى بأن ثاونا هو قرين روحى، وصنو أسمى وهمى، وهو أهلى وناسى، ومن يمنحنى اليقين ويساعدنى على تقبل وجودى وحياتى.

وبقينا نقطع الطريق تلو الطريق، حتى وصلنا موضعا يقال له الحوف الشرقى، لم أكن قد رأيته من قبل، وكذا ثاونا، فلما ولجنا إليه، وجدنا أن أكثر ناسه من العرب، وإن كان بينهم من هو من القبط، لأن الرجل الذى رأنا عند مبدأ الغيطان أثناء قدومنا، تحدث إلينا بلسان قبطى مخلوط بلسان العرب، ورحب بنا ترحيبا بالغا، قبل أن يقودنا إلى دار كبيرة حسنة البنيان قال لنا إنها لمتريث هذه البلدة من الحوف، ويقال له بلسان العرب «العمدة» وهو فى مقام المازوت باللسان القبطى، وأنه يتوجب على أى قادم إلى البلدة أن يلتقيه ليستعلم منه عن سبب قدومه، ويأذن له بالمكوث إن أراد.

وقد أخبرنا الرجل أن هذه البلدة، وكثيرا من بلاد الحوف، تقع على طريق حجيج المسلمين إلى البلد المقدس المكرم، وأن كثيرا من الناس صاروا يتعيشون على خدمة الحجاج وتركوا الفلاحة والزرع بسبب تكسيهم الكثير من ذلك. فلما دخلنا على صاحب الدار الذى هو العمدة، استقبلنا بحفاوة كبيرة وكأننا من أهل ملته، لأنه كان من المسلمين، وكان لطيفا بشوشا، دون افتقاد إلى الوقار والذبل، وتعجب كثيرا من مجازفتنا ومرورنا فى هذا الوقت، لأن الحوف كله فى حالة ثورة وانتفاض ضد الولاة، فلما أعلمناه بأننا نحمل رسالة إلى رئيس البشامرة، تعجب أكثر، لأنه لم يكن يعلم بانتفاضة هؤلاء.

وظل يقول: سبحان الله، ويكثر من قول ذلك وهو يصلى على رسوله الكريم.

ثم إنه أصر على أن نأكل فى داره، وقام فأمر بذبىحة، فلما قدم لنا شواوها، وكانت شاة جيدة المذاق، إضافة إلى ثريد العرب، وفاكهة الموسم. أكلنا وحمدنا الرب كثيرا فراح الرجل يسألنا عن ديننا وطقوسنا، ومبتدأ دخولنا فى ملة المسيح وأنا ساكت تأديبا بينما ثاونا يرد، والرجل يستمع إليه بكل جد ووقار، ثم إن المؤذن نادى للصلاة كما فى عادة المسلمين، فقام الرجل مستأذنا، فدخل إلى محل الأدب ثم عاد وجاءه غلامه بماء طهور فى سطل من النحاس وراح يصب على يديه فغسلها حتى رسغيه ثم غسل فمه ووجهه وأذنيه وكذا ساعديه ومسح على رأسه. وكذا غسل قدميه؛ فتعجبت لذلك عجباً شديداً، وهمست لثاونا مبدياً دهشنى ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل فقال لى بصوت خفيض إن الرجل يتوضأ، أى يتطهر ويغسل جسده فى المواضع التى تكون عرضة للاتساخ حتى يقف بين يدى ربه نظيفاً طاهراً وقت الصلاة. وقال أيضاً إن المسلمين يفعلون ذلك خمس مرات كل يوم، فتعجبت أكثر لذلك. ولم أكن أعرف من قبل أنهم حريصون على النظافة والطهارة مثلنا نحن الأقباط، وبدا لى ذلك كثير الشبه بوجوب غسل القدمين قبل الطلوع الى هيكل قدس الأقداس فى البيعة وتطهيرها من الإناء النحاس المملوء ماءً مطهوراً والموضوع على مطهرة الخميس الكبير، وكما شهدت التوراة بأنه كان فى القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس فى قبة الزمان.

ثم إن العمدة اتخذ موضعاً فى ركن الغرفة وراح يصلى ونحن موجودان فى المكان ذاته ليس بعيداً دون أن يتحرج من وجودنا أو يجد ما يمنعه من عقيدة ونحن من أهل البيع كما هو ظاهر من مخبرنا ومظهرنا.

فتعجبت لذلك أكثر، وإن كنت بقيت صامتا وكذلك ثاونا ولم ننطق تأديبا وإجلالا، والرجل واقف يصلى فى حضرة ربه، فلما انتهى سلم وصلى على نبيه وسلم تسليماً، وعاد إلى مجلسه بيننا، وأخذ يحدثنا عن العرب اليمانية، وكذا العرب

القيسية الذين جاءوا إلى هذه البلاد وكان مبتدأ ورودهم زمن الولاة الأوائل وأنهم نزلوا بهذا الحوف الشرقى، واتخذوا الزرع معاشا، لكن الولاة ظلوا يضيقون عليهم بالخراج بين حين وحين مثلما فعلوا مع القبط، كما ظلوا يضيقون فى حساب القصبات كثيرا، حتى ضجبت الناس وضافت بعسف هؤلاء الولاة، لذلك فلقد امتنعوا فى نهاية الأمر عن دفع الخراج، خصوصا بعدما جاءهم آخر مساح وأخذوا يمسحون الأراضى المنزرعة، فانفقصوا من كل قصبه أصابع، فتظلم الناس إلى أمير البلاد فلم يسمع منهم، لذلك فقد عسكروا جميعا وثاروا.

كان الرجل يحكى هذا وهو غاية فى الغضب، يسمح على لحيته بعصبية وتأثر بين الحين والحين ويدعو دعوات كثيرة على الولاة، متمنيا على الله أن يحل عليهم نقمته، فتكون آية تجعلهم يرعون عما هم فيه من ظلم للناس، ويعودون إلى العدل وفعل الخير، وظل يقول إن فعلهم ليس بفعل المسلمين الأوائل، الذين يجب الاقتداء بهم فى الأفعال والأقوال، وإن دين الإسلام ما أمر بظلم أو جور أبدا، وأن هؤلاء الولاة والأمراء، إن استمروا سادرين فى غيهم، يزرعون الشر، فإنهم فى النهاية لن يجنوا غير الحسك والشوك.

وظل الرجل يقول كلاما كثيرا بلسانه العربى، وقد فهمت بعضه، وثاونا بترجم لى ما لا أفهمه، وكنت لا أتردد فى سؤاله أثناء ذلك، ثم إن الرجل خرج ليودعنا بعد أن استأذنا فى معاودة المسير، ومشى معنا ونحن إلى جانبه مترجلين عن الدابتين تحشما حتى بلغنا نهاية البلدة، وكنا أثناء مسيرنا قد رأينا الناس فى الأزقة والطرقات، وقد ارتدى أغلبهم الملابس العربية، وكانت النساء يسرن مكشوفات الوجوه، يخالطن الرجال فيما يستوجب المخالطة من معاملات وبيع وشراء، دون أى حرج، وقد كنت أظن أن نساء المسلمين لا يخرجن من دورهن ولا يخالطن الرجال فى أى أمر من الأمور.

فارقنا الرجل بعد أن ودعناه شاكرين وقد أوصى بنا العسكر الذين كانوا يحرسون مخارج البلدة وهم فى حالة تأهب واستعداد، فأكرموا خروجنا دون أية مضايقة، ودلونا على الطريق الأسهل للوصول إلى حذاء النهر بغيتنا حتى نسلكه

صعودا إلى الأراضى البشمورية، لكن ما أن سرنا قليلا حتى استوقفنا رجل قبطى طيب، حذرنا من السير بحذاء النهر قائلا إن هناك بلدة قبطية يقال لها سمنود يمكن أن يحصل لنا مكروه كبير لو دخلناها لأن بها شغبا كثيرا. وقال بسبب أن بعض الرهبان، قد وفدوا عليها من دير لم يسمه، ودخلوا بيعة من بيعها، فلما كان وقت القداس الإلهى، أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخير كلاما وقالوا: «المحى كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحى»، فثار عليهم القساوسة والناس، وكادوا يفتكون بهم.

ثم إن الرجل نصحن بالدوران حول البلدة لنلزم خط النهر من الجهة الأخرى، فشكرناه ومضينا، فلما بقينا وحدنا بعد أن غادرنا الرجل، قال ثاونا:

- أ رأيت ذلك الاضطراب فى كل شىء حتى الرهبان فى الأديرة صار بعضهم يخلط ويهرطق دون خجل أو مواربة! بل ومازال هؤلاء يفعلون، مثلما كان يفعل فى الماضى، من صياغات تلفيقية إيمانية لمارب فى نفوسهم، وأغراض تخص مصالحهم، فيقولون بمشيئة واحدة فى المسيح، بدلا من طبيعة واحدة فى المسيح! كما فعل ذات مرة الطاغية الرومى هرقل الذى ابتدع هذه البدعة المونوثليتيّة المزدولة، وحاول إرغامنا نحن الأقباط التاوضوسيين على قبولها، وقام بتعيين بطريرك نسطورى على كنيستنا فى ذلك الوقت. ماذا أقول؟! لنا الله يا بدير وهو الحافظ للجميع أولا وأخيرا.

بقينا سائرين، أقود ثاونا حامل رسالة الأب يوساب بمنتهى السهولة واليسر، وأنا أميز بين التربة المأمونة الراسخة التى يتوجب السير عليها، وتلك المرملة المبيضة التى هى غيض غائض لا قرار له، حتى أوشكنا على الاقتراب من بلدان كورة البشمورى، ولم نلبث إلا قليلا حتى اجتزنا الأريسية، بعد أن استجبونا العسكر الحراس على مداخلها، فشرحنا لهم الغاية من مرورنا بها، ولما أذنوا لنا، توجهنا إلى النجوم وهى محلة البشمورى ذاته، وقد هالنا عندما نظرناها، ما كان قد أخذنا عند مرورنا بالأريسية كذلك، أن الفلاحين منتشرون فى كل مكان وقد تسلحوا بالعصى والقسى والحجارة والمقاليع والأجر المقطع والبارية المقبرة والجعبة أو المخلاة والتراس من البوارى، كما كانت على رءوسهم الخوذ من الخوص النابت كثيرا فى المستنقعات والمجارى بأراضيم المحلة، وكان بعضهم يكتفى بمئزر يلف، به وسطه، وقد جعل فى عنقه الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب، وهو عار ما عدا ذلك المئزر الساتر للعودة وموضع الحياء، ثم إننا طلبنا الحمام من بعضهم لغتسل ونتهيا قليلا قبل دخولنا على مينا بن بقيقة، فلما أوصلونا إليه، وجدناه حماما قديما حسنا، قال ثاونا: إنه ربما يعود إلى زمن حكم الروم للبلاد. ثم إنهم قادونا إلى حجرة ضيقة قالوا لنا إنها المستخدمة الآن فى أمور النظافة والتطهر من بين مواضع الحمام كله، إذا أن مساحاته وفحاته كلها قد عينت لأموار الحرب والقتال، فهو بمثابة موضع السلاح ومخزنه لرجال البشمورى المحاربين، كما أنه كرس لمبيت أكثر عسكره، فطلبنا بلطف أن نعين ذلك ونراه بعد فراغنا فوافق القائمون على الحمام بعد لأى وقد تلمسوا فينا الطيبة والخير، وتأكدوا أننا لسنا من الجواسيس أو البصاصين التابعين لوالى البلاد، بل رجال كهنوت لا ناقة لنا ولا جمل فى هذه

الحرب الدائرة ولا نبغى غير حقن دماء عباد الله سواء أكانوا من القبط أو المسلمين .

فلما جلنا متفقدين المواضع داخل ذلك الحمام، هالنا السلاح الكثير وتعدد الرجال المحاربين من البشامرة الفلاحين ومعهم بعض المسلمين العرب، الذين انضموا للبشمورى، وثاروا ثورته . وكان من يجلس منصرفا الى عمل يعمله بسلاحه، ومن يقف يتدرب على الرمي وقد اتخذ من صحن الحمام ميدانا للتدريب والرماية، فلما رأونا التفوا حولنا، وقد سمعت بأذنى البعض يرمينا بالشتائم القبيحة وينعتنا بأننا من أهل مصر المنعمين وهو يقصد بمصر أهل قصر الشمع، فلم أترجم لثاونا ذلك حتى لا يغضب ويتصايق بل حثثته على الإسراع بالخروج خوفا مما لا يبتغيه قبل وصولنا إلى موضع مينا بن بقيقة، وقد هالنا خلط النساء بالرجال فى هذا الموضع من الحمام، إذ كان هناك من النسوة من يشتغلن بتكسير الطوب وإعداد الحجارة والآجر، وعمل المخالى، كما كانت هناك عجائز منصرفات إلى شؤون الخدمة من طهى وتنظيف وخلافه، وقد شاهدت «أزانا» ضخما يصطلى بنار قوية أعدت من خشب البوص، وبه مرق يغلى من ذلك النوع المسمى السخين، وقد قال لنا من لازمنا أثناء تفقدنا مواضع الحمام، إن جل أكل المحاربين هو من خبز بر الشعير وذلك المرق المتخذ لهم كإدام .

وأثناء خروجنا من الحمام، تقدم منا أحد الفلاحين العسكر برق، فلما فتحه ثاونا، وجد مكتوبا فيه بعربية واضحة:

لا صبر لا صحناء لا دلنيس

ولا نيدة أو ثريد أو خبز

فثّر على الولاة وقم

لا ترج سبباً لهم أو عذر

فوضعها ثاونا فى جيب رداءه وهو صامت، فلما تركنا هؤلاء وخرجنا لنعاود المسير مرة أخرى، قال ثاونا:



- ألا ترى أن هؤلاء العسكر لا يعتنون بأمور الدين كثيرا؟!

قلت له موافقا:

- أجل .. لاحظت ذلك وتعجبت كثيرا، لكن تعجبي الأشد كان لوجود هؤلاء العرب المسلمين بين البشارة. نحن لم نسمع عن ذلك من قبل في قصر الشمع.

رد قائلا:

- ليس عربا مسلمين فقط، ولكن مسلمين من القبط أيضا .. ألم تر ذلك الذى كان يحت بسكينة قرون البقر، إنه من المسلمين القبط وملبسه يشي بذلك فهو يلبس عمامة وإن كانت مهترئة. أما المرأة التى كان يحادثها وهى تغرف له المرق فهى قبطية لأن أحد خفيها كان أسود والآخر أبيض .. إن التذمر والغضب دفع أناسا للانضمام إلى البشمورى، وقد تتعدد الأسباب لكن الرغبة واحدة فى العصيان والتمرد، وقد سمعت فى قصر الشمع أن هناك بعضا من أولئك الذين قالوا بخلق كتاب المسلمين قد تسللوا سرا إلى مصر السفلى والتحقوا بالبشمورى، بسبب اشتداد الملاحقة لهم من قبل الخليفة، والحث على طابعهم والقبض عليهم. إن من العجيب أن ترى هؤلاء المقاتلين فى نشاط وهمة دائبين يهزرون فيما بينهم ويتصاحكون رغم الهزال الواضح عليهم! رأيت ذلك الذى كان جالسا يغنى هازجا وكأنه فى حفل وليس فى وقت حرب واقتال!

وكان قد جاءنا ونحن فى الحمام بعضهم، وطلب منا أن نرسمهم بالزواج وقد رجونا أن نبقى فى البلدة مدة من الوقت فلا رجل كهنوت فيها ليقوم بذلك.

عند مدخل المحلة، وجدنا رجالا مسلحين بعصى وسيوف ونقافات وقسي ونبال وما أن رأونا تقترب منهم حتى صاحوا صارخين فينا وقد وجهوا إلينا أسلحتهم، وكادوا يرموننا برميهم لولا لطف الله وصياحى فيهم بلسان بشمورى جلى ألا يفعلوا لأننا قبط جننا من مصر العتيقة حاملين رسالة تخص الرئيس مينا من متولى بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر العتيقة. فتوقفوا قليلا، ثم أقتربوا منا بحذر، وراحوا يفتشون ملابسنا وكذا جرابات البغلين، وبدوا لى أفضاظا

غلاظا، ذوى مسلك يفتقد الى الذوق والأدب، ورغم ذلك صبرنا عليهم وظل ثاونا يتلطف معهم، حتى تيقنوا أننا لم نكذبهم القول، وقد أبرز ثاونا لهم الرسالة وعليها أختامها، فقادونا إلى مقر البشمورى عابرين بنا طرقاات البلدة، وقد حرسوا علينا من كل ناحية بأسلحتهم .

كنت أسير خلال ذلك أفكر متوجسا فى أن يتعرف على أحد من الناس فى هذا المكان فيكتشف أمرى، وكنت ألتصص خلال المسير، متطلعا إلى الوجوه التى تصادفنى، دون أن أنظر البيوت والأبنية كما يفعل ثاونا الذى بدا لى مندهشا من تواضع بيوت الفلاحين وافتقارها الى العمارة الجيدة، كما هى الحال فى مصر العتيقة والفسطاط، ورغم خوفى وتوجسى، كنت أتمنى أن أجد أو أتعرف على واحد من أترابى الذين عرفتهم وصادقتهم ذات يوم، أو شخصا من أهلى، لكنى حمدت الله كثيرا على أننى لم أصادف أيا ممن عرفتهم فى الاساضى، وربما كان ذلك من حسنات الزمان وقوته .. فهو يغير كلما مر سحنات البشر ويبدلها، دون أن يشعر بذلك إلا من يتأمل نفسه ويطلعاها كثيرا، فمن كنت تعرفه فى طور اليفاعة والصبا، قد لا تعرفه عندما يكبر ويشيخ، وللقدير فى ذلك حكم .

لما وصلنا إلى مقر مينا بن بقرية، وكان دارا قديمة واسعة مبنية من الطوب اللبن كما جرت العادة فى بيوت الفلاحين يشى حسنها واتساعها بأنها ربما كانت فيما سبق مقرا لمازوت البلدة ورئيسها، لم يكن مينا حاضرا وقيل لنا أنه خرج فى أمر من أمور تحصيناته فى قرية قريبة، فبقينا ننتظره، وخلال ذلك رحنا نتحدث الى من مكثوا معنا من أتباعه حتى يجرىء، وقد أجلسونا على «دكة» من «دكك»، الفلاحين الخشبية المعتاد صنعها من خشب الجميز فى هذه المناطق، وكان فرش المكان كله من الحصير المجدول والطبالى الفلاحى، ولا أكثر من ذلك، بعيدا عن الترف ومظاهر النعمة والغنى، وقد قيل لنا أن مينا كثير التواضع، ميال الى النقشف، لا يسعى الى خير يستأثر به وحده أبدا، وإنه لا يأكل غير الخبز إن وجد ويصوم كثيرا، بل وقال - من يحبه كثيرا من بين الذين تحدثنا إليهم - إنه لا يشرب غير نبيذ البطيخ الأحمر فى بعض الأحيان، وأنه صار يأكل الفأر المتولد

فى الغيطان مثلما بات بفعل الفلاحون؁ ويطلقون على ذاك سمانى الغيط؁ والجميع  
يجله هنا؁ لأنه عاش قبل ذلك زملنا فى العز أيام أن عمل فى حسابات الخراج؁  
فكان يأكل الحلويات المتخذة من السكر كخببص اللىقطين وخببص الجزر والوردية  
المتخذة بالورد والزنجبيلة المتخذة بالزنجبيلة وأقراص العود وأقراص الليمون  
وأقراص الممسكة؁ وقد زعم بعضهم أنه رآه يأكل فى زمن العز ما يأكله الولاية  
والملوك؁ فكان يصنع فى داره رغبف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق  
ثلاثون رطلا ويعجن مع خمسة أرتال ونصف رطل سيرج ثم يقسم بقسمين  
ويبسط أحدهما رغبفا فى صينية نحاس؁ ثم يعبى على الرغبف ثلاثة خرفان  
مشوية محشوة الاجواف بلحم مدقوق ومقلب بالسيرج والفسق المهروس والأفوية  
العطرة الحارة كالفلل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال  
والجوزة ونحو ذلك؁ ويرش عليه ماء ورد قد أضيف فيه مسك؁ ثم يجعل على  
الخرفان ويبدو أن من قال ذلك كان جائعا يتشهى الطعام؁ فبدا كمن يحلم وهو  
يقظان مفتوح العينين؁ فتبسم ثاونا قليلا وأخذ يسايره بالكلام؁ حتى نقطع الوقت؁  
ونصرف ملل الانتظار؁ ثم إن ثاونا أخذ يسألهم «سؤالات» ويطرح عليهم حرازير  
لاهوتية حتى يقوى إيمانهم؁ ويعلمهم العقيدة الحقة دون أن يستشعروا ذلك؁ أو  
يدركوا إدراك المتلقى للموعظة والعلم؁ وكان يستمع لإجاباتهم الخاطئة بكل صبر  
وعطف مهما كانت مرذولة محشوة بالحمافة والجهل؁ ثم يدلهم إلى الإجابة الحقة  
أخذًا بيدهم إلى طريق الإيمان؁ وكان مما سأله لهم: لماذا أوجب الرب عقاب  
الجسد مع النفس؟ فلما تخطبوا فى الإجابة وتشتتوا؁ قال لهم: إن وجوب عقاب  
الجسد مع النفس؁ القصد منه تهديده وتأديبه؁ لأن البهيمة غير الناطقة إذا أدبت  
بالضرب عن إتيان شىء مرة بعد مرة؁ تأدبت وانتهت عن فعل ذلك خوفا من  
الضرب؁ وكذلك الجسد إذا عوقب مع النفس عن ارتكاب الخطايا؁ تأدب هو أيضا  
كمثل أدب البهيمة؁ فاذا اشتهى الخطيئة خوفته النفس بالأدب الذى عوقب به؁  
فيخاف ويوافق النفس على ترك الخطيئة التى اشتهاها؁ هذا إذا كان يبادر بأخذ  
العقوبة عن كل خطيئة يفعلها أولاً بأول ولا يتوانى عن ذلك؁ فإذا ما فعل ذلك

مدة يسيرة، يبادر بعقوبة نفسه وجسده كليهما بالفضيحة والقانون، ويثبت ذلك في نفسه ويتوطد، وعندئذ تثبت مخافة العقوبة في نفسه وجسده .

ثم إن البشمورى جاء فجأة، ودخل علينا بين ثلة من رجاله وأعوانه، فما أن رأنا حتى نظر إلينا بدهشة وريبة، وسمعته يسأل واحدا من أعوانه عنا، فلما أعلمه قال: مرة أخرى يرسلون رسلا إلينا، ويكتبون لنا كتابا؟ ألن يكفوا عن هذا الأمر أبدا؟ فترجعت لثاونا هامسا ما يقول، وقد كنت حريصا أن أبقى قريبا منه قدر استطاعتي لأقول له كل ما يقال بالبشمورى، أو لأجيب عما يريد السؤال عنه، ثم إن مينا اقترب وحيانا، فرددت عليه تحيته بلسانه، فلانت أساريه، وهذا حق، ولطفت خشونته قليلا، وراح يسألنى عن أصلى وفصلى وأنا أحتاط فى الكلام معه خشية اكتشاف أمرى، فقلت إننى تلسنت البشمورية عن أمى التى كان أبوها من هذه المواضع، لكنه ارتحل إلى مصر العتيقة، وقد مات كلاهما مبكرا فلا أعرف شيئا عن أهلى بعد ذلك، وقد تباننى رجل حجار بعد وفاة أبى وربانى حتى اشتد عودى وصرت يافعا، وقد الله لى الاشتغال فى البيعة .

ثم إنه طلب لئال نبىذ البطيخ لنشريه، واعتذر لأنه لا يجد لديه شيئا غيره يقدمه لنا، فشكره ثاونا كثيرا، وبدأ يكلمه بكل أدب واحترام، بينما رحت أنا أترجم له لسان ثاونا الاخميمى، وهو يقول:

- لقد جئت أيها الأخ الطيب حاملا إليك رسالة من رئيس بيعتنا فى مصر وهى بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع، وأنت تعلم أنه كان قد أرسل رسائل عدة قبل ذلك فأرجو أن تقرأها وتوافينى بالرد فى التو، لكنى قبل ذلك أقرئك السلام، وأعرفك أنى ثاونا الشماس بالبيعة ومن العباد المؤمنين، وقد تشرفت بمعرفتك ودعوت الله كثيرا أن يحفظك ويحفظ رجالك منذ دخولى إلى محللكم، ولى رجاء أن توافينى بالرد سريعا، لأعود إلى سيدى البطرك المنتظر هناك فى مصر، فالأمر لا يحتمل التأخير والإبطاء كما قال لى نيافته، وكل درج من دروج الوقت يعنى الكثير الخطير بالنسبة له .

كان أتباع البشمورى ورجاله يتفحصونا ملياً أثناء ذلك، وقد التمعت أعينهم بتحد وعداء لنا، بينما نظراتهم تجول بملابسنا الكهنوتية وأحذيتنا، وتنطق بما يعمل في داخلهم من إدانة لنا وهم أشباه الحفاة العراة الجائعين، بينما مدناؤنا يده مقدما الرسالة إلى البشمورى، وكانت مخطوطة في جراب من جلد التمساح.

وكانت رقاً مخطوطاً بأقلام عدة، ومعها رق آخر، قال لنا إنه حجاب حافظ صنعه الأب يوساب بنفسه لأجل مينا وعليه أن يحمله معه أينما ذهب وحل.

أخذ البشمورى يقرأ الرسالة بدقة بعد أن فض أختامها على عجل، فلما انتهى رفع رأسه، فبدأ كأسد مزمر بالغضب والعنف، رغم وسامته الظاهرة، ثم قال وقد جلس قبالتنا القرقصاء على الحصير، مثلما كان يجلس من كانوا معه:

— هكذا تطلبون منا مجدداً في قصر الشمع، أن نسلم للوالى ونرمى سلاحنا، فنتطيعه ونذفع له ما فرضه علينا من دمز<sup>(١)</sup> كل عام، وأن نحضر بعد ذلك بأنفسنا لملاقاة الأب يوساب بكل سرعة، حتى يقدمنا للوالى ونقدم له فروض الطاعة والامتثال؟

ثم إنه التفت إلى جميع الجالسين حوله، وكانت عيونهم تنطلع إليه بكل جد واهتمام، وقال: سأقرأ عليكم يا إخوانى الرسالة بحذافيرها، وأرجوكم أن تصبروا على ما فيها وأن تملكوا زمامكم فلا تفعلوا ما يغضبنى منكم ويعرضكم للعقوبة، مثلما فعل البعض فى المرات السابقة، ثم تلا:

بعد السلام والتحية:

«كما قال الكتاب فى المزمور ٧٧، الذى سمعنا رأينا وأخبرونا آباؤنا، وكما أخبر موسى النبى، فإنه كتب ما كان فى الأرض من آدم الأول إلى زمانه، ثم بعده الأنبياء الذين تنبأوا على هذه القضية وتعاليم الآباء المؤيدين الذين للبيعة

(١) دُمَز: خراج بالقبطية.

والكلام المقوى للأمانة والأخوة بين المعمودية اللابسين النور والآباء المؤيدين الذين أثبتوا الأساس القوى والدعامة الوثيقة والرب يسوع المسيح المخلص الذي نجانا وخلصنا من آثامنا بتجسده من العذراء الطاهرة والمنعم علينا بفتح قلوبنا وأذهاننا بسماع كتبه المقدسة، فيلن ويستن ويوسابوس الذين من اليهود الذين أخبروا أولاً بخراب أورشليم والذين وضعوا لنا سيرة البيعة المقدسة أفريقوس وأوسابيوس والصوزامنوس، أظهروا لنا الجيد والردىء والبلايا التي حلت بالقدسين والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم من التعب على البيعة والشعب الأرثوذكسى من المتولين فى كل زمان ليس بكورة مصر فقط، بل وأنطاكية ورومية وأفسس التى كان فيها هارسيس نسطور الذى يستحق لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين فى ذلك الزمان، وبدد الله جمعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم كيرلس الذى قطعه وغيره من المخالفين وجعل كتبه فى سائر بيع المسكونة الأرثوذكسية، كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذى ابتدأ بأسمائهم الى أن انتهوا الى المعترف المجاهد بالحقيقة ديسقرس الذى أحرم لاوون الذى هو السبع المفترس للأنفس كاسمه وأحرم الستمائة والثلاثين المجتمعين بخلقدونية وأحرى مرقيان الملك والملكة بلخارية المرذولة وجميع من اتبع لاوون تحت الحرم.

أما بعد، فأنت أعلم أن كورة مصر، قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج، كما أن أصحاب تاووفيلكس الخلقدونى لا يألون جهدا لاغتصاب بيعنا الناضوسية بغير حق، رغم ما تعانى منه بيعنا الطاهرة الآن من ظلم وعسف وما ندفعه عليها من خراج والخلقدونيون يحملون الهدايا ويدفعون البرطيل لذوى السلطان حتى يغتصبون بيعنا وهم يقولون.. فى البداية كان الملك لنا والكنايس وجميع ما لها لنا، وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر ونحن الآن يا ولدى مقيمون فى مواضعنا، وكنايسنا بيدنا والله ما يغفل عنا ولا يتخلل عن معونتنا، ثم إن هؤلاء العرب لا طاقة لنا بمقاومتهم، فهم قوم خلقوا للكر والفر ونحن قوم قدر الله لنا الزرع والفلاحة منذ ساحق العصور، ولا قدر لنا على نزالهم، فإن نحن نازعناهم وضيقنا عليهم، انقلبوا علينا حتى يهزمونا وعندئذ قد تسوء عاقبة الأمور.

وقد يؤذون الكنيسة الجامعة ويقطعون خبرها من البلاد، فتورد الى منازل التهلكة، لأن الكنيسة هى الحافظة لمصر، فإن ضاعت، ضاعت معها البلاد الى الأبد، فلنفاوضهم يا بنى على الخراج، ونصالحهم على ما يرضينا ويرضيهم حتى نحفظ كنيسةنا القبطية الأرثوذكسية من كل شر وضيق.

وأنت تعلم يا ولدى أننى أطلب إليك الكف عن منازلة الحكام كارها. كما تعلم أنه قد أصاب الآباء والكهنة منهم بلاء كثير منذ وجودهم حتى الآن ولعالك تعلم ما فعله عبدالملك مع مروان بعد أن جاءه بحشود كثيرة، وجرى بينهم سفك دماء لا حصر لها، ثم إن عبدالملك جمع بمصر مقدمى جيشه واعتقلهم سبعة أيام واعتقل أيضا كتاب الدولة ومقدمى البلاد والمواريث، وطلب منهم دفع الحساب والقيام بما عليهم، ثم أحضر الأب أنبا ميخائيل الى مصر لأجل خراج البيعة، فلما وصلنا اليه طلب منا ما لا نقدر عليه فأمر أن نعتقل وأن ترمى فى أرجلنا خشبات عظيمة وأطواق حديد ثقيل فى رقابنا وكان معنا الأنبا موسى أسقف أوسيم، وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا إيلياس بولس ولد أنبا موسى بالروح، وجعلونا فى خزانة مظلمة، لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق؛ لأنها كانت نقرت فى حجر، وكنا تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادى عشر من توت الى ثانى عشر بابه لم ننظر فى هذه المدة شمسا، وكان معنا ثلاثمائة رجل، ونساء أيضا معتقلات فى ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولى السجن علينا ويمضى ولا يعود الى سابع ساعة من النهار، وكان المرضى والإعلاء يجيئون إلينا فى السجن لنباركهم ويسروا، ومن النصارى والمسلمين حتى البربر كانوا يجيئون إلينا ويعترفون بذنوبهم التى فعلوها، وكذلك المسجونون.

وأنا أقول لك يا ولدى: هذا بلاء قليل من بلاء كثير قابلهنا مع الكهنة الأرثوذكسيين من أبناء بيعتنا، وبيعنا فى خطر، فارجع عما أنت فيه، لنحفظ كنيسةنا وبيعنا وتسلم بلادنا من كل أذى، وأنا أكتب لك هذا السنوديقا، وأباركك باسم الرب، وأبارك جميع البشوريين فى كورة مصر.

ما أن انتهى مينا بن بغيرة من قراءة رسالة أبينا إلى أعوانه، حتى طواها مرة أخرى بسرعة، ودفعها الى ثاونا، وراح يجز على أضراسه، ثم قال بصوت خنقه انفعال الغضب وهو يقول لإخوانه، وقد بدا لى وكأن شيطاننا قد ركبته:

- ها هي الرسالة أمامكم حرفا حرفا دون زيادة أو نقصان، هم هناك في مصر العتيقة يريدوننا أن نرجع عما نحن فيه، ونسلم لقائد المسلمين، بعد أن دوخنا عسكره وبات النصر قريبا دانيا منا على أولئك الذين أذلونا وأجاعونا وخبروا ديارنا واعتصرونا اعتصارا، وحلبوا البلاد كما تحلب البقرة حتى جف الصرع وذبل الزرع، ألم يقل قائل منهم ذات يوم مخاطبا سيده في هذا الأمر «إنما أنا مثل ماسك قرني البقرة لغيري ليحلبها، أو ليس رأيهم فينا أن يجلدونا بالخراج بدلا من السياط لأننا إن تبسر عيشنا وهنت حياتنا تفرعنا عليهم وأخرجناهم الآن وقد دوخناهم وهزمناهم جيشا تلو جيش في كل الكور من أراضى مصر السفلى، وهذا ما لم يحدث منذ مبتدأ انتفاضتنا زمن المدعو الحر بن يوسف الذى تأمر علينا وقت حكم هشام بن عبدالمك، عندما كان متولى الخراء الذى يسمونه الخراج عبدالمك بن الحباب، فزاد على كل دينار قيراطا فانفضت كورة وتمى، وقريبط، وطرايية، وعامة الحوف الشرقى، فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقتل منهم بشر كثير، ثم انتفض بعد ذلك أهل الصعيد.

أتنسون يا إخوانى المقتلة التى أعملوها فى أهلنا، عندما حارب هؤلاء الفلاحون عما لهم سنة إحدى وعشرين ومائة بتاريخ هجرة رسول العرب، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان، فظفروا بنا ولم يتركوا من أهلنا حتى النساء والأطفال؟

أتذكرون خروج بخنس فى سمند وقتل عبدالمك بن مروان له وأصحابه؟ أتذكرون انتفاضة رشيد، وما كان من أمرهم مع عثمان بن أبى قسعة مبعوث مروان بن محمد الجعدى لهم ودحزهم على يديه؟

أتذكرون حوادث سنة خمسين ومائة التى دونها كتابهم ومؤرخوهم ليشهد شاهد من أهلها؟ حيث خرج الأهالى على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب



بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا وناذبوا العمال وأخرجوهم، ثم إنهم صاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهاليها هنا فى الأرابسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد النصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر، فخرجوا إلى أهاليها من القبط الذين قاتلوا العسكر، حتى ألقى هؤلاء الأخيرون النار فى قرانا وانصرفوا منهزمين.

كنت أنظر البشمورى، وقد أخذه الحماس وبدا لى وكأنه يتألم وهو يتذكر ويتلو كل تلك الحوادث الجسام، إذ كانت يده ترتعشان، وصوته يرق تارة بالحزن ويخشوشن ويجيش تارة بالغضب. وكنت متعجبا من علمه العليم بكل هذه التواريخ وحفظه لها، ويشهد الله أننى تأثرت جدا بما قال، ولان قلبى له جدا، حتى أن عيني ندعت، وكنت أمسك نفسى وأتصبر حتى لا تفر الدمعة منها، ثم إن البشمورى واصل كلامه، بينما أعوانه شاخصون اليه بكل شعور واهتمام، لا يحيدون بأبصارهم عنه، ولا يهمس بينهم هامس، حتى لا تفوتهم كلمة واحدة من كلماته التى واصلها بقوله:

— أقول لكم كل تلك الحوادث يا أخواتى، حتى أذكركم بما كان فيه أبأونا، وحتى لا تثبط لكم عزيمة، ولا يهدم لكم حماس، والآن: أبأونا الطيبون فى مصر العتيقة، يريدوننا أن نترك السلاح.. وما هم إلا أهل بيعة أتقياء، تفرغوا لخدمة الرب، وهم ليسوا بزارعين للأرض ولا كادحين فيها، بل هم لا يعلمون حقا ما نحن فيه، هنا فى مصر السفلى وفى الأرض الموحلة، وقد ضيق هؤلاء الولاة علينا بالخراج حتى أكل الناس حشائش الأرض، وديدانها، وهرب من هرب إلى الصحراء والبادى مع نسائه وعياله، ومات من مات، بل إن كثيرين قد جنوا، وهاموا على وجوههم بسبب الجوع وانعدام الغذاء، وانتشر الوياء وتمزقت الأسر وتخرب وجدان الناس، لأن البعض أثر الدخول فى الدين الجديد، حتى أصبح تحت سقف البيت الواحد أخوان أحدهما مسلم والآخر مسيحى، بل ويجوز أن يظل الأب مسيحيا دون سائر أهل بيته، والآن أنا أقول إننى لن أدع لهذا الأمر نهاية إلا بحد السيف، ولن أكف عن القتال حتى آخر نفس فى جسدى، وقد صارت الحياة والموت سيان لا فارق بينهما فى ظل هذه الأحوال والأحوال.

فلن أعيش عبداً على أرضي، ملزماً بدفع دينارين وثلاثة أراذب حنطة، وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل من كدى وعرقى، وأن ألبسهم مما أصنع جبّة صوف وبرنسا وعمامة وسراويل وخفين لزماً فرضاً، لا والله لن أعيش مع كل هذا أبداً، وليسامحنى الرب إن كنت قد خالفت ما ارتآه أبونا فى مصر العتيقة، وليرحمنى الغفور، إن كنت قد عصيت له أمراً رغماً عنى، لأن الرب لا يرضى الظلم، وهو الحاكم لنا ومقدر معاشنا ومماتنا، وليتولنا برعايته ورحمته الواسعة ويقضى بنا أمره ونحن له لطائعون ممتنون.

كنت أترجم لثاونا خلال ذلك، بصوت خفيض هامس، كل ما يقوله مينا الزعيم، فما أن انتهى، حتى علا اللغط وتداخلت كلمات التأييد له والثناء عليه من جميع القرارية أتباعه، وراحوا يهتفون ويجددون له الولاء معلنين عن تبعيتهم له واستمرارهم معه فيما هم فيه، وعندئذ تيقنت أن هذا الشاب الذى لا يمكن أن يكون عمره قد جاوز الثلاثين بأى حال من الأحوال مهيم كالساحر بسحره على هؤلاء الفلاحين المأمورين بأمره، وجعلهم من القرارية الملزمين جبراً على عدم مغادرة الأرض كمعظم الآخرين وفقاً للأحكام المفروضة عليهم منذ زمن قديم، وقد شعرت أثناء ذلك أن هذا الزعيم البشمورى ذو كياسة وكأن شيئاً قد مسه مما لدى أهل المدن من لطافة وذوق. على رغم أن شكله لا يفترق كثيراً عن القرارية؛ فهو غليظ الملامح مثلهم، وإن خالطت ذلك وسامة وعافية، إذ أنه طويل ممشوق لجلده لون الحنطة والشهد، يكلل رأسه شعر أسود جعد.. يمتد حتى كتفيه دون أن يصفه أو يقطعه، وهو يرتدى مثلما يرتدى جميع من معه من الفلاحين اللباس الشيت والصديرية المصفرة بالزعفران، كما هو متبع هنا فى هذه النواحي البشمورية، وإن بدا ذلك الملبس عليه أليق وقد صدق من قال: مهما كانت رداءة الخرق، فإنها لا يمكن أن تخفى حسن الخلق.

وكنا أثناء وجودنا فى الحمام أنا وثاونا، قد تساورنا بالكلام مع رجل خدم البشمورى طويلاً، فحكى لنا شيئاً يسيراً عن حياة هذا الزعيم وأنه كان قد تعلم ودرس فى مبتدأ أمره بمكاتب الاسكندرية... فلم يهتد عند ذاك الوقت إلى الديانة...

الحقة، وقد أرسله أبوه منذ كان صبيا إلى هناك، فدرس العلم الدنيوى، واطلع لسنوات عدة على علوم الحساب والفلك والتاريخ والفلسفة، وحصل شيئا من السيمياء والكيمياء، وقرأ كتب الأقدمين فى علم القراسة، وكذا معارف أخرى مما اشتهرت به مكاتب الإسكندرية منذ الزمن البعيد، وتسربت من جيل إلى جيل، فحفظها بعض من أولئك الشغوفين بالمعرفة الدنيوية وكتموها، رغم أنهم أظهروا الديانة لكل حتى لا يفتك بهم مثلما جرت العادة بين الحين والحين، من فتك عامة الشعب المسيحى المؤمن بالوثنيين الذين يظهرون دياناتهم.

وقد قال من حكى لى طرفا من أخبار البشمورى إنه ظل زمنا طويلا فى الضلال يخلط العلم بالدين، وإنه كان قد تخطى وخالط أكثر من مرة بسبب كثرة قراءاته ونظيره فى الكتب، وأنه اعتقد فترة فى مقالات وكتاب أوريجانس الذى قطعه الأب ديمتريوس فى الماضى بسبب كتابته السحر ورفضه كتب القديسين وتجديفه بالقول من أن الأب خلق الابن وأن الابن خلق روح القدس، ولم يكن يقول إن الأب والابن والروح القدس إله واحد وأن الثالوث لا يعجزه شيء، بل قوته واحدة وربوبيته واحدة. وقد قال لى ذلك الرجل أيضا، وكان ضمن من رافقونا وقت فراق الوطن، بعد ما حدث ما حدث، أن مينا وقع زمنا فى غواية ما سلكه بولة السميساطى الكافر، الذى بقى على ضلالته مفتريا على الله بكلامه فأنكر وجحد الرب فى أمانته، وهو الذى أخرجه مكسميوس البطرك الجالس على كرسي القديس مرقس بمدينة الاسكندرية زمن الملك غليانوس والاربانوس، وكانت صفة بولة أنه استغنى من مال البيعة بعد فقر، وكان ينهب الهياكل بالناموس ويقطع مصانعات الأتقياء فى الحكم، وإذا زاده خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكتسب له غنى باطلا من كل وجوه الظلم، وكان مع هذا يظهر أنه عابد لله، وكان يمشى مع الأعوان ويتسلط على الضعفاء ويدور فى الشوارع ويحب أن يتسمى باسم الأسقفية، ويقلق الناس بكثرة من يصحبه من الجمع، وكان معه كتب يقرؤها، كأنه يطلب الخراج، ويوهم الناس أنه مقدم ويصحبه قوم متسلحون قدامه وخلفه، وكان يبغض التعليم الروحانى، ويحب التعاليم البرانية،

ويرفض الغرباء إذا دخلوا في البيعة، ويطلب المجد من المقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع حتى أنه وضع له كرسيًا بمنبر عال كأنه تلميذ للمسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النساء يقرآن في ليالي الأعياد وفي جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان المؤمنون يسدون آذانهم إذا سمعوهن يقرآن، وكان لا يقبل شيئًا من الكتب ولا يقول إن المسيح ابن الله ولا أنه نزل من السماء وتجسد من مريم العذراء، بل كان يجدف تجديفًا كثيرًا.

ثم إن مينا بن بقيقة، افتتن زمنًا كذلك بأقوال الكافر ماني عابد الشيطان، وكان ماني هذا قد أظهر أفعالًا رديئة زمن فزوبوس الملك، وجدف على الرب ضابط الكل، وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر أن قال إن جميعه بارقليط، وكان هذا عبدا لأمراة أرملة كان لها مال كثير، وكان قد أوى إليها ساحر عظيم من أهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات؛ فاشتريت المرأة ذلك العبد السوء وعلمته في الكتب، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر، فلما قرأها وعرف منها السحر مضى إلى الفرس وحضر إلى الموضع الذي فيه السحرة والعرافون والمنجمون، فلما قوى في علم الخطية ظهر له الشيطان وقواه وحجب له بغض البيعة فأضل قوما كثيرين بسحره وصارت الأموال تحمل إليه وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته النجسة وكان يستعبدهم بسحره ويصل جماعة من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذي وعد السيد المسيح في إنجيل يوحنا بإرساله، وكان يقول بضلال المعلمين والآباء - قطع الله لسانه - لأنهم يقولون إن الله جل ذكره حل في بطن امرأة، وقد قال الأنبياء قولا غير الحق عن المسيح لأن إله العتيق شرير لا يريد أن يؤخذ منه شيء فأما إله الحديث فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم، وقال كلاما كثيرا تجديفا لا يجوز ذكره ولا قال الشيطان قط مثله.

ثم إن البشموري عاد واهتدى إلى الدين الحق، بعد أن تعقل، واعترف بخطاياها على يد أبي بيعة بلدته النجوم، وصار تقيا حكيما، لا يرتكب الفاحشة ولا يفعل الإثم وذلك عندما عاد إلى أرض آبائه وموطنه في الأراضي الموحلة، وكان

أبوه من الميسورين فكرسه للعلم باعتباره أكبر إخوته، وكرس بقيتهم للفلاحة كعادة أهل نواحينا البشمورية، ولم تزل منذ العهد القديم وحتى الآن، فلما تعلم مينا وجد في العلم، وبانت عليه علامات النجابة والذكاء، ونشط في علم الحساب، استخدمه متولى الخراج في مصر السفلى كحاسب لدمز الكور في بعض النواحي، وليلد ذاك المتولى على أفضل السبل لاعتصار ما بها من خيرات، ولقد ظل مينا على ذلك الحال فترة من الزمن، لكنه في النهاية تاب واستغفر بعد أن انتفض ضميره، ويقال إنه كان قد عايش وشاهد بأمر عينه ما كان من أمر هؤلاء القرارية المساكين، والذين هم أفتان الأرض بأمر المتولى، لا يحق لهم مغادرة الأرض أو أماكنهم هم وذريتهم أبد الأبد، حتى يزرعوها، على ألا يباعوا أو يشتروا كالعبيد، وكان هؤلاء لا يجدون ما يقتاتون به، حتى عدموا صناعة خبزهم المسمى بتاو والذي اعتادوا عمله من طحين الذرة والحلبة، في الوقت الذي كان، وهو المتمرّد الآن، يستخرج الخراج من أراضيهم وكورهم، حتى أنه استخرج منهم في عام واحد من الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين أردبا وثمان ونصف وسدس وثلاثي قيراط، ومن العناب ربع إردب، ومن ورق الصباغ ألفين وأربعمائة وثلاث أرداب ونصف إردب، ومن زريعة الوسمة عشرة أرداب وربعا، ومن الفوة أربعمائة وسبعين رطلا ومن الأغنام مائتي ألف وخمسة وثلاثين ألفا وثلاثمائة من الرءوس، ومن الجاموس الأسود غزير الحلب مائتي ألف ومن البسر ثلاثمائة وثلاث عشر قنطارا وثمانية وثلاثين رطلا، ومن عسل النحل خمسمائة وواحد وأربعين قنطاراً وسدس قنطار، ومن الشهد اثنين وثلاثين زيرا وقادوسا واحدا، ومن السمن ألفين وتسعمائة وستة وتسعين مطرا وسدس وثمان مطر، ومن الجبن بخيره ثلاثمائة وعشرين رطلا.

وقيل إن رجوع البشموري عما كان فيه من عمل مع الوالي هو أنه بعد ما انتهى من وضع واستخراج الخراج المذكور، وبينما هو يسير ذات يوم من الأيام عائداً إلى داره في محله، وكانت دارا كبيرة عامرة بالخيرات على عادة الموسرين من أهل هذه النواحي، إذ به يتسمع إلى أنين واهن لطفلة صغيرة في

موضع من المواضع بين أعشاب الحلفا الطوال النابتة دوماً في المستنقعات بالأراضى البشمورية، بينما رجل يحادثها حديثاً عنيفاً غليظاً وهى لا تكف عن التثكى والرجاء، فنزل مينا عن دابته واتجه إلى ناحية الصوت، ظناً منه أن الرجل يسعى إلى مفاحشتها وقضاء وطره منها، لكن ما أن وصل إلى موضعهما، حتى هاله ما رأى من أمرهما، إذ كان الرجل - يهبر - ناهشاً بأنيا به لحم الفتاة الصغيرة وهى حية وينهب منه، حتى أنه نهش لحم الذراعين والفخذين والمواطن الطرية منها، بينما الصغيرة تتوجع وتتوسل أن يكف أذيته عنها ويتركها، لكن الرجل ظل سادراً فى نهشها دون أن يتسمع لرجاها واسترحامها، فلما نظر البشمورى ذلك، غلى دمه، وأخذ الغضب، وانقض على الرجل منتزعا الصبية من بين يديه، وهى بين الموت والحياة، ثم إنه نازله لفترة من الوقت، وكان الرجل دون الحالة الانسانية، وقد دخل فى الصفة الوحشية، بسبب شدة الجوع وانعدام الغذاء، فأجهز عليه مينا دون جهد كبير، بسبب ضعف بنية الرجل، وبحلول بركة الله وقوته عليه. ومن وقت ذلك، صغرت الدنيا فى عين مينا، وقد هاله ما رأى من أحوالها، وأدرك أنه مشارك فى الجرم الواقع على مثل هذه الطفلة المسكينة، بسبب عمله فى الخراج، فتركه ولم يعد إليه بعد ذلك أبداً، ثم إنه أخذ الطفلة إلى داره فجلب لها الحكماء لطببوها، وكانت مليحة الوجه، نورانية الروح، فصبر عليها حتى بلغت، وعزم التزوج بها رحمة بها وتيمناً بوجودها، إذ اعتبر من حكاياتها واعتبرها آية قد أظهرها الله له ليكف عما هو فيه من ظلم وجور، ثم إنه بعد أن أظهر الندم على زمنه الأول جمع حوله البشموريين والفلاحين القرارية، بعد ما وزع ما كان يملكه من أراضى وممتلكات عليهم عملاً بقول يوحنا فم الذهب: إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع أملاكك وأعط للفقراء.

وقد قال من حكى حكاية البشمورى لى ونحن مرتحلون من مدينة تنيس العظيمة فى المراكب، بعد ذلك، أنه حضر عرس البشمورى على هذه الصبية، وقد صارت شوهاء، وأن ذلك كان مشهداً مؤثراً لن ينسأ أبداً طيلة حياته.

وخصوصا عندما تحرك الكاهن القائم بالخدمة من الخوروس الأمامى وهو يقود العريس داخل الببيعة، إلى المكان الذى تنتظر فيه العروس، ثم طلب الكاهن من مينا أن يلبس عروسه الدبلة المربوط بها التاج، فلما لم تمد الفتاة يدها كما هو متبع لتدلل على موافقتها، لأن يدها كانت مقطوعة بسبب ما جرى لها، بكى جميع المدعوين تأثرا، خصوصا وأن مينا أزاح الثوب عن قدمها بعد أن انحنى أمامها ووضع يده على الأرض، فلامست الفتاة كفه براحة قدمها، فألبسها الدبلة فى إصبع القدم، وحينذاك قام الكاهن بحنى رأسيهما بحيث تلامستا معا، ثم إن مينا أخذ عروسه إلى مدخل الخوروس وأوقفها عن يمينه كما هو متبع، فقام الكاهن بتغطيتهما بعباءة من الحرير الأبيض رمزا للاتحاد النقى المقدس، وكانت الصلوات تقرأ أثناء ذلك وتشد الألحان وتطلق البخورات.

وقال لى ذلك الرجل: إن العرس أبكى الجميع، حتى أن بعض الشمامسة القائمين بالخدمة بكوا خلال ذلك، خصوصا وقت أن كان الكاهن يباركهما ويمسحهما ببقينة من الزيت المقدس، على جبهتيهما ورسغيهما كما هو متبع، ويبارك أيضا التاجين ويضعهما على رأسيهما، فلما لم يجد الساعد والرسغ عند الفتاة، لم يتمالك نفسه وتهدج صوته ضعيفا، بدلا من أن يصيح بصوت مرتفع وفقا للأصول وهو يقول «بمجد وكرامة توجهما أيها الأب، باركهما أيها الابن، وتوجهما أيها الروح القدس، وحل عليهما وكلمهما. فلم يتمالك الحضور أنفسهم جميعا، حتى أن صوت البكاء قد ارتفع فى بعض المواضع بالببيعة، وجرى نواح كثير، رغم أن المناسبة كانت وقتا للفرح ولم تكن وقتا لموت أو تجنيز.

وقد قال لى ذلك الرجل أيضا: إن مينا بن بقيرة، ظل يحث هؤلاء القرارية، وظل خلفهم، يدفعهم إلى التمرد والعصيان والثورة وعدم دفع الخراج للمتولى، وهو يقول لهم: إنكم لن تخسروا شيئا، فأنتم مقتولون بسبب قلة القوت، فقاتلوا سارقى قوتكم حتى تقتلوهم أو تقتلوا، ثم إنه ظل يقويهم بالكلام، ويحسن فى أعينهم الخروج على الوالى ومحاسب الخراج وكل من يتعامل مع الدولة، ويقول لهم إن ذلك يتم برضا ومباركة السيد المسيح، الذى لم يقبل أبدا ظلما، بل هو لعن

جامعى المال ومحبيه، ولعن كهنة أورشليم بسبب حبهم للدنانير، فانقلبوا عليه . وإن مرقص لم يدعنا لدفع الدمز ويقصد بذلك مرقص البشير، وراح يزين لهم الكلام، حتى وافقوه وتجمعوا حوله، بعد أن يتسوا من حياتهم البائسة، ومن تحسن أحوال معاشهم ومعاش عيالهم، فخرجوا معه يقاتلون، وقد سلحهم بالقسى والحرا، التى قيل إنه كان يجلبها سرا عبر مراكب فى النيل من بلاد النوبة، وكانت المراكب تسير على نحو لا يشتبه فيه، إذ كانت توضع عليها الأسلحة، وتغلى بالجرار والقتل والأزيار وكل الفواخير القناوية المجلوبة من مصر العليا، كما جرت العادة فى جلب الآتية والفواخير منها لمصر السفلى .

ويقال إن القسى والحرا كانت من أفضل الأنواع التى تصنعها قبيلة يقال لها البجة . اشتهرت نساؤها بعمل ذلك، وأنساب هذه القبيلة من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس عليهم ممالك، وهم يعترفون بالرب ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من يعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنة من شجر! وبهيمه! أى أن معظمهم فى الوثنية، ويقال إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال .

وكان البشمورى يسلح جيشه بهذه الحرا المجلوبة من البجة، والتى يطلق عليها اسم الحرا السباعية، مقدار طول الحديد ثلاثة أذرع، والعود أربعة أذرع وبذلك سميت سباعية، والحديدة فى عرض السيف، وكانت هذه الحرا لا تخرج من يد حاملها إلا بصعوبة، لأن فى آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم، وكان البشموريون حاملين لهذه الحرا، عند دخولى عليهم مع ثاونا الشماس، ويقال إن صناع هذه الحرا من النساء يتخذن لها موضعا فى كورة البجة لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن، فاذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلاما قتلته، ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب .

وكانت القسى التى رأيناها مع البشمورى آنذاك أيضا، كبارا غلاظا، صنعت من شجر السدر والشوحت، يرمون عليها بنبل مسموم، يعمل من عروق شجر



الغلف بعد طبخه على النار حتى يصير مثل غراء وقد حكى ثاونا، كثير العلم؛ عن ذلك لما سأله، بعد خروجنا من عند البشمورى.

لا أعرف ما الذى حدا بثاونا إلى السكوت وعدم الرد على كلام البشمورى، ولا أدرى لماذا لم يحثه على ترك القتال وإطاعة كلام أبينا يوساب، والحقيقة أن سكوته هذا جعل شعورا خفيا يساورنى - وليغفر لى الرب - بأن ثاونا قد تأثر بمقالة البشمورى ويوافقه عليها، وكنت أنا قد شعرت وتأثرت بكل ما قال - لكن هذا شيء ومخالفة كلام أبينا شيء آخر، لذلك هممت أن أتكلم لأذكر مينا بما جاء فى رسالة أبينا إليه، لكن ثاونا لكرنى برجله كى أصمت، وكنت جالسا إلى جانبه، فسكت.

فلما وجد البشمورى من ثاونا الصمت والسكوت وعدم الرد، تهادى وراح يعتب على أبينا أنه يسعى لتثبيط همته، بدلا من أن يقويه على حربه وبياركة وينصحه بالكف عن القتال، بدلا من الاستمرار فيه. ثم إنه قال: إن رئيس بيعتنا يخشى على بيعته من المسلمين إذا ما ساندت البشموريين. وإنه لا يعنيه إلا أن يغضب الوالى على البيعة الأرثوذكسية. فيشمل برعايته الكنيسة المكلانية، فلما وصل إلى هذا الحد من الكلام، رأيت ثاونا وقد غضب غضبا شديدا - وكنت أراه لأول مرة منذ ملازمتى له فى البيعة وخلال ترحالنا يغضب إلى هذا الحد - يندفع بالكلام قائلا:

- أنت لا تقر بالحقيقة بل تخشى منها حتى تظل سادرا فى القتال، إن الأراضى الكنسية هى أرضنا جميعا نحن الأقباط، وممتلكات الكنيسة سوف تذهب مع كل ما فى البيع من فرش وأوان إلى الملكانيين الهراطقة وكنائسهم، وجلهم من الأروام الأجانب، إذا ما غضب الوالى وعسكره على كنيستنا وأبائنا التاوضوسيين، وهذا معناه أن تذهب كل ممتلكاتنا وأراضينا التى ورثناها وحرناها منذ أوائل الدهور عن آبائنا وأجدادنا إلى الإغريق والروم، وكل الأغراب من أتباع المذهب الملكانى، ثم ألم تسائل نفسك مرة: من أين جاءت ممتلكات الكنيسة هذه، هه؟ قل لى بريك: أليس كثيرا من هذه الممتلكات والأراضى، كان فى مبتدأ الأمر لكثير من الآباء الأغنياء الذين زهدوا بالدنيا ومتاعها ووهبوا كل ما لديهم من

ثروة وجاء للأديرة والبيع؟ أذكرك بأن الأراضى وعقارات البيع جاءت جلها من الهبات والتبرعات وما ذاك إلا ملكية لنا جميعا نحن الأقباط؟ ثم إن .. سكت ثانويا فجأة، إذ دخل علينا بين أيدي الحراس، رجل وامرأة وأربعة من العيال، وقال الحراس أنهم وجدوا هؤلاء يتسللون إلى الكورة، فظنوا بهم الطنون، فصرىوهم واقتادوهم إلى هنا، وكان الرجل والمرأة وجميع العيال فى حالة مزرية بائسة وقد تسربلوا بعجينة الوحل لكثرة سيرهم حفاة فوقه، وكان الأطفال شبه عراة، ينظرون ذاهلين وقد تمكنت منهم البلادة لشدة الجوع والهزال والتعب. فلما سأل البشمورى الرجل واستفسر منه عن أمره وأمر من معه، طلب الأخير الماء أولا، ثم حكى أن اسمه بخنس وأنه هرب ذات ليلة مع امرأته القادمة معه وعياله من بلدته الأصلية فى الصعيد بسبب انعدام ما يدفعه إلى ملتزم الخراج فى ناحيته الذى يتشدد فى التحصيل والجباية، وأنه ذهب بامرأته وعياله إلى بلدة تسمى كوم أشقاو يلتمس الخلاص، مثلما فعل كثيرون وجدهم فى تلك البلدة، وقد أطلق رجال الوالى على هؤلاء الفارين من أمثاله اسم الجالية، وأنه تناهى إليه أن الوالى كتب إلى صاحب أشقاو يرد كل من كان من الجالية إلى أرضه مرة أخرى، فخرج مع عياله هاربا، وراح يركب الماء تارة صاعدا مع النهر فى مراكب الصيادين خلسة، ومرة أخرى يسير مع عياله فى البرارى حتى وصل إلى مبتدأ الكورة فتسلل إليها وهو لا يعلم شيئا عن الحرب الدائرة فيها بين الأهالى وجيش الوالى، ثم إن الرجل سجد محاولا تقبيل قدمى مينا بن بقرية ليرحمه، فلا يسلمه لمن يعيده مرة أخرى إلى أرضه، وظل يسترحمه ويستعطفه على نحو مؤثر دفع الدموع إلى عينى، فطمأنه مينا ورفع يده لينهض عن الأرض، وطلب من أعوانه أن يأخذوه وأهله ويقدموا لهم ما يؤكل ويشرب ويستر أجسادهم، ثم إنه طلب من الرجل أن يبقى إن شاء وينضم إلى أعوانه المحاربين. ران الصمت بعد أن ذهب الرجل وعياله، قبل أن يقول البشمورى بصوت خفيض: رأيتم؟ هذا يسير من كثير يمر علينا هنا كل يوم، ووالله لو تراجعتم بينى وبين نفسى لحظة عما أنا فيه، فإننى واجد ما يردنى إلى الحقيقة فى اللحظة التالية لذلك، فإنما أنا مثلى كمثل من يده موضوعة فى النار، لا يشعر من الدنيا بشيء غير لسع السعير وأكلانه للحمة، ولو عشتم معنا

هنا أيها الآباء الطيبون يومين فقط، لانقلبتم عما أنتم فيه، وكفرتم بوجود أى حق، أو عدل فى هذه الدنيا، وهذا العالم الصعب.

صلينا واستغفرنا عدد سماعنا ذلك، وكنت أترجم لثاونا بسرعة وبصوت خفيض كل كلمة يقولها البشورى، لذا رد عليه قائلا بحزم:

- اسمع يا مينا، أنا أستطيع أن أحكى لك العديد من القصص مثل ما رأيناه الآن، فما تقوله.. وما رأيناه هو من الحادثات المعتادات فى كل مكان من البلاد الآن، لكن هذا شىء، وما أنت فيه شىء آخر، فحريك ضد الولاة المسلمين لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، وإنهم إن أجلا أو عاجلا لها زموك بعنادهم الأقوى وجيوشهم الأعتى، فالعرب قوم قوتهم الكر والفر، وليسوا بأهل أرض وزرع، وأنت لا يمكن أن تستقل بأرضك وأهلك.. وتكون لك سياسة ورياسة بمعزل عن أولئك القائمين المتحكمين فى مصر والفسطاط، فارجع عن أحلامك وأوهامك ولعلى أرى ما لا ترى لأنى بعيد، وعموما فأنا لم آت إلى هنا لإقناعك ومحاجتك. ولا تفويض لى بالرد على مقالتك، فالرسالة هى رسالة أبينا إليك، وما أنا إلا حاملها لك، ومطلبى هو أن تحملنى رسالة منك، أعود بها إليه فى قصر الشمع، وهذه هى غايتى ومهمتى أولا وأخيرا، أذكرك فى النهاية أن هؤلاء المسلمين هم أقرب إلينا من الروم الملكانيين، فهم وإن كان بعض من ولاتهم قد عسف وتجبر وجار علينا، إلا أنهم فى مبتدأ الأمر لم يبتغوا لنا إلا السلامة والأمان، ورسولهم كريم أوصى بنا خيرا، وفى مبتدأ أمرهم ببلادنا أحسن ولاتهم معاملة الناس، والآن أنت تعلم أن هناك الكثير من القبط المسلمين، والعرب المسلمين، ضد الولاة وظلمهم ولا تنس أننا نحن الذين جلبناهم فى سالف الزمن ورحبنا بهم لنتقوى بهم ضد الروم، وارتضينا حكمهم بدلا لحكم هؤلاء الأجانب؟ أتريد يا مينا أن تقع البلاد فى أيدي الروم مرة أخرى؟ فكر فى الأمر واتق الله فنحن فى زمان صعب، كل شىء فيه يتحول ويتغير ويتبدل، والحصيف هو من ينظر إلى الأفق البعيد، ويترك النظر إلى ما تحت رجليه. وثورتك هذه قد تقود البلاد إلى طريق لا عودة منه لأنها إن وقعت مرة أخرى فى أيدي الملكانيين، فلن تقوم لكنيستنا قائمة بعد ذلك، ولسوف

تضيق ممتلكاتنا وثرواتنا إلى الأبد، ولعلك تعلم أن الآباء الطيبين يسعون بكل وسيلة للحفاظ على الكنيسة، ولقد عربوا الصلاة حفظاً للديانة، وسلامة للطقس اللاهوتي، وقد وجدوا أن أكثر الشعب لن يفهم الديانة ولا الصلاة القبطية، بعد تحول أكثره إلى لسان العربية يوماً بعد يوم، وأنا أقول لك: لو قضى على انتقاصتك فدماء هؤلاء الفلاحين سوف تكون في رقبتك، لأن بطش العسكر لن يكون يسيراً، وأنت أدري بمعنى المثل القائل: إن وقع العجل كثرت سكاكينه، فلن يرحمك أحد، وكما تدين تدان، والناس يا عزيزي- وهذا أمر لله فيه حكمة- مع الغالب ضد المغلوب دائماً، وأنا أقول لك ذلك حرصاً عليك وعلى هؤلاء الذين حولك، وقد توسمت فيك صدق العقيدة، وطباع القديسين، فأنت تعيش عيشة خشنة مثل هؤلاء القرارية لا تبغى جاهاً ولا تروم مجداً، ولكن فكر في الأمر، وزنه بميزان العقل والحكمة، ولا تكن كمن ينطبق عليه القول: خيراً تفعل، شراً تلقى. وهذه مقالتى لك، من عند أخ لا يبغى لك غير الخير، ولا يرتجى لقومك إلا الأمان والسلام.

حقوق البشورى فى ملايسنا الكهنوتية مليا، وكأنه يفكر فى أمر من الأمور، ثم قال بصوت بحه الانفعال، دون أن يطرق له جفن:

- ما سمعته ورأيتـه الآن عندنا أيها الأب المحترم هو رسالتى إلى أبينا المعظم فى قصر الشمع، وزد عليه ما تراه عندنا، فنحن قوم دفعنا لأن يأكل بعضنا بعضاً، ورحم من قال: الفقير يولد الكفر. ووالله لن يستمر ذلك حتى أبد الأبدىين فإننا قد عزمنا على أن نأكل بحرابنا وقسينا من أكلوا قوتنا، وأباعونا أولادنا وعيالنا، ولسوف نكون نارا تشوى أجسادهم، أو نكون مأكلة لسيوفهم وخناجرهم، وليكن لحمنا خراجهم ورءوسنا المقطوفة جزيتهم.

ما أريد أن توضحه لأبينا فى قصر الشمع أن الأذى الذى جرى لرسله السابقين إلينا قد تم دون علم منى، فالذين ضربوا أو سرقوا أو أخذوا معهم، جرى لهم ذلك من قبل بعض أتباعى الدهماء بسبب سوء مسلكتهم وترفعهم واستكبارهم على هؤلاء الرجال، والذى قتل، جرى له ذلك لأنه سب الجميع هنا بمن فيهم أنا،

واتهمنا بالكفر والمروق، فلم يتمالك أحد الرجال نفسه فقتله. ورغم ذلك فقد عاقبت جميع من تعرض لأولئك الرسل ورميت القاتل بنفسى حتى يكون عبرة لمن لا يعتبر، أقول ذلك وأنا غاية فى الأسف والحزن، لأننا لسنا قطاع طريق، ولا لصوصا مجرمين، لكننا قوم اضطررنا لما نحن فيه، والله وحده أعلم كم أكره الحرب، وكم أمقت السلاح فأنا رجل لم أشتغل بمثل هذا أبدا طوال عمري، ولم أكن أتصور أن الأيام سوف تدفعنى لما أنا مدفوع إليه.

انصرف الآن أيها الشمساس المحترم إن أردت، وإذا رغبت أن تكون بيننا حتى صباح الغد، فأهلا بك فى ديارنا، والأفضل ألا تذهب وقد أوشك الليل على الحلول، فتعرض لأى شر فى الطريق.

توجست خوفا من أن يوافق ثاونا على المبيت فيحدث ما لا تحمد عقباه، لكن ثاونا رفض البقاء، متذعرا بضرورة عودتنا سريعا إلى مصر العتيقة، وأنه لا يرغب فى التلكؤ ليوافى أبانا يوساب بالجواب ويرسيه على حقيقة ما يدور هنا.

هب البشمورى واقفا عندما وقفنا، ومد يده بالتحية لنا، ثم قال:

- إذن... أنتما سوف تمضيان الآن.. كما تشاءان. فلترافقكما السلامة. ثم أمر أتباعه أن يوصلونا إلى أبعد نقطة ممكنة بالنسبة لهم خارج حدود البلدة ولاحظت أثناء ذلك، أنه اكتفى بالشد على أيدينا، دون أن يقبلها مثلما يفعل المؤمنون عادة مع أهل البيع والكهنوت.



كان الوقت قد أوشك على الغروب، حينما بدأنا الخروج من أراضي البشمورى، وكانت الأرض قد زادت وخلتها بسبب زيادة مياه النيل المفاجئة، فلم نكد نسير قليلا، مبتعدين عن الشونة الواسعة التى التقينا فيها البشمورى، وندخل فى طرقات القرية، لنعبر طريقها الرئيسية ونخرج منها فى اتجاه خط النيل إلا وكان رجال ونساء وأطفال قد خرجوا من دورهم وتجمعوا حولنا لمشاهدتنا، بعد أن شاع خبر وجودنا بالمحلة. نظرت إلى الجميع فداخلنى شعور بأنهم يحدقون فىنا، وكأننا بدعة من البدع، أو أعجوبة من الأعاجيب لم تصادفهم خلال حياتهم من قبل، وكان الأطفال والصبايا يسرون ركائبنا، وقد راحت تتحرك بصعوبة وببطء على زلافة الأرض المتزايدة، مما دفع الأطفال لانتهاز المناسبة، فأخذوا يتحسسون أديتنا الكهنونية، وينظرون بدهشة إلى أخفافنا كما لو كانوا لم يروا أخفافا من قبل، أو كأنها من الثمينات المفترحات النكات، وكان بعض الصغار عراة تماما ليس عليهم ما يستترهم، والبعض الآخر تستترهم أسمال بالكاد، أما النساء فقد بدون- رغم دلائل الضنك عليهن- صبوحات ذوات وجوه حسنة، وقد لفت ثاونا نظرى ونحن نسير ونتحدث إلى أن الصبايا هنا يمكن أن يصادفن مصائب كبيرة إذا ما انهزم البشمورى أمام عسكر الوالى بسبب حسنهن، الذى لم يغيب رغم هزالهن الشديد وملابسهن المهترئة. وقد ظل ثاونا يعطى من زادنا للأطفال حتى نفد كل ما كان معنا من خبز ومنين وسمن وعسل، وكانت النساء يخطفنهن منهم لفرط جوعهن وحاجتهن إلى القوت، وبينما كنت أقدم لصبية من الصبايا ما تبقى معى من عسل فى خابية صغيرة. إذ بها تنظرنى طويلا وقد طفح من عينيها شعور الشكر والامتنان، فلم أتمالك نفسى من النظر إليها كذلك وكانت مليحة، ناهدة، ناعمة، حسنة القوام، وقد تعرى جسدها واستبان فى أكثره،

بسبب قلة ما يستره، فاضطربت نفسى كثيرا، وقد تداخلت مشاعرى بين الشهوة والشفقة، وقد راعنى حالى وانتعاش الرغبة فى بدنى، ومباغتتها لروحى ونفسى، ويبدو أن ثاونا كان قد لحظنى وقد اضطربت. فرحت أحث الركوبة على الإسراع دونما ضرورة، وأظن أن شفتيه رسمتا ابتسامة، وهو يقول:

- يا الله أيها الأخ العزيز بدير. صدق السيد إذ قال: العين سراج الجسد. تمهل يا أخى فى المعمودية، والجم جسدك بتلاوة الآيات وذكر الحق، واحفظ دوما ما قاله اللسان العطر بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله».

هتفت أرد عليه وأنا أزدرد ريقى بصعوبة، وقد شعرت بسخونة تسرى فى كل جسدى وينار تستعر لتحرق لروحى:

- فليرحمنى الرب أيها العزيز ثاونا، فليرحمنى الرب وليغفر لى إثمى الذى داهمنى رغما عنى، وليذهب شيطان الجسد إلى الجحيم.

لم أشعر إلا والدموع تنحدر من عينى، فرحت أمسحها بكم رداى، وقد تدافعت ذكرياتى مع آمونة تطوف بمخيلتى، وقد جاشت ذكراها بداخلى جيشان ماء تفجر من باطن نبع عميق، فرحت أتذكر أوقات سعادتى الدنيوية معها، وما كان من شقائى وتعاستى بعد فراقها، ثم إنى أخذت استغفر الرب كثيرا وأقرأ آيات التوبة والندم، محاولا طرد صورة الفتاة التى رأيتها من مخيلتى فتغيب صورتها برهة، لكن شيطان الجسد ظل يراوغنى ويلاعبنى، فكانت صورتها تتجسد من جديد فى ذهنى على نحو كبير من القوة والوضوح، وأنا أحاول جاهدا أن أهدي نفسى، وأستعيد ثباتها ويقينها الضائع ميمما البلغ بعيدا عن الفتاة التى سرعان ما لحقتنى، وبحركة مباغتة، مدت يدها وتحسست صليبي المدلى فى حبله الطويل على صدرى، وكنت قد وضعت من سيور جلد البقر الجيد، فلم أنمالك نفسى- ولم يكن قد تبقى معى شئ لأعطيه لها- فخلعته دون أن أشعر ووضعت فى عنقها،



وأنا أتجنب النظر إلى لحمها المستبين، فأمسكت كفى بكفى فيها وضعتها إلى صدرها قويا، ثم انحنت عليها ولثمتها، وعندئذ خفت ألا أقوى على لجم مشاعري فسحبت يدي متسرا، ورحت أدفع اليلغ دفعا حتى كأنني رغبت أن يطير بي طيرانا، ولم أتوقف إلا عندما صرخ ثاونا فى: أبطئ. أنسيت أن الأرض زلقة موحلة ومن الخطر العجلة والإسراع عليها.

كان البشامرة الحراس، الذين ظلوا برفقتنا حتى أواخر البلدة، يويخون الناس ويعنفونهم، حتى لا يقتتلوا على ما أخذوه منا من طعام، وقد أخبرنا بعض هؤلاء الحراس، ونحن نسير، أن العسكر التابعين للوالى قد نهبوا كل شىء فى الكورة أثناء إغاراتهم المتتالية عليها، وأنه لم تعد هناك بيعة واحدة بين مدينتى دمياط ورشيد، على امتداد بلدان الساحل البشمورى، إلا ونهب كل ما فيها من فرش ومهم، حتى صنوج الخورس، وأوانى الهيكل، وأن أحدا لم يذهب إلى الصلاة الجامعة. وأن المقابر خربت ونهبت، إن لم يكن بفعل العسكر، فيفعل اللصوص والعيارين وأولئك الباحثين عن أى شىء يأكلونه أو يلبسونه، وقد قال واحد ممن خرجوا لحراستنا، أنه بالقرب من سمندو مقبرة ليهود نهبت فكان أعجب ما وجد فيها موتى جرى تصبيرهم ولفهم باللفائف، كما جرت العادة فى الأزمان الغابرة، مثلما يوجد بين الحين والحين فى البرابى الوثنية المتبقية من الزمن العتيق.

وقالوا لنا كذلك إن عقود الزواج ظلت تتم داخل ما تبقى من البيوت وأحيانا فى الطرقات، وأن القسس ندر وجودهم لعمل ذلك، لأن معظمهم تركوا هذه البلاد وغادروها إلى برية هبيب وأديرة النطرون، بعد أن يئسوا وخربت بيعهم، ولم يجدوا من ينفق عليها، أما الميرون المقدس اللازم للتعديد، فقد انعدم فى هذه النواحي تماما وعز وجوده، ولم يعد يوجد ما يعمد به، وقد حدث أن بعض الناس جلبوا قسيسا بالقوة إلى بلدة مجاورة، وحملوه إليها مقيدا بالسلاسل، فاستبشر الناس خيرا بذلك، لكنه امتنع عن التعديد والطقس بسبب انعدام الميرون، فعجبنا أنا وثاونا لذلك أشد العجب، وقد قيل لنا كذلك إن أكثر المكاتب قد خربت ولم يعد الصغار يذهبون للدرس وبات أكثرهم لا يعرفون قراءة أو كتابة الحرف، كما أن الصناع وأهل الحرف قد ضجوا بالحياة هنا، فهاجر من هاجر منهم للاشتغال

بالبلاد الأخرى، ويقال إن جماعة منهم عدت البحر إلى جزيرة قبرس عن طريق اللسان الموصل إليها من مدينة الفرما والعريش.

وقال رجل: إن أقباطا كثيرين قد أسلموا بعد أن ضاقت بهم السبل وعدموا الحيلة، واستصعبوا الحياة مع مينا بن بقيقة، لكن هناك من المسلمين من انضم إليه ثائرا منتفضا، وإن ظل على دين الإسلام، والبشمورى لا يحول بينهم وبين ما ارتضوه من ديانة، وفي كل يوم يتسلل قوم من هنا إلى مواضع عسكر الوالى ويلتحق قوم من الغرب المسلمين بالبشمورى والأمر غاية فى القلب والتغير والاختلاف بين الحين والحين.

فلما سمعنا ذلك تأثرنا كثيرا حتى أن ثاونا تندت عيناه بدموع واضحة، وقال إنه يشعر بالأسف والحسرة، لأنه لم يجلب معه طعاما ولا لباسا لهؤلاء المساكين، وأنه لم يأت بمراهم وعقاقير ليعطيها لأولئك النسوة والأطفال، وقد لاحظ عليهم كثرة الأمراض الواضحة على أجسادهم التى ملأتها التفحيدات والبثور، وتبدت الانتفاخات فى أعضائهم وبطنهم خاصة مما يعنى انتشار علة الخلوروز بين الناس وهى العلة الناتجة عن عظم فقر الدم، وذلك لشدة، افتقاد الغذاء وانعدامه، وقال: إن هذه العلة على الرغم من خطرها إذ ما استدامت طويلا، يسهل الشفاء منها إذا ما خلط تين بنسبة ٣٢/١ إلى ملح بحر بنسبة ٨/١ إلى خبز صابح بنسبة ٨/١ إلى فقاع حلو بنسبة ٣/١، ثم يطبخ جميعه ويصفى ويؤخذ فى يوم واحد، وأن هذه وصفة قديمة جدا متوارثة منذ أجيال بعيدة، وأنه لو علم بوجود هذه العلة بكثرة هنا، لكان قد أعد من دوائها الشىء الكثير بنفسه وأحضره معه ليوزعه على الناس.

وقال لى ثاونا: إن هناك علا تشفى بالقرايات الربانية عليها، وعلا تشفى بالتطبيب والعقاقير، وإن أكثر عل البطن الناتجة عن الجوع تشفى بالعقاقير المعوضة للأكل الجيد، ولما كان هؤلاء القرارية يأكلون أكلا ضعيفا رديا منذ زمن طویل، فقد أصيبوا بالهزال واصفرار الوجه وانتفاخات الأمعاء مما يمكن التغلب عليه.

أما ما يكثر هنا من بعوض وأهوام بسبب كثرة المياه الراكدة وانتشار السبخات فهو الطامة الكبرى، لأنه الجالب للحميات وأمراض الدم التي تروح وتجىء كلما زاد وكثر اللدغ، وهنا تذكرت ما كان ذات مرة، زمن طفولتي البعيدة حين مات فى قريتي خلق كثير بسبب الوباء، والذي قيل وقتها إن سببه ذبابة شيطانية وفدت إلى البلدة من البرارى، وراحت تعمل المرض فى الناس، حتى اكتشف أمرها، بعد أن أفنت عيلا بأكملها، فلما ذكرت لناونا ذلك، قال:

- إن الوباء يحل على الكور والبلاد، ويفنى أكثر الناس، عندما تنزل عليهم لعنة من لعنات الرب بسبب جراير اقترفوها، فيسلط عليهم الزلازل أو الصواعق، أو السيول المهلكة حيناً، كما أنه يسلط عليهم الهائمات كالبعوض وخلافه، بعد أن تحل بها الأرواح الشريرة، فتهجم على الجسوم، وتحدث الأمراض والأوجاع وتوهن العظام وتشرب الدم وتحدث النهوكة فى أجسادهم ويعقب ذلك الموت. لذلك فعلى الحكماء المطيبين، أن يبحثوا فى سبب اللعنة، حتى يرفعهو كما أن عليهم تبليان حقيقة الأرواح الشريرة الحالة فى الهائمات، ويكون ذلك بكثرة التعزيم والقرابات الريانية، ثم عليهم معالجة الناس بالنباتات والمعادن ووصف الجواهر التي تناسب أمراض الوباء.

ظللنا سائرين نتحدث، والناس يتبعوننا ماشين خلفنا وحولنا من كل جانب كى نباركهم حتى أوشكنا على الخروج إلى البرارى، وهم وراءنا فى الطرقات الضيقة، فلما بلغنا الطريق الذى كنا قد جئنا منه، توقفوا وتركونا نسير منفردين بعد أن ودعونا وداعا حميماً مؤثراً.

سرنا والمشاهد التي رأيتها فى محلة البشمورى لا تفارق خيالى، الأطفال الهزيلون فى أسماهم، النساء الجائعات وهن يتخاطفن الطعام، البيوت المهدمة، رجال البشمورى القرارية فى ملابسهم الغربية، وأسلحتهم التي كأسلحة للصوص والحرافيش، كانت مشاعرى تتردد وتنقلب من لحظة لأخرى، بين العطف على أولئك الناس ويؤسهم المريع وبين الكره لعصيانهم وتمردهم وعدم امتثالهم لكلام أبينا يوساب، وكان الحنين يأخذنى أخذاً، ويخطف قلبى خطفاً وأنا أخرج من هذه

المواضع، وأخذت أسأل نفسي: ترى.. هل لو بقيت هنا فى مسقط رأسى، وأماكن أهلى، وسارت حياتى فى مجراها المفترض، ولم يدفع بها القدر إلى ما أنا فيه الآن، هل كنت سأكون واحدا من هؤلاء؟ هل كنت سأصير واحدا من أتباع البشمورى، أأتمر بأمره بينما أرتدى ملئرا وأعتمر خوذة من الخوص وأتسلح بحرية من الحراب؟ كنت أشعر أننى ضائع، حزين، وكأن كبدى قد انتزع منى انتزاعا فأسألتى لإجابة لها، لكن ما تيقنت منه وأنا على هذه الحال، هو أن للأوطان ملمسا وروائح وصورا مجسمة، محسوسة لا يمكن أن تغيب عن الحواس والنفس، مهما تباعد الوقت وطال الزمن. يبدو أن ثاونا لاحظ كدرى وسكويتى الطويل، فقال:

- إذن. ها نحن نعود مرة أخرى من حيث جئنا، لينطبق علينا قول من قال: «يتنى نيتى، زى مارحتى زى ما جيتى»؟. إن أبانا الذى ينتظرنا فى قصر الشمع سوف يتأكد لعودتنا، دون البشمورى بل حتى دون وعد منه بالكف عن القتال، لأنه سيبدو أمام متولى البلاد، وكأنه لا كلمة له على أتباع بيعته، ولا سلطان لأمره عليهم، ثم إن الملكانيين سيعملونها جنازة، وهات يا لطم، بينما يلعبون فى أذن المتولى ويزينون له كلاما شيطانيا بأن الأب يوساب، لا يرغب فى إخماد فتنة البشامرة، وأنه متواطئ معهم، ويرغب فى إحداث القلاقل بالبلاد، وكثير من مثل هذه الأكاذيب التى طالما يروجون لها عنده، أملا فى أن يكون لهم ما لبيعتنا، من هيمنة ونفوذ على الشعب، وطمعا فى الاستيلاء على كنائسنا وأديرتنا وما للبيعة من ممتلكات.

على أية حال، ها أنت رأيت مسقط رأسك وبلدتك مرة أخرى، ودون حدوث مالا يرغب فيه، أأست مسرورا بذلك بالله؟

همهمت بسرعة، بينما كنت ما أزال منشغلا بما قاله لى فى التو:

- أجل أجل، والحمد للرب الإله لأن أحدا من معارفى لم يرنى أو يتعرف على.

تابع ثاونا وهو يتبع سيرى بدقة ويحترس كثيرا كيلا يمشى بالدابة على موضع غائص:

- لكننى أخشى يا بدير أن ذلك البشمورى سوف ينتهى نهاية بائسة مؤسفة، ولعلنى أخبرتك بما يتردد سرا فى البيعة قبل خروجنا إلى هنا، من أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لحسم الأمر، إذا لم يسكت هؤلاء البشامرة ويكفون عن قتال عسكر المتولى، ويرضخون لدفع الخراج المطلوب منهم، لقد أثرت ألا أخبر ميئا بذلك، حتى لا يثور ويتمرد، ويظن أننى جئت حاملا إليه تهديدا من أبينا، يوساب، فيسلك معنا مسلكا خشنا قاسيا قد لا تحمد نتائجها، لكننى لا أكتمك سرا، أننى كدت أضعف، فى لحظة من اللحظات، خصوصا كلما زاد تشدده - وبت على وشك أن أهتف صائحا: أتدرى أيها الأحقق أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لإنهاء هذا الأمر، إذا لم ترتدع وتعود عما أنت فيه؟ أو تعلم معنى ذلك؟ إنه سيكون المحق والسحق ولا شىء، غير ذلك؟ لسوف تكون الجانى، على قومك ونفسك، لأن الرجل لن يرحمهم أو يرحمك، وهو الذى يحارب بعسكره، جيش بيزنطة ولن يكون قتالك بالنسبة له إلا كاللعب والبرجسة فى ساحة من ساحات البرجاس.

قلت بسرعة:

- لا.. لا.. حمدا لله أنك لم نقل له ذلك، لأنه وكما رأيت ليس من النوع الذى لا يأخذ بالنصيحة ويرعوى، ثم إن الأب يوساب لم يطلب منك أن تحدثه فى هذا الأمر، لكن ما يحيرنى يا أخى هو انضمام بعض هؤلاء العرب المسلمين للبشمورى، فكيف يكون ذلك بربك؟

صمت ثاونا قليلا، ثم قال:

- إن المسلمين شيع وفرق مثلما نحن فى المسيحية يعاقبة ومكائنية، وهناك اختلافات ومساائل تتعلق بصحة الديانة بين هذه الفرق. أتذكر عندما كنت تغتسل بالحمام، وأنا أنتظرك خارجه؟ لقد جاءنى أثناء ذلك رجل وهو يلتفت يمينا ويسارا، فلما اطمأن إلى خلو المكان، أعطانى رقعة وهو يرجونى أن أقرأها،

ومضى بسرعة فلما دخلت لأغتسل بعدك، قرأتها، فوجدته يطلب منى أن أصل إلى أهله وعياله القاطنين عند جبل يشكر المشرف على النيل، وعلى بركة الفيل، لأنه التحق بالبشمورى سرا، بعد أن هرب من ملاحقة والى له ولجماعته التى يقال لها القرامطة، وأن الخليفة نفسه يشدد عليهم ليس فى العراق فقط، ولكن فى جميع أمصار خلافته، وأن كثيرا من رفاقه قد صيروا فى الحبوس وعذبوا بسبب خروجهم على الخليفة الذى جعل المشايخ وأهل الدين يرمونهم بالكفر والزندقة، وكان رجاؤه هو أن أطمئن أهله عليه، وأقدم لهم ما أستطيع إليه سبيلا بسبب انعدام من يعولهم وينفق عليهم.

وقد سمعت عن جماعة أخرى من المسلمين يقال لها العلويون، وهم ممن شقوا عصا الطاعة على الخليفة أيضا، وها أنت رأيت بعينيك ما يقع فى الحوف الشرقى. إن الصراعات لا تنتهى هنا وهناك، والدنيا كلها فى فوضى واضطراب، وكل ذلك يبلبلنى كثيرا يا بدير، وأشعر أن قلاقل الدنيا حولى، تهز داخلى، فأنا رغم إيمانى وصدق معتقدى- لا أكتمك أنى خائف، خائف جدا، وكأننى ملاح ضائع فى بحر الظلمات الرهيب، وأنا أخشى على مصير كنيسةنا ولا أعرف ما سوف يكون عليه إذا ما قدر وانتصر البشمورى، وأخاف على هؤلاء المساكين إذا تمت هزيمتهم، ولا أعرف ماذا سيكون عليه الحكم فى البلاد، ولأى فريق من المسلمين سوف تكون الغلبة، وكل ما أتمناه يا بدير هو ألا تقع بلادنا أبدا ومهما حدث، مرة أخرى، تحت سيطرة الأبعاد من الروم الملكانيين.

لم يكد ثاونا ينتهى من كلامه، إلا وكان الأفق أمامنا قد ارتسم بشريط قائم من السواد الممتد إلى ما لا نهاية، وكأنه خط من المداد قطع زرقة المدى السماوى المفتوح فوقنا عن خضرة الأرض المترامية على مرمى البصر، وكان قرص الشمس قد توهج بنار حمراء وهو يغيب شيئا فشيئا معلنا نزعه الأخير، مفسحا السماء لظلمة تتقدم حثيثا، والشريط الأسود يتدفق باتجاهنا شيئا فشيئا، وقد وقفنا متسمرين فى موضعنا ونحن مبهوتين مأخوذتان، وسرعان ما راح ثاونا يحتنى على الفرار، وقد ملك أمره مرة أخرى، وهو يقول:

- لابد أنهم فرسان الخليفة لابسو السواد، تزلج واهرب قبل أن يدركونا ويدهسوننا بسنابك خيلهم.

فما أن تحركت وفعلت، إلا وكانوا قد بلغوا الموضع الذى كنا فيه وأخذوا يتقدمون شيئا فشيئا فى يسر، ودون معاناة، فلقد كان معهم من يدلهم على المواضع الحسنة للسير من الأدلاء القبط، وقد توضحوا واناوا بسبب أرديتهم عسالية اللون.

كنت قد اختبأت فى موضع ليس ببعيد بين أعشاب الحلفا الطوال والبوص وقد قفزت بسرعة من فوق البغل وتركته، ولم أنتبه لما فعل ثاونا، لشدة ارتباكى وخوفى، وقد بوغت فأنا لم أحسب لما حدث لنا حسابا من قبل.

وقد كاد قلبى يتوقف من الخوف.. لما رأيت أحدهم يسحب البغلين ويتردد قليلا فى المسير وكأنه يرغب فى التفتيش عن صاحبيهما، لكن من كان خلفه حثه على الحركة والمسير وعدم التلكؤ حتى لا يعوق من ورائه، ثم إننى أخذت أزحف زحفا يسيرا باحتراس حتى أخفى نفسى جيدا بين الحشائش محاولا التدنثر بها والاختباء فيما بينها حتى لا يلحظنى أحد من العابرين، ثم أخذت أنادى ثاونا بصوت خفيض محاولا استبيان مكانه وقد هبطت الظلمة شيئا وغشت المكان، كنت أثناء ذلك متخوفا جدا، أدعو الله ألا تلدغنى حية، كذلك التى لدغت ثاونا، أو تخرج على دابة من دواب البرية المفترسة فتتهير لحمى أو تحدث بى مكروها، ولم يمض على اختبائى إلا وقت يسير، حتى كان العسكر قد انقطع مقدمهم وورودهم، إذ كان أواخرهم قد بقوا فى موضعهم على مقربة منى فى الطريق الضيقة عرفت ذلك رغم الظلمة بسبب سهيل الأفراس وتحمحمها المثير، ويبدو أنها أخذت تجفل كثيرا بسبب غرابة المكان بالنسبة لها وكثرة مواضع الماء فيه، وخمنت أن العسكر هؤلاء ربما كانوا على الأرجح قد حوطوا وحاصروا الطريق والطرق المؤدية للمحلة، وقد صدق حدسى، إذ سرعان ما أشعلت المشاعل، وأخذت تلقى باتجاه المحلة، وسرعان ما جاء الرد من ناحية عسكر البشمورى، إذ أخذوا يرمون بدورهم النيران باتجاه عسكر الخليفة، فأخذت أزحف مجددا ملتصقا النجاة لنفسى،

لكنى خشيت أن تسحبني المياه الموحلة الى بعض مواضعها الخطرة، فرحت أربط نفسي بالأعشاب اللينة الطوال الراسخة المستقرة دون أن أقطعها، وكنت قد تعثرت كثيرا خلال ذلك وتوسخ ثوبى وأكثر جسدى، حتى أن وجهى لحقه الطين وقذاه، واستمر القتال دائرا، وأنا أدعو الله ألا يصيبنى مكروه، وقد أخذ البشامرة يرمون فى اتجاه جند الخليفة الأحجار وقطع الطوب وما جهزوه من مقذوفات للمقاليع، أما عساكر المسلمين فكان أكثر رميهم بالحرايب والسهام وإن ركزوا على كرات النار الملتهبة، وكأنهم يبعون حرق المحلة كلها، قبل الدخول إليها.

أخذت أصلب كثيرا وقد أخذنى اليأس وهذى التعب ورحت أقرأ القرابات ليعيننى الرب على ما أنا فيه، وفككت نطاقى الكهنوتى وربطت نفسى أكثر بالحشائش إذ شعرت أننى على وشك النعاس وبقيت قليلا على هذه الحالة، حتى غبت عن الوعى تماما.

أفقت عند الصباح على تغريد طير حاطط على مقربة منى، فلما فتحت عيني ونظرتة وجدت بشروشا ضخما ينش بحثا عن سمكة من الأسماك التى تصل ساحة من المالح إلى هذه المواضع، وربما كانت من البنى أو اللبىس أو الرأى أو الشلبة، استبشرت خيرا حين رأيته واعتبرته فألا حسنا أستقبل به هذا اليوم الجديد، خصوصا وقد أخذ يغرد ساردا ترانيله الصباحية للرب، فقامت أنظر نفسى، فإذا بصعوبة تعترينى، كلما حاولت تحريك طرف من أطرافى، فتحاملت على نفسى بصعوبة وقد صممت أن أنهض مهما كانت آلامى، لأبحث عن ثاونا العزيز، وأقف على ما كان من أمره واكتشفت أن ملابسى قد توسخت وتبللت بطين الأرض الأخضر الذى كنت راقدا فوقه، فدرت بعينى باحثا عن موضع ماء جار، أذهب إليه فأظهر لباسى الكهنوتى فيه إلا أن عيني لم تر غير مدى ممتد من الأخضر، بسملت وصلبت، وقلت لروحي: فلأسر قليلا حتى أجد موضعا هنا أو هناك.

سرت أجز ساقى بصعوبة، كأننى وليد يخطو خطواته الأولى، وكنت حريصا على تمييز الماء من الأرض لئلا تزل قدمى فى زلاقة تسحبني إلى



داخلها فأغرق، ثم إننى وصلت أخيراً إلى قناة ضيقة بها ماء جار، فوقفت على أطرافها وخلصت رداى الكهنوتى وبقيت حاسر الذراعين لا أرتدى سوى الصديرية الفلاحى واللباس اللذين حافظت على لبسهما تحت الرداء، رحت أغمر الثوب فى الماء أبسمل وأصلب وأقرأ قرايات الطهارة، ثم إننى عصرتة، ونفضته حتى أزيل ما به من ماء قدر استطاعتى، وسطحته فوق الحشائش، على أمل أن ألبث ساعة فى مطرحى حتى تجففه الشمس فأرتديه، وبينما أنا أفعل ذلك أخذت أفكر فى كيفية عودتى مرة أخرى إلى مصر العتيقة فى ظل هذه الظروف الصعبة، وكنت أرغب فى معرفة ما تم من أمر البشامرة مع عسكر الخليفة ليلة أمس، لذا قلت لروحي: إننى سأعود بمجرد أن أرتدى ثوبى مرة أخرى قافلاً إلى محلة البشمورى حتى أستجلى الأمر، ولعلى أجد ثاونا الذى ربما كان تسحب أثناء الليل وقت العركة إلى هناك ليحتمى، بجماعة البشمورى، إن لم يكن قد استطاع الفرار عائداً إلى ببعتنا فى مصر العتيقة.

فجأة، تذكرت أن ثاونا قد جاءنى فى المنام أثناء غفوتى بالليل، رحت أستعيد المنام فى مخيلتى، كان ثاونا يرتدى أسمال وخرق المساكين ويتوكأ على نقف من الجميز على النحو الذى يفعله أولئك الهائمون فى البرارى، وكان يعتلى تلة عالية وهو يشير نحوى بيده، ويقول: اتبعنى يا بدير العزيز إلى برية هبيب، وبدا لى وهو يقول ذلك مبتسماً راضياً نورانى الوجه وكأنه قديس من القديسين، فالتفت حولى، أفتش عن موضع أسير فيه لأصل إليه، فإذا أنا محاط بوحوش كواسر من كل ناحية، تمنعنى من النفاذ والتقدم إليه، فرفعت يدى وصرخت بعزم ما فى: ثاونا.. ثاونا يا عزيز العلم والمعرفة، هب لنجدتى، فإنى غير مستطيع، وبقيت أناديه، لكنه كان يبتعد عني شيئاً فشيئاً، حتى اختفى تماماً، فأخذت أنوح وأندب حظى العائثر وأصلب وكان ثاونا وهو أخذ فى الغياب يباركنى بيده المرفوعة، وأنا أمد يدى إليه آملاً فى الخلاص.

انقبضت روحي وقد تذكرت ذلك المنام، وأخذتني الطيرة، إذ صاح البشروش فجأة وطار، فنظرت السماء فوقى، فإذا بنسر رهيب من نسور الغلاة

يحوم فوق البقعة التى جلست فيها انتظر جفاف ثوبى، ولم تكن النسور من الطيور المعتادة فى هذه النواحي البشمورية حسب علمى ودرائتى بها، إذ أن أغلب طيورها تكون من ذلك النوع المهاجر القادم من جهة البحر الرومى كالسمان والطورية والذهبية، والقالق، بالإضافة إلى طائر أبيض المشهور بالديار كلها.

لبثت وقتاً أفكر حائراً، وقد جف حلقى لكثرة انفعالى وتوجسى، وقلت لروحى: ربما أراد النسر اقتناص طير قد حط، أو دابة خرجت تسعى من دواب الأرض المحوشة فى هذه البقعة، رحت أصلى مشجعاً نفسى على الاصطبار، وقد أخذ عطشى فى التزايد، ولم أرض أن أحفن بيدي شيئاً من مياه المجرى خوفاً من أن يكون به شيء من علق الحشا ينفذ إلى جوفى، بسبب أن بعض البرابرة من ساكنى البرارى كانوا قد حذرونى من مياه السبخات وجداولها الصغيرة حتى وإن بدت جارية، وكانوا قد أتوا إلى البيعة وفاء لنذر نذروه لأمر من الأمور، فقالوا إن بنواحيهم نوعاً من العليق يدخل إلى الحنك مع الماء المشروب، لينفذ إلى مواضع البلع ويلتصق بها، ويظل ثاويها بها، يقات على دم الجسد، حتى يفنى صاحبه ويتلف تماماً.

هبط النسر المحلق فجأة وخطف لباسى الكهنوتى فى لمح البصر وارتفع عانداً إلى السماء، لم أتمالك نفسى، فحاولت الجرى خلفه واللاحق به، لكنى لم أتمكن من المضى فى ذلك بسبب ضعف ساقى وجسدى ولخوفى من الانزلاق، شعرت بحرق وغيظ عظيمين وأنا أرى النسر يبتعد بثوبى، وقد بهت من مسلكه، فماذا يفعل ذلك الطائر بمثل هذا الثوب، دعوت عليه وتذكرت قول القائل:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

بقيت فى مكانى مذهولاً ساكناً لفترة، أنظر نفسى وأنا على هذه الحال بلباسى أبو دكة وصديريتى الكتان، وتحتيرت كثيراً فيما أنا فاعل، وقد شعرت أننى صرت كالعريان حقاً، وقلت لأنھض وأسير قليلاً، فربما يكون النسر قد ألقي بالثوب على أرض قريبة، فالتقطه وأضعه فوقى لأستر نفسى، حتى لو كان قد

توحد بكامله فى الطين وربما وجدت أناسا طيبين، أسألهم أن يعيرونى ثوبا أيا كان، أعود به إلى مصر العتيقة . على أية حال . كنت فى حال عجيبة من اليأس والدهشة، وقيت حائرا لا أجد تفسيرا لما جرى لى ، فقلت لروحى: ربما ينعم على الرب ويظهر لى كرامة الآن، فيسترنى ويطمئن روحى الضائعة، ورحت أتصبر وأعين نفسى على ما أنا فيه متمتا بما قاله بطرس الرسول إلى أهل رومية: «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله، برينا يسوع المسيح الذى به أيضا قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله، وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضا فى الضيقات عالمين أن الضيق ينشئ صبرا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء والرجاء لا يخزى، لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» . ورحت أتلو أيضا ما تيسر لى من آيات الرب وأصلى وأصلى كثيرا وأنا أتذكر سير القديسين والشهداء، والآباء البطارقة، قائلا لنفسى: فليكن لى فيهم عبرة وموعظة، وليكن اتكالى على الرب وحده، وأنا فى هذه البرية الموحشة وحيدا غربيا كفرخ سمك صغير فى شبكة صياد هائلة، ولأكن شاهدا على زمنى، وأحوال هذه الدنيا الغربية، ثم إنى أخذت فى تذكر وقت هيامى وترحالى فى البرارى بعد خروجى من ترنيط، وكيف صادفت وحوش الفلا وبث الليالى الطوال على لحم بطنى دون أن تدخل فى جوفى لقمة خبز أو شربة ماء لكن الرب فى الأعلى، أراد لى النجاة والسلامة، فإذا كان - وهو الجبار السيد - قد امتحننى فى صباى الأول ببليّة الهوى الجسدانى، والعشق الشهوانى، فما ذلك إلا ليدخلنى فى هوى العبادة وعشق المسيح زمن رجولتى، واكتمالى، فها أنا بكرم الله وفضله، صرت فى الأكليروس راضيا قانعا حامدا له على كل حال، وهو لا بد ناظر فى أمرى الآن، مثلما نظر فى أمرى من قبل، ولعله يدخلنى امتحانا أمتحن به حتى أفوز بما يحوز نعمته ورضاه .

ليثت على هذه الحال ساعة، وربما أكثر من ساعة، إذ كانت ظلال النباتات حولى قد أخذت فى التغير، وقد بدأت فى التطابق معها، مما يعنى إن الشمس باتت فى كبد السماء، وقد تعاملدت على الأرض، والوقت وقت ظهيرة، فقلت

لروحي: فيم الانتظار يا ولد، إن الوقت يسرقك وأنت جالس لا تفعل شيئا غير التفكير، فقم وامش حتى تجد ما يخرجك مما أنت فيه وتحصل بأى طريقة على ما تلبسه بدلا من ثوبك المخطوف، ولتبحث عن ثاونا وتطمئن عليه، لكنى ما إن هممت بالوقوف والمشي، إلا سمعت وقع أقدام أفراس تقترب منى وهى تدب على الأرض، فلما نظرت وقد ظننت أن الفرج قد جاء، وأسعفتى بما أبتغيه من رجاء، إذ أجدنى محاصرا، حصار طير فى فخ، وقد وقف فوق رأسى جماعة من لابسى السواد، وقد تمنطقوا بعدة الحرب. خفت وتراجعت قليلا بينما هم يتصايحون ويشيرون نحوى قائلين بلسانهم، هذا بشمورى قرارى مختبئ هنا، تعالوا بسرعة فأتى عسكر آخرون وسحبونى من مكانى وأنا أصبح بدورى بلسان عربى كى يفهموا، وقد أخذنى الرعب، وسيطر على هلع كاد يرسل البول منى، وقد فقدت كل سيطرة على مواطن الشعور فى أعضائى وجسدى: لا... لا، لست بشموريا، لست فلاحا قراريا أنا بدبر قيم بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع فى مصر العتيقة. ثم إنى وجدت الدنيا تلف حولى، ولم أعد متمالكا لنفسى، فغشى على من شدة الهول، وعظم الصدمة.

أفقت من غشيتى، لأجد نفسى فى محلة البشمورى مرة أخرى، وفى الدار ذاتها التى كنا التقينا بداخلها مينا بن بقيقة الزعيم، أخذت أتلفت حولى لأتبين الأمر فوجدتني فى المكان هو هو الذى جلسنا أنا وثاونا فيه بين رجال البشمورى فى اليوم الفائت وقت كلامنا معه، لكن الجدران كان قد تهدم معظمها بفعل النزال والرمل، وقد ملأت آثار الحريق والنار من سخام وخلافه ما تبقى من هذه الجدران، ورحت أهتف لروحي: ثاونا- أين أنت يا عزيز عيني ثاونا، هل هربت أم قتلت، أم أسروك مثلما أسرت؟... كنت أرعد وقد بدد حواسى القنوط وأقول محادثا روى: سبحان مغير الأحوال بين عشية وضحاها، ثم رددت بصوت خافت قانط "وليرأف بى أبو الرأفة وإله كل تعزية، الذى يعزينا فى كل ضيقتنا، حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها من الله، وظللت أردد هذه الكلمات العطرة لبولس الرسول مرارا وقد وجدتني محاطا

بجماعة من العسكر ومقيدا بقيد الفولاذ، وكذا كانت أحوال جماعة كبيرة من النساء والرجال والعيال، بعضهم أخذ يبكي ويولول والآخر ظل ساهما واجما ربما لشدة التعب، أو لغرط الصدمة والذهول، حاولت أن أشرح للعسكر حقيقة أمرى، لكن مقدمهم قال قبل أن أبادر بالكلام، وهو يضحك:

- هه.. أمازلت مصرا على أنك واحد من رجال بيعة قصر الشمع بمصر العتيقة؟

استبشرت خيرا بكلامه، وقد ظننت أنه قد فهم وصدق ما سبق أن قلته له من قبل:

- أجل يا سيدى.. أنا بدير قيم السيدة العذراء بقصر الشمع.

ضحك العسكر جميعا، وقال واحد منهم:

- قسيس بلا لحية؟ هل رأيت ذلك من قبل يا ناس؟

تحسست ذقنى بيدى رغما عنى، وشعرت بضيق لأننى أمرد، لا شعر على صدغى وذقنى، لكنى سرعان ما تذكرت ثاونا العزيز عندما كان يقول لى: يا شبيهه يوحنا فم الذهب، لم أتمالك نفسى وقد هاجت مشاعرى بذكره وأخذتنى اللهفة عليه، فرحت أبكى وأنتحب وقد أسقط فى يدى، ولم أعد واجدا ما يقال، فهم لن يصدقونى مهما قلت لهم، وقد التفوا حولى، التفاف وحوش صادوا فريسة، وراحوا ينهشونها، قلت ليكن ما يكون فلا سألهم عن ثاونا، فقلت بضراعة:

- بحق دينكم ومعبودكم أيها السادة، هل رأيت زميلى ورفيقي الشماس ثاونا؟

ضحكوا جميعا لقولى هذا، وقد بدوا مصرين على عدم تصديقى، لكن واحدا منهم قال بجذ:

- ماذا قلت أيها الرجل؟ هل كان معك رفيق من القساوسة. أظننى رأيته؟

هتفت وقد صرت كمن هو ميت وردت إليه روحه:

-- هل هو حى؟ .. قل لى بريك ينوك ثواب فى الدنيا والآخرة .

رد وقد بدا مذهولا :

- لقد خيل لى أننى رأيت إنسانا فى رداء القساوسة، بدا لى كالمخبول، وهو يعبرنى سريعا عند دخولى البلدة، وهو يصيح زاعقا، إذن لا أمل ولا ملاذ غير البرية، فلتدم لنا بريتنا.. برية هبيب المقدسة. ولنلوذ بها مثلما لذنا بها من قبل. ثم إنه التفت إلى زملائه العسكر، وقال:

- أظن أن هذا الرجل صادق، فهو من القساوسة، وربما يتوجب علينا تركه وإخلاء سبيله .

- صادق؟ .. أتقول صادق؟

قال رئيس العسكر بغضب وهو يزيح زميله من أمامى، ويمسك بساعدى شاهرا إياه فى وجوههم جميعا وهو يسألنى بسخرية:

- وما هذا الذى على ساعدك أيها الفلاح الكاذب اللئيم، أليس هذا وشم الأسد؟ أهذا يكذب أيضا؟

كدت أقول له مدافعا عن نفسى، إن هذا الوشم قد وسمونى به عندما كنت طفلا صغيرا وقبل دخولى البيعة بزمن طويل، ومع ذلك، فحتى الرهبان فى الأديرة باتوا يوشمون كالفلاحين وسائر الأقباط المفروضة عليهم الجزية بعد صدور مرسوم من الوالى يقضى بذلك بعد أن تمدى الولاة فى تعصير الأقباط، وبعد أن دخل كثيرون منهم فى الإسلام هربا من دفع الجزية، أو التحاق بعضهم بالأديرة تهربا من تلك الصريبة الغشومة، إذ كان الرهبان لا يدفعون جزية فى مبتدأ الإسلام زمن أوائل الخلفاء المسلمين، كما أردت أن يمهلى وقتا يسيرا حتى أثبت له حقيقة أمرى وسبب وجودى فى محلة البشمورى، لكن الرجل كان عنيفا غشوما- قبحه الله ووضعه فى سعيير الآخرة- فلم يستمع إلى ولم يمهلى لأقول له ما أريد، بل لطمنى لكمة قوية على وجهى جعلتنى أدوخ، إذ كانت يده ثقيلة، غليظة، مؤلمة، فلم أعد أدرى من أمرى شيئا حتى غشى على وقد كنت تعباً

بائسا، بائسا مكدودا، لا أستشعر فى هذه الدنيا غير الخراب، وقد وضعت أملى فى أن يصدقنى هؤلاء الناس، مهما قلت أو حاولت إقناعهم.

أحسب أننى نقلت إلى شونة غلة واسعة، ربما كانت تستخدم لتخزين البر وقتما كان الفلاحون لا يزالون يزرعون الأرض، إذ إننى وجدت الليل قد غشى عندما أفقت من غشىتى، وألفيت نفسى مطروحا على الأرض ضمن جماعة أكبر من أولئك الذين كنت بينهم من قبل، وقد أبصرت ملامحهم التعسة على ضوء مشاعل الحراس الذين حوطوا علينا من كل ناحية، وكان مشهد النساء يدفع الدمع دفعا إلى العينين، مهما حاول المرء التحامل والجلد، إذ كان معظم النسوة من الصبايا الصغيرات، وربما كان جلهن من الأبنكار العذراوات، فهم لم يعتدوا بالعجائز- وما الرجاء فيهن لأولئك العسكر- وكان هناك عديد من الأطفال إلى جانب النسوة يستصرخونهن طلبا للطعام، أما الرجال واليافعون من الشبان، فقد كانوا فى حالة مزرية بين جريح ومكسور، وقد ضرب الذل عليهم جميعا فأخذهم اليأس والبهاث.

ومضت ساعات عدة قبل أن يأتوا لنا بمقطف خبز وزلعة ماء، فصاروا يوزعون على كل منا رغيفا، ويمررون الزلعة علينا لنبل ريقنا، فما يكاد الإنسان يرفعها إلى فمه ليلق منها شربة سريعا، حتى يخطفها منه الجندى وربما قبل أن تصل فمه، ليعطيها لإنسان آخر، فلم يشرب أكثر الناس، وظل الأطفال على صراخهم وربما أزهقت أرواح بعض منهم بسبب ذلك. ثم إن واحدا من المعسكر أخبرنا أمرا أنه يتوجب علينا الاستعداد، لأننا سنرتحل إلى تنيس بعد ساعة من طلوع النهار، وأن علينا بمجرد أن ينفخ فى الصور، ونسمع ذلك، أن نهب جميعا ونصطف، النساء مع النساء والأطفال، والرجال مع الرجال فى طابور مؤلف من اثنين وراء اثنين، فما أن سمع الجميع ذلك حتى ارتفع البكاء والعويل، بل راح بعض من الرجال يصرخون كالنساء ويلطمون الخدود، وقد أدركوا أنهم مأسورون أسرا لا فكاك منه، ولا راد، وكأن حمامهم قد حم وقضاءهم قد أذن، خصوصا أن الجندى أضاف أننا سنرتحل من مدينة تنيس بالسفن والمراكب إلى مقر خليفة المسلمين فى مدينة بغداد.

كنت قد بدأت فى قضم رغيفى، عندما سمعت ذلك، فتوقفت عن الحركة وبقيت جامدا واجما أشخص إلى لا شىء، فالأمر برمته منذ خروجنا من البيعة فى قصر الشمع، وحتى هذه اللحظات، بدا لى وكأنه كابوس من كوابيس الشيطان، التى تهيم على المرء أحيانا إذا ما نام دون أن يخلص فى صلواته، وينقى قلبه من آثام النهار، وكنت أجدنى فى لحظات، أثناء ذلك- وكأنى وقعت تحت ضرب من ضروب السيمياء أو السحر، فمهما شطح خيالى، بخصوص المخاطر والصعوبات التى طالما حدثنى عنها ثاونا منذ خروجنا من قصر الشمع إلى هنا، لم أكن أتخيل بأى حال من الأحوال، أن ينتهى مصيرى إلى ما سيكون عليه فى الغد عند انبلاج النهار، أترحل عن بلادى وأرضى مرغما؟! وأؤخذ كأسير، قد يباع فى أسواق النخاسة ببغداد، أنا بدير بن بشاى البشمورى المصرى، الذى ولدت وعشت حياتى كلها على هذه الأرض التى عاش آبائى وأجدادى عليها منذ أقدم السنين، أينتهى بى الأمر أسيرا من أسرى الخليفة المرحلين إلى بغداد! لا أعرف ألكى أم أبئسم؟! إنها مسخرة والله كمساخر الكافر الهرطيق بولة السميساطى، كما كان يقول ثاونا دائما عن أى شىء يتداخل فيه الجد والهزل، تصورت حالى، وقد وضعونى على منصة دلال، يتفرج على الرائع والغادى ويساوم النخاس فى ثمنى وكأنى بهيمة من البهائم، أو متاع من الأمتعة، شعرت أننى على حافة الجنون، وقد صعبت على نفسى، ورحت أسترجع كل ما قاسيته خلال حياتى كلها، وكل العذابات التى عشتها فزفرت رغما عنى وأنا أهمس متضرعا للرب:

«أوصنا<sup>(١)</sup>.. أوصنا يا يسوع الرحيم»، مثلما كان يقول دوما ثاونا الحبيب، كلما تضايق أو ألمت به ملة.

رحت أصلب بيد مرتعشة، إذ شعرت بأنه لم يتبق لى إلا معجزة سماوية من عند الرب، تحدث فجأة فتخرجنى مما أنا فيه، ويبدو أن جارى الذى كان يرقد

(١) أوصنا: اللفظ اليونانى للكلمة العبرية: هوشنا، أى: خلصنا.



إلى جانبى، قد لاحظ ذهولى وجمودى وانصرافى عن الطعام، فسألنى أن أعطيه رغبةى إن كنت زاهدا فيه، فقدمته له راضيا، إذ لم تكن بى رغبة فى طعام أو شراب، بل كانت أمنيته أن أموت ويحشرنى الرب فى ملكوته، قبل أن ترى عينى فراقى لأرضى وأوطانى، وهوانى فى بلاد غريبة لا أعرفها ولم تطأها قدماى من قبل.

قلت وقد رجعت أقوى نفسى، وأثبت إيمانى ويقىنى بالله: لا بد أن تكون هناك حيلة ما للخروج مما أنا فيه، ولا بد أن يظهر الرب علامة إن عاجلا أو آجلا، تبين لأولئك العسكر الغشومين خطأهم وحمقهم فيما فعلوه معى، وربما سارع أبونا يوساب فى قصر الشمع بإرسال من يدركنا ويغيثنا أنا والعزيز ثاونا، وقد حمل معه أمرا من الوالى أو الخليفة، إلى هؤلاء الحراس ليفكوا أسرى، ويأتون بثاونا فنعود إلى حيث جئنا، انتعشت روحى وأنا أفكر فى ذلك، وداخلنى أمل كبير، حتى أنى عدت لا أشعر بآلام جسدى، وبذلك العطش الشديد المحرق لحلقى، فأخذت أعب مرتويا من الماء الذى كانوا قد جاءونا به فى أساطل، وقررت أن أشرع فى تلاوة صلوات الليل، وأخلد إلى النوم، حتى حلول الصباح، فيكون الرب قد نظر إلى بعين العطف وشملى برحمته الواسعة.

نمت ربما ساعة أو ساعتين وأفتت فزعا، إذ شعرت أن هناك من يتلمس جلدى ويتحسس لحمى، فانتفضت جالسا فى مطرحى، وسرعان ما أبصرت على الضوء الشاحب للقنديل الوحيد، الذى تركه الحراس مضاء فى ركن الشونة، الفتاة الشابة المليحة، التى كنت قد رأيتها فى الطريق، عند خروجنا فى اليوم الفائت أنا وthaونا، بعد أن التقينا البشمورى، وقد جلست إلى جانبى، أجفلت، ورحت أباعد ما بينى وبينها وقد شعرت أن نارا سرت فى جسدى وأحرقت روحى وكيانى، اضطربت وتعجبت لوجودها فى هذه البقعة بجوارى، لأنهم كانوا قد وضعوا الرجال والصبيان الذكور فى جانب من الشونة، أما النساء والصبايا والأطفال الرضع، فقد كانوا فى الجانب الآخر منها، رحت أتلفت حولى، وقد أسقط فى يدى، ولم أدر ما أنا فاعل، وقد داخلنى خوف، فربما استيقظ واحد من النائمى

فظن بى الظنون، أو لاحظ واحد من الحراس الساهرين على بوابة الشونة وجودها إلى جانبى، فاستراب فى أمرنا، وحدث ما لا تحمد عقباه ويبدو أن ما اعتمل بداخلى قد ظهر على وجهى، لأن الفتاة همست إلى متوسلة أن أبقى ساكنا، وكنت على وشك نهرها بصوت عال كى تبتعد عنى، ثم إنها أخذت راحتى بكفيها وهى تقول هامسة:

- أرجوك أن تستمع إلى أيها الأب الطيب، لقد رأيتك فى اليوم الفائت مع رفيقك الأب الآخر عند خروجكما معا من محلتنا وأعطيتنى صليبك، وكنت ضمن اللواتى باركهن رفيقك الأب الآخر، لذا أرجوك أن تساعدنى وتجد حيلة لئلا يأخذنى هؤلاء العسكر معهم، أريدك أن تجنبنى ما سوف يحدث لى إذا ما تملكونى وصرت وحيدة بين أيديهم فأنا عروس بكر، قتل أهلى جميعهم، ولسوف أجن إذا ما مسنى واحد من هؤلاء الملاحين، أو لامست يده موضعا من مواضع جسدى.

ثم إن الفتاة راحت تبكى بمرارة وأنا لا أدرى ماذا أفعل لها، وفجأة توقفت عن البكاء وحدقت بى بقوة وهى تقترب بأنفاسها من أنفاسى وتلامس جسدها بجسدى، وتقول:

- تزوجنى أيها الأب الشاب- اسمى سويلا- تزوج سويلا الضائعة. الآن، الآن ويسرعة، فريما حدث ما يفسد عليهم آمالهم، إذ أصبح حاملا، فلا أباع عند النخاسين إلا بأبخس الأثمان إذا ما عرفتهم أننى حبلى، وربما أخذنى أحدهم لأخدم فى بيت من البيوت، فتأمن نفسى وتستقر روحى، إذ أظفر بالبعد عن هؤلاء، فأنا يا أبى فكرت فى قتل نفسى، لكنى أخاف... ولا أقوى على فعل ذلك.

ثم إنها ارتمت على صدرى بسرعة وراحت تعانقنى وتلثم وجهى وفمى بقوة وعنف، فلم أتمالك نفسى وقد ثارت شهوتى، فنسيت الدنيا، وفقدت لزمان الزمان، ولم أعد أنتبه إلى المكان، فرحت أضممها وأقبلها، وأتحسس كل مواضع جسدها اللين الناعم، وأنا أهتف هامسا: سويلا.. سويلا.. فلما لامست أناملى وشفثاى فاكهة صدرها اليانعة، لم أتمالك نفسى وصرت كمن مسه مس من

الجنون، فطرحتها وجثمت فوقها ورحت أستجمع طاقة الحياة التي انتفضت في جسدى، نافحا إياها لها، وكأننى كنت خلال ذلك، أتحدى الضعف واليأس والفناء، وقد أخذتني لذة شيطانية باهرة لم أستطع لدفعها سبيلا، فلما انتهينا، وكانت سوyla قد قابلت جوابى لها بجواب أشد- وجدت نفسى بعد ذلك وقد غمرتني راحة لا حد لها، وكأن كل آلام جسدى لم تكن، وشملت بصفاء عجيب لم تعهده روحي منذ زمن وصالى القديم مع الفانية آمونة، فبقيت فترة أضمت يد الفتاة إلى صدرى، عند موضع القلب منى، وأريت عليها حيناً، وألثمها حيناً آخر، وأنا أقول لها: لن أتركك أبداً، سأضعك فى بؤبؤ العين، وسأجعل رمشى حجاباً عليك ولن أتركك أبداً ما حييت، وأنت منذ هذه الساعة ومن مبتدأ ذلك الوقت زوجتى وخليتى ووليفتى حتى يوم الدينونة، ثم إن سوyla لملت حالها وقامت متسحبة بهدوء واحتراز دون أن يشعر بها أحد، وهى تشكرنى وتحمد الرب كثيراً، فلم أعرف ماذا أقول أو أفعل، إذ رغم عهدى لها- وقد كنت صادقاً- داخلى ندم شديد، وقد أدركت أننى وقعت فى الخطيئة، وأن الشيطان قد تمكن منى وهيمن على روحي وجسدى بنجاسته. وأننى استسلمت له وضعفت دون أن أسعى لدفع غوايته وشره، وعرفت خلال هذه اللحظات معنى الخطيئة والإثم، وأن ما كان ينصحنى به الآباء فى بيعتنا بقصر الشمع، لهو عين العقل، إذ طالما نصحونى بأن أتزوج حتى لا تقع نفسى فى الخطيئة، وأشاروا على أكثر من مرة بصبية صالحة لأربطها معى برباط الزوجية المقدس، لكنى كنت أذهب عن ذلك بوجهى، وأرفض قطعياً، إذ لم تكن لى رغبة فى النساء بعد فناء غاليتى آمونة، أما هذه الفتاة فلا أدرى برى كيف أقبلت عليها نفسى، والحق أقول الآن، وأنا أندم على فعلتى: إننى اشتيتها منذ اللحظة التى وقعت عينى عليها فيها، بل واضطريت نفسى كثيراً لما وجدتها تنظرني طويلاً ونحن فى الطريق.

رحت أستغفر وأستعيد بعضاً من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، والتى طالما كان ثاونا يسعى لأن أستذكرها وأحفظها حتى تعصمنى دائماً، كلما تذكرتها وردتها بلسانى: (أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو

جسد واحد؟ لأنه يقول: «يكون الاثنان جسدا واحدا» وأما من التصق بالرب فهو روح واحد. اهربوا من الزنا. كل خطية يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد، لكن الذى يزنى يخطئ إلى جسده. أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله).

بكيث بحرقه، وتمنيت لو كنت قد استطعت إخفاء نفسى، مثلما فعل القديس أوريجانوس بنفسه فى الماضى، رغم غضب البابا عليه وقتها لذلك، إذ إن معاناة الرغبة والتغلب عليها لهو ضرب من ضروب اختبار صدق الإيمان.

تمنيت أن تحدث معجزة فأغمض عيني وأفتحتها لأجد نفسى فى بيعتنا بقصر الشمع وقد وقعت بين يدى أبينا يوساب لأعترف له بكل خطاياى: خطيئتى التى وقعت فيها الآن وخطيئتى القديمة مع آمونة، بل وأن تتم فضيحتى ليس أمامه فقط، بل فى خورس خاص لوحدى، ليفصح أمرى أمام جميع الناس، وأن تحل على العقوبة التى يرتضيها؛ لأننى لم أؤمن إيمانا خالصا أن الذى فى الصنيعة والكأس هو المخلص وهو الديان، ثم إنى عاهدت نفسى ألا أعاقب جسدى بصوم أو بسهر أو بغير ذلك قبل اعترافى وقبولى الفضيحة، وإن لم يقدر الرب لى العودة إلى بيعتنا فى قصر الشمع، فسوف أعترف داخل أقرب بيعة ألتقيها بعد خروجى من هذا المكان، حتى لو لم تصادفنى بيعة فى طريقى إلا فى بغداد.

كان كل ما لاقيته من متاعب وأهوال فى حياتى كوما، وما قابلته خلال خروجنا من محلة البشمورى وحتى وصولنا إلى تنيس كوما آخر، فالرحلة التى قطعناها فيما لا يزيد على يوم واحد، مرت على وكأنها دهور بكاملها، فلقد أخرجونا فى الصباح الباكر ونحن مصطفون ثم اقتادونا سيرا ونحن محوطون بالحراس والعسكر من كل جانب، وقد سار أمامنا مقدم العسكر فى كوكبة من فرسانه، وكانت الطرقات الصاخبة بالحياة والناس حتى ما قبل المعركة، وكأنها طرقات سدوم وعمورة بعد أن حلت عليها اللعنة، فرائحة الموت والحريق كانت منتشرة فى كل مكان، وقد اختلطت بروائح التراب الناتج عن تهدم البيوت الطينية

البائسة، بينما الجثث ملقاة هنا وهناك، ولقد تعجبت من طغيان هؤلاء الجبابرة، فلم كل هذا التخريب والدمار لهذه المنازل البسيطة التى يمكن أن تنهار بسرعة إذا ما ألقى عليها بعض من الحجارة.

وكان خروجنا ونحن فى أبأس حال وسيرنا فى طرقات هذه الخرائب، من الأمور التى يصعب وصفها فقد مشينا نجرجر أرجلنا جرا، وقد كابدنا آلام العطش والجوع، وأوجاع الجسد، فما من أحد منا إلا وكان مكدوما أو مكسورا أو جريحا، وبقيت أحوال النساء اللواتى سرن فى المؤخرة هى الأسوأ، ومعاناتهن ظلت أشد، وقد فقد كثير من الأطفال خلال تلك اليوم حتى وصولنا إلى تنيس.

كنت خلال ذلك أقول لروحي: إن كل ما عانيته، وما سوف ألقاه بعد ذلك، ما هو إلا حصاد زراعتي الإثم منذ زمني الأول مع آمونة، وكذا بسبب إثمى الأخير الذى أوقعتى فيه الشيطان داخل الشونة، وشعرت وكأننى خلقت للإثم والخطيئة، وأن هذا قدرى الذى لا فكاك منه مهما مرت الأيام. أليس استسلامى السريع لسويلا تأكيدا لذلك أيضا، وكأن روى لا تعيش ولا تحيا إلا بعذابات الإثم، والندم عليه فى كل ساعة ووقت، وكان يزيد عذابات روى - خلال رحيل الأسر - هذا عدم تيقنى مما آل إليه حال ثاونا وعدم وجوده إلى جانبى، فهل هرب ونفذ بجلده بعد أن رآه الجندى؟ هل ما قاله الجندى صحيح من أنه ذهب إلى برية هيبب؟ أم تراه عاد إلى أبينا يوساب فى قصر الشمع؟ كان أخشى ما أخشاه أن يكون قد حدث له مكروه أو قتل، ليته كان إلى جانبى هنا، يواسينى ويعضدنى بروحه الطاهرة وعلمه الغزير فلربما كان أجمعنى وحال بينى وبين سويلا وردنى إلى جادة الصواب، لكننى كنت رغم شعورى البالغ بالإثم، أشعر بالشفقة على سويلا، هذه الفتاة المسكينة التى أظن أنها ستلقى أسوأ مصير فى حياتها المقبلة، بعد أن فقدت أهلها وذويها وكل من يهتم بها فى هذه الدنيا، كنت أنظر هؤلاء المرتحلين معى جميعا وأفكر فى مصيرهم المجهول، الذى هو مصيرى أنا كذلك، ورحلت أتخيل حالنا وقد عرضنا جميعا فى سوق النخاسة، ليتفرج علينا، ويقلب فينا الرائح الغادى فتذكرت مشهدا كنت قد رأيته أثناء هيامى

بعد خروجي من ترنيط وقبل وصولي إلى قصر الشمع، ربما كان ذلك في مدينة منف، وربما كان عند عين الصيرة أو حلوان، لا أذكر الموضع الآن على وجه الدقة، كانت بلاد مصر جميعا غير معروفة بالنسبة لي، وهي تتشابه على الأغلب، لكني لا أنسى كيف كان النخاس قد نصب خيمته على أطراف بستان، وقد أوقف عددا من الغلمان على دكتته وراح ينادي عليهم، والناس واقفون يقلبون فيهم وكأنهم بهائم من جنس الحيوانات وبينما هو يفعل ذلك، إذ برجل عجوز، ويصحبته امرأة شمطاء، وقد جرا خلفهما صبية مليحة، وهو يصرخ ويقول صائحا إن النخاس قد غشه، لأنه باعه الجارية على صفة أنها قندهارية، صفراء، مولدة ولهذا قبض ثمنها عشرين دينارا، فلما ذهب بها إلى البيت، بان تدليسه وغشه، إذ وجد أنها من جملة أجناس السودان ذات بدن يابس، وقد غاب عنها اللون الذهبي، بعدما استحمت وقد قالت في سبب ذلك أن النخاس وضعها في أبزن فيه ماء الكراويا أربع ساعات من النهار السابق لبيعها.

ثم قال الرجل، وكان يستشيط غضبا ويزيد لشدة غيظه، إنه اشتراها لكونها بكرا، فوجد أنها ثيب، وشهدت العجوز التي كانت معه أنها اختبرت الفتاة فوجدت فيها قلوب الرمان الحامض وعفص أخضر وقد عجنا بمرارة البقر. وقالت: إن الطامة الكبرى بالنسبة للمشتري، وكان قريبها على الأغلب، هو أن الجارية حامل، وأنها عرفت ذلك، بأن وضعت تحتها بخور العنبر، ومنعت خروجها من أردانها وفرج ثيابها فلم تظهر الرائحة، من فم الجارية، وأنها متيقنة - والعلم عند الله - أن الجارية حامل في أنثى بسبب كآبة لونها وعدم إشرافه بعد أن راح عنها ذهب الكراوية، وأنها قاستها بخيط من وسط السرة حتى وسط الفقرة المحاذية لها من أحد الجوانب، ثم علمت المكان بمداد وأدارت الخيط إلى الجانب الآخر، فطال الخيط ولم ينقص مما يدل على أن الجارية حامل في أنثى.

عند ذلك الحد، هجم الناس على النخاس وأوسعوه ضربا هو وغلماناه، وأجبروه على أن يرد الدنانير لصاحبها ويستعيد الجارية المغشوشة، ثم إنهم اقتادوه إلى صاحب الشرطة في ديوانه.

شعرت بآلام رهيبية فى بطنى عند تذكرى ذلك، وقد تخيلت أن يحدث ذلك لسويلا البائسة، فشعورى بالحنو عليها كان هو الأشد كلما فكرت فيها، وكنت أرجو من الله ألا يمسه مكرهه، بل وتحدث معجزة فلا تؤخذ كسبية أو تباع فى سوق النخاسة.

أما خراب الديار وفراقها، فكان ينحرف فى قلبى وكأنه نحر الموج لسطان البحر، فالأسر، وفراق الأوطان هو العدم فى عز الحياة، وهو آية البلوى التى كتب على أن أحيائها على مدى حياتى وأيامى. فكرت فيمن سوف يشترينى، فأنا وإن كنت صحيح البدن، موفور الصحة، إلا أننى -وأحمد الله على ذلك وأشكره شكرا كثيرا -، لست بالشاب الذى يقبل عليه الرجال بغرض المتعة، كما أنى لست من القوة والعافية المغرية للشارى لاستخدامى فى عمل من الأعمال الشاقة المجهدة، رحت أنخيل من سيشترينى: صفته وعمله، وعملى معه، وكيف سيسلك معى؟ وهل سيصدقنى إذا ما أعلمته أننى قيم بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر؟

كنت أفكر فى ذلك وأدعو الله أن يلهمنى فكرة ووسيلة أهرب بها من أسرى هذا، فأنجو بجلدى وأعود إلى مصر العتيقة مرة أخرى ولا أغادر الديار، أخذت أقدح ذهنى، باحثا عن مخرج مما أنا فيه، وقد حضرتهى حكاية، رحت أنمثالها جاهدا، لأغزل على غرارها واحدة تنفعنى، إذ كنت قد التقيت لصا أثناء هيامى بعد خروجى من ترنيط فى موضع خرب أويت إليه لأبيت فيه حتى طلوع النهار، فلما رأى ما عليه حالى من مسكنة وذل، وأن لا رجاء له فى أن يحصل على شىء منى، أشفق على وصادقتى وأخبرنى أنه ذات مرة تسور إلى منزل رجل يهودى من أهل الغنى والمال، لكن اليهودى اكتشف امره، واستطاع هو وخدمه أن يحبسوه بالدار، ثم سلمه إلى متولى الشرطة، الذى أمر بحبسه فى حجرة لها جدران عالية داخل السجن، وكان على باب هذه الحجرة سجان يحفظه ويكلمه من خلف الباب، ويناوله من تحته ما يتفوت به، فقال له زعبل - وكان هذا اسمه - أن أطافره قد طاللت جدا وهو محتاج إلى مقراض، فجاءه الحارس بمقراض.

ثم قال للحارس:

- إن في هذا البيت فيراننا تؤذيني إذا قربوا مني، فاقطع لي جريدة من النخل تكون عندى أطردهم بها ففعل، فأخذ يضرب بها في الحجرة التي هي محبسه، ويسمعه صوت ذلك أياما، ثم إنه قشر الخوص عنها، وقطعها على مقدار يومه أنه من عمل الفيران، وضم كل ما قطعه منها بعضه إلى بعض وقطع اللبد الذي كان يتخذه وطاء وفراشا بالمقراض وضفر منه حبلا تساق به إلى أعلى الحجرة وتدلّى من طاقها خارجا أثناء هزيع الليل الأخير دون أن يشعر به أحد.

وتمنيت أثناء رحيلنا هذا أن نلاقى في طريقنا وحوشا كاسرة تطلع علينا فتفترسنا ونخلص مما نحن فيه، أو أن يرسل الرب ريحا صرصرا تطيح بالركب التي ستقلنا إلى الشاطئ الفلسطيني لنعبر من هناك إلى مقر الخلافة في بغداد، وكانت يدای تؤلمانني كثيرا، بسبب الوثاق الذي أوثقوني به مثلما أوثقوا بقية المأسورين، وكان العسكر لابسو السواد يحثوننا على السير كي ندرك تديس قبل حلول الليل، وما أن فارقنا محلة البشموري، حتى علا الصراخ والعويل من جديد، وقد استشعر الجميع أن فراق الوطن حادث لا محالة، وأن البعد عن مرابع الأهل والأحباب آت كالموت الفاجع، فأخذت أبكى بدوري، وقد شعرت بضياغ حياتي، وبلوغ أوج شقائي، توسلت للرب أن يرحمني، ويرفعني إلى ملكوته لأستريح، لكنني سرعان ما تذكرت ما كان يقوله لي ثاونا عن رحلة السيد وأمه المباركة، ومعاناة الآباء البطارقة وسائر القديسين الأحرار فهدأت روحي قليلا وتصبرت، وقلت لنفسى: ربما أراد الرب حشرى في رحلة هؤلاء المساكين المعذبين، حتى أشد من أزرهم وأعمل على تقوية إيمانهم، وأدفعهم لأن يصبروا على ما هم فيه من بلاء، وقلت لروحي: سوف أحدثهم عن القديسين الشهداء، سوف أحدثهم عن عذابات البابا ديوناسيوس زمن الملك الكافر ولاريانوس الذي أخذ نوابه البابا واعتقلوه بأمر منه وقتلوا جماعة من الشهداء لا يحصى عددهم، وكانوا يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفائف على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين، وقد عاقبوا ديوناسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد



لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى، وأنتم تسجدون لما تحبون وسجدوا للسيد المسيح خالق السماء والأرض الذى نعبه. فقال له الحاكم: أنت ما عرفت قدر صبر الملوك عليك فإن سجدت لآلهتهم أكرمتك. وأخذ جماعة ممن كانوا معه فأمر بقتلهم بعد أن خاطبه خطابا كثيرا، ثم أخرجه ونفاه إلى موضع يقال له «قولوى»، وتفسيره حاجب؛ فعمل أهل ذلك الموضع الجميل معه ومع كل من كان معه ممن لم يسجدوا للأصنام، وبعد ذلك أعاده رجال الحاكم إليه ليحكم عليه بالموت، فقال له: بلغنا أنك تنفرد فى الموضع وتقدس أنت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلا ونهارا وخاطبه خطابا كثيرا، ثم تركه. والتفت البطريرك إلى الذين كانوا معه وقال لهم: امضوا إلى كل موضع وصلوا وقدسوا فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم إن البطريرك أعيد إلى الموضع الذى كان فيه منفيا فحزن الذين كانوا معه لأنه افترق عنهم، لكنهم قالوا: نحن نعلم أن السيد المسيح معه فى كل طريقه. ثم استشهد فى تلك الأيام جماعة لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح لامتناعهم عن السجود للأصنام.

وقد شاهدت أثناء صعودنا إلى تنيس الخرائب والدمار الذى خلفه العسكر وراءهم، فلم نمر بمحلة ولا بلدة، ولا كورة، إلا وكانت محروقة الزرع، مهتدمة المنازل والبيوت، وكانت الطرقات والسكك خالية إلا من الكلاب والقطط والهوام الضالة.

وفى أثناء سيرى تصاحبت مع شاب من البشموريين اسمه بخنس بن أيوب، قال لى: إن العسكر قد خربوا كل مواضع البشموريين فى سمنود وسحا وشبرا سباط والأريسية والنجوم، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر، بعد إضرامهم النار، حتى أن حيوانات الدور الداجنة كالأوز والفراخ والأرانب، كانت تجرى فى الطرقات صارخة ناطة والنار مشتعلة بريشها وجلودها، وأن ما حدث فى ناحيتنا، يقصد ناجية البشرود كما يطلق عليها هؤلاء العسكر بلسانهم، لم تكن الوحيدة وإن كانوا قد شنوا عليها أكثر لعلمهم بأن الزعيم مينا بن بقيقة، كان يتحصن فيها ويتخذها محلة لحربه ضدهم لصدهم عن البلاد.

وقد قال لى ذلك الشاب، أثناء سيرنا أيضا: إن مينا ظل يرمى على العسكر ويقاتلهم حتى نفذت ذخيرته، وكان أكثر رمية ورمى رجاله لا ينفع لأن العسكر كانوا واقعين فى الظلمة وما يسقط عليهم من مشاعل البشمورى ينطفى فى الحال لكثرة الماء فى المواضع التى كانوا فيها، أما الوقايد التى كانت تسقط على محلة البشمورى، فقد كانت تحول الليل نهارا لكثرتها، وتجعل كل شىء يستبين وكأنه تحت ضوء الشمس، فلما تمكن العسكر منه ودخلوا عليه، أعملوا السيوف فيه وفى أعوانه، وكان بخنس منهم حتى قتل أكثرهم، لكن البشمورى ظل يدفعهم عنه وقد أخرج لهم سيفه وهو من الحسامات القوية التى كان قد جلبها له بعض خواصه من عند الروم، فظل يزود عن نفسه حتى دوخ العسكر فلما تناهى ذلك إلى مقدمهم المدعو الأفشين، وكان هذا هو الذى يتقدم مسيرتنا الآن- جاء ونازله بنفسه ودام النزال بينهما ساعة، حتى أجهز الأفشين على مينا، فظل مينا يلعن ويسب ويدعو عليهم بالخيبة، ويتمنى على الله أن ينتقم منهم وتدور عليهم الدوائر حتى لفظ أنفاسه.

ثم إن الشاب بكى بكاء مرا على زعيمه مينا بن بقيقة، وهو يقول لى: إن الفتاة المسكينة التى كان قد أنقذها وصارت زوجته بعد ذلك، جاءت ولبثت تبكى على جثته وتتدبه مدة، فلما رأى العسكر ما أصابها بسبب ما كان قد جرى لها، تركوها دون أن يسبوا ضمن السبايا، وقد وجدوا أن لا نفعا ولا رجاء فيها.

كانت سويلا تسير خلفنا مع جماعة النساء المسبيات، وقد حرصت على تجنب النظر إليها، خشية أن يتصادم نظرى بنظرها، فأضعف ويلين قلبى بسبب ذلك، أو تهيج ذكرى موافعتها بجسدى، فأصبر إليها من جديد ولا أملك من أمرى أمرا لكن عندما أوقفونا لنستريح قليلا ونشرب بعضا من الماء اختلست النظر إليها رغما عنى فوجدتها فى حالة شنيعة، وقد أخذها الضعف والإعياء، وتسخم وجهها بالغبار، وتشعث شعرها الجميل، فلم أتمكن من الرثاء لحالها ورق قلبى من جديد، وعاهدت نفسى أن أبذل كل ما فى طاقتى لأحميها، وأنا أدعو الرب وأقرى القرابات لأجل ذلك دون أن أصلب كما أشتهى بسبب يدى المغولة.

دخلنا مدينة تنيس قبل الزوال بحوالى ساعة فوجدنا عسكر الخليفة ممن كانوا فيها، قد تهيأوا وخرجوا لملاقتنا، وقد تجمع هوام العوام لمشاهدتنا وتجريسنا مثلما هى عادتهم فى نصره كل غالب على المغلوب، فأخذوا يصيحون فى وجوهنا، وينعتوننا بالكفار المارقين، وراح عيالهم يرموننا بالوسخ والقاذورات، بينما العسكر يذبونهم عنا بالأسواط لئلا يهجموا علينا ويفتكوا بنا، فلما دخلنا إلى الطريق الكبير بالبلد، لنتجه منه بعد ذلك إلى جهة البحر ونركب المراكب التى سوف تخرج بنا من بر مصر، وجدت بخنس بن أيوب يبكى وهو فى غاية الحزن والألم، فرحت لأسيره فينسى ما هو فيه من غم وكرب، فقال: إن ما يبكيه هو أن أمه أصلها من تنيس وأنه عاش جانباً من طفولته فى هذه الكورة عندما كان يأتى لزيارة جده مع أمه وقت الأعياد، وأنه يحب هذه المدينة حبا عظيماً لذا فهو حزين لأنه سوف يفارقها ويكون فراقه لبر مصر منها، ثم قال لى إنه كان قد قرأ فى المكتب، وله ولع بمعرفة تواريخ الأولين رغم أنه من الفلاحين، لأن جده لأمه كان من الوراقين المشتغلين بالمكتب، وكذا بوضع التواريخ، وقد ترك عدة من الكتب، قرأ فيها- أى الشاب- عن كورة تنيس أنها واحدة من أعظم كور المعمورة رغم وقوعها وسط الماء لأنها من كور الخليج، وأن البحر أغرقها مرة، وكان لها قرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها، لكنها قامت مرة أخرى بعد غرقها بزمان طويل فعمرت واستوت جنانا ونخلا وكرمة وشجرا ومزارع، وكان فيها مجار على ارتفاع من الأرض، وقد أخبرنى ذلك الشاب العليم أيضاً- وكنت أحثه على الكلام حتى نتناسى ما نحن فيه ولا ننتبه لأذى العوام- أن الماء لا يزال ينحدر إليها لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء، وسائره يصب - بعدما يأخذ الناس حاجتهم منه - فى البحر، وأنه كان بين البحر وأرض تنيس مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش التى ربما نهبط إليها بالمراكب وبين جزيرة فى البحر يقال لها قبرس طريق مسلكه تسلكه الدواب ببسا حتى علا الماء وغطى ذلك الطريق.

وأنه لما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس، فأغرقها، وصار يزيد كل عام فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، وأما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى منه تونة وبور، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت، والماء محيط به.

وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدا بعد واحد.. وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن يتملك المسلمون مصر بمائة سنة.

قال: وقد كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما، مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتنع بها كل واحد من الآخر، وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض.

وأضاف، أفاده الله، أنه قرأ أيضا فى كتاب أن لهذه المدينة سورا كان فى الماضى له مائة باب، وأن أهلها اشتهر عنهم فى القديم اللهو والخلاعة وأنه كان يولد بها كل سنة- كما قال بعضهم- مائة مخنث، وأهلها كانوا محبين للنظافة والدمائة والغناء واللذة، وأكثرهم كانوا يبيتون سكارى، وقد حصل لهم مرة مرض يقال له الفواق التنيسى أقام بأهلها ثلاثين سنة، وقد لاحظ بخنس ونحن نسير فى الشارع الكبير تعجبى من عمارة البلد الجميلة ودورها العظيمة وانتشار الحاكة الجالسين على أبواب دكاكينهم وجلهم من الكبار العجائز يحكون الثياب الموشاة، وهم يرفعون رءوسهم عما بيدهم بين الحين والحين وينظروننا دون مبالاة، وكأنهم قد تعودوا على مناظر الأسرى المرتحلين من مدينتهم بين أيدي العسكر إلى السفن جهة البحر، فقال لى بخنس إن أكثر أهل البلد هنا من الحاكة المتصرفين إلى أعمالهم، إنهم لا يحبون دس أنوفهم فيما لا يعينهم، لأنهم يتكسبون كثيرا من حياكة الثياب الشروب وهى نوع فخيم لا يصنع مثله فى كل أنحاء الدنيا، وأن أعظم ثوب لخليفة المسلمين يصنع هنا فى هذه الدكاكين، وهو

ثوب يقال له البدنة، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة- غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخرج إلى تفصيل ولا حياكة، وتبلغ قيمته ألف دينار وليس في الدنيا ثوب كتان يبلغ الثوب منه- وهو ساذج بغير ذهب- مائة دينار عينا غير طراز تنيس، وربما مدينة دمياط، مما جعل تنيس من أجل مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلك الجزائر، يعمل فيها الرفيع، فليس ذلك يقارب التنيسى. وقد أخبرنى بخنس أيضا أنه حدث فى تنيس منذ سنوات أن ولدت معزى جديا له قرون عدة ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاه، كما حدث فى العام الماضى أن صيد بأشتومها حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف، من ذلك طول رأسه تسعة أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف، وله بدان يجذف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع، وهو أملس أغبر، غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذيل، وله عينان كعيني البقر، فأمر أمير تنيس به، فشق بطنه، وملح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، وهو قائم غير منحن، وقد فشى خبر هذا الحوت العظيم فى جميع أنحاء الأراضى البشمورية، وصار الناس يحجون إلى موضعه، وقد وضع ملقحا فى مكانه للفرجة عليه ومشاهدته بأعينهم.

فصابت وتعجبت من قدرة الخالق العظيم، فقال لى: إن بتنيس أمورا وغرائب كثيرة، تحتاج إلى ساعات وأيام لحكيها، ويكفى أنها منذ مدة عذبت بحيرتها صيفا وشتاء، ثم عادت فى العام التالى لذلك ملحا صيفا وشتاء، وعادتها أن تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة، فلما وصلنا حتى خليج المدينة، وكنت قد أنست وتصبرت كثيرا بحكايات بخنس عن تنيس رغم تعبى وألمى الجسمانى الشديد، أجلسونا قليلا لنستريح، مثلما كانوا يفعلون بين الحين والحين، فى الطريق ليعطونا رغيف الخبز وشربة الماء، وماكدنا نجلس إلا وضجت السماء بالرعد

والبرق، وهبت ريح شديدة، وعم سواد عظيم فى الجو، فبقينا على ذلك الحال نحو ساعتين والحراس معنا، ثم ظهر فى السماء عمود نار أحمرت منه السماء وصارت الأرض أشد منها حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ الأنفاس استمر إلى ما بعد منتصف الليل، فأبقونا فى أماكننا، وبتنا فى مطرنا على الشاطئ ولم نصعد إلى المراكب إلا بعد انصرام نهار اليوم التالى، وقبل حلول الغروب بقليل، صعدنا جميعا إلى المراكب حيارى نقدم رجلا ونؤخر رجلا، وقد صعب علينا مفارقة الأرض والديار، ولسوف أبقى ما حييت دون أن تغيب عن أذننى أصوات العويل والبكاء والصراخ الذى أخذ يتعالى من جميع المأسورين رجالا ونساء.

ولن أنسى مشهد الدموع التى كانت تسيل وتشر على وجوه الجميع وكأننا فى مندىة نندب عزيزا مات، وقد لبثنا على هذه الحال وقتا حتى بدأ النوتية يحلون القلوع والأشربة ويفردونها فى وجه الريح، فطبت قلوبنا جميعا، وأدركنا أننا مودعون الديار لا محالة، وأن هذا هو القضاء المكتوب لنا، فتعصرت قلوبنا، ودفن بخنس رأسه فى صدرى وراح يبكى وينهه كالنساء، وفجأة تصاعد صوت شجى بالغناء، كان أسرا عميقا خلال هذه اللحظات العصبية، فالتفت ناحية الصوت مثلما التفت الجميع، فإذا بنا نرى مجذوبا من مجاذيب الصوفية المسلمين، وقد وقف قبالتنا على الشط، وجسده قد تعرى بكامله إلا من خرقة يستر بها عورته، وراح يقول:

أفَى كُلِّ عَامٍ غَرِبةٌ وَنَزوحُ      أما لِلنَّوى مِنْ مِنيةٍ فَتَريحُ  
لقد طَلَحَ البَينَ المِشْتُ رِكايبى      فلا أَرينَ البَينَ وَهو طَليحُ  
وَأَرَقْنى بِالرِى نوحِ حِمامةٍ      فَنَحَتْ وَذو الشَّجْوِ الحَزينَ يَنوحُ  
على أَنَّها ناحتَ وَلَمْ تَذَرِ دَمعةً      وَنَحَتْ وَأَسرابُ الدَموعِ سَفوحُ

فلم أنمالك نفسى وشهقت مثلما شهق الجميع ونحن نبكى، وسرعان ما تذكرت قصة أرخيليدس وسنسكلتيكى ورحلت أستريح جانبنا مما قرأته منها فى السنكسار الذى كان قد دفعه إلى ثاونا العزيز ذات يوم لأقرأه، وقد كتب على رق غزال بخط قبطى مذهب جميعه، وبدأت أهمس لروحى:

إننى أبحث عن شخص أبدي  
أبثه أشجاني  
فإذا مت صلى من أجلى  
وحضرنى فى التوقول يوحنا فم الذهب:  
كل إنسان على ظهر البسيطة  
لابد أن يرى ما كتب عليه  
ثم إنى نظرت الفتاة سويلا، فقلت لأواسيها بصوت سمعه الجميع:  
اهدنى أيتها الصغيرة وتذكرى ما جاء فى السنكسار:  
ليست الصداقة أكلا وشربا  
إنما الصداقة الحقّة هى:  
إذا وقع صديقك فى خطية  
عليك أن تبذل نفسك لتخليصه  
إن المسيح صديق لآدم  
فما أن وقع فى معصيته  
حتى بذل جسده ودمه لأجله  
وأعاده إلى المركز الذى كان يشغله.

ثم إن المجدفين بدأوا فى التجديف والسير، وأخذت المراكب تندفع إلى  
عرض الماء مبتعدة عن الشط، وبدأ بر مصر يعيب عن ناظرى شيئا فشيئا وأنا  
شاخص إليه لا أحيد بنظرى عنه، وكلما كانت صورته تتضاءل وتبهت أمامى  
كانت ترتسم داخلى وتقوى فيه قوة لا حد لها ستبقى معى ما حييت.

تم الجزء الأول من «البشموري»، رواية روايات:

- ١- ساويروس بن المقفع
- ٢- ألفريد بتلر
- ٣- زبيدة عطا
- ٤- سيدة كاشف
- ٥- الشيخ يوسف الشربيني
- ٦- المقریزی
- ٧- الحسيني صالح
- ٨- چون أنتيس
- ٩- عادل محيي الدين الألوسي
- ١٠- جيمس بنتلي
- ١١- أنطونيوس الانطوني
- ١٢- حبيب زيات
- ١٣- بانوب حبشي
- ١٤- يسي عبدالمسيح
- ١٥- صابر جبرة
- ١٦- منير شكري
- ١٧- باهور لبيب
- ١٨- الحسن بن زولاق
- ١٩- مارتن برنال
- ٢٠- أحمد كمال
- ٢١- عبد اللطيف البغدادی
- وآخرون



# البشوري

الجزء الثاني



لم أكن قد ركبـت البحر من قبل، ولم يكن لى خبر بحضرته، فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيأته، كأن قلبى قد انشـق وانشطـر، وأن دـمى قد غاب وانقشـع، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار وتسلسل فى العجز والمرار، بسبب كل ما قد كان، وحتم البعد عن الأوطان، وهكذا سرت لا أدري كيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصعد إلى العمارة البحرية الكبيرة التى سمعت الجند يطلقون عليها الحراقة، وهى من جاريات الماء، ذات مرامتى للنيران، يرمى منها العدو فى البحر، وهيأتها حياة عقاب ضخـم مخيف، مما زاد فى وجل القلب، وفعل فعل الزهومة فى النفس.

أخذوا يفرزوننا- نحن الأسرى- وكان عددنا كثيراً جداً، فمن قال إنا كنا ثلاثة آلاف نفس، ومن قال دون ذلك، أما النساء والأطفال فقد تحوّلوا عليهم فى موضع قصى بمؤخرة العقاب، بينما جرى تقسيم الفتية والرجال كل حسب هواهم وغرضهم منه، وكان قدرى أن أوضع ضمن شغيلة الوقايد فى بطن الحراقة.

ولم تك الحراقة التى أودعوني بها هي الوحيدة المغادرة من مياه البر المصرى، بل كانت هناك حراقات أخرى وزع عليها المأسورون، إضافة إلى ثلاثة سلاير، كما أخبرنى بنيامين الصورى - بعد ذلك - وهو خير من تعرفت عليه أثناء عملى بالوقايد، والسلاير من المراكب البحرية الأصغر فى هيأتها من حياة الحراقة، ذات شرع ثلاثة، قال بنيامين، وهو خبير عليم بهذا المصنار لكثرة عمله واشتغاله بالبحر: إن الواحدة منها تحوى أربعين مجدافاً، وهى سريعة الحركة، وقد سميت على مسمى نوع من الطير يحلق سريعاً فى السماء، وأن سلورة من هذه السلاير وقد حملت بكل ما جلبه الخليفة من أرض مصر، سواء أكان قد حصل عليه عن طريق الأعطية والهدايا، أم كان أخذ عنوة رغباً عن أهلها، مثلما كان

أمره مع كل المتحصل من ورق البردى الذى صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذونه تجارة ومعاشاً لهم.

أما حراقتنا، فكانوا -قبل صعودنا- قد وسقوها بكل ما يحتاجه الملاحون من الميرة والزاد، على نحو الخبز والماء، ومن جميع الفواكه، والأدم، والسفرجل، والبطيخ، والشاه بلوط، والحمص المجوهر، والباقلايا مطبوخاً، والبصل، والثوم، وجبن الحلوم، والشبّ اليمانى الأبيض الذى يحمل إلى الأفاق، وغير ذلك مما يطول ذكره، والذى أخبرنى به أيضاً بنيامين الصورى، وهو الذى أعلمنى - بعد ذلك - أن مخازن الغلال التى تسمى الأهراء المباركة تخرج منها جريات رجال السفن والأسطول، وكذا جريات السودان العاملين بها.

كان بخنس قد أخذَ ضمن خدام السوارى والبنود على السطح، فافتقدته وابتأست لفرقته كثيراً، ويبدو أنهم توسّموا فيه الشدّة والبأس بسبب عظم جثته وقوة عضلاته، فتوجع قلبى لفرقته رغم معرفتنا القصيرة ببعضنا البعض، وتنادمنا القصير السريع، لكن الربّ شاء أن تكون أرواحنا أسبق من الزمان فى حركة التلاقى وحدوث التصافى، فالمحب تظل بلورة روحه دائرة دون توقف حتى تصادف بلورة محبة دائرة بحثاً عن الاقتران والمودة، فإذا ما تصادمتا وتماستا مع سرعة الدوران وشدّتها، تولّد شعاع المحبة متدفقاً عظيماً لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأساً رغم هيوّلة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لى عن سويلا سبباً فى توثق محبتى له، فقد أخبرنى أنها كانت قد فقدت ذوبها أجمعين فى آخر طاعون شهدته أراضى البشامرة قبل الحرب الأخيرة، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت، وكان فناءً عظيماً لكثير من الناس والدواب، وسويلا كانت حينذاك صبيّة لا تتجاوز أعوامها العشرة، فهامت على وجهها فى الوحلات، حتى حنّ عليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها، لكن علة شيطانية باتت تعتربها بين الحين والحين، تجعلها تذهل عن الدنيا، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشّب جسدها تخشّب الأجساد الميتة - إلى حين - فتظل على ذلك الحال، وقد زاغ بصرها وترعرغ ريقها خارجاً من

فمها، حتى ينظر الرب في أمرها ويرحمها، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرة أخرى، وأن الرجل مريبها- وكان من الميسورين المشتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردى المنتشر بالأراضي البشمورية- لم يبخل عليها، بل اهتم لعلتها، وطاف بها على كنائس الملكانيين حيناً، وعلى كهان الوثنية حيناً آخر، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها؛ وذلك بعد أن أعيته الحيل، وباركها العديد من آباء كنيستنا المباركة الذين مسحوها مراراً بالزيت المقدس، وقرأوا عليها قرايات إيمانية دون جدوى.

صرت في الأسفل أعمل عند بيت النار مع الوقادين، وكان دورى أن أظل حريصاً منتبهاً إلى اشتعال جمراتها طيلة الوقت دون ملل أو كلال، بينما تدور آلاتها ويدفعها المجدفون، وهم عصابة من الرجال الأشداء المقدامين لم أر أخشن منهم طيلة حياتي، وجلهم من العبيد السودان شديدي السواد، حتى إن جلودهم- وقد تعرفت- كانت تلتصق كالأبنوس المصقول، وليس عليها إلا ما يستر عورتهم، ومواضع العفة فيهم، وقد وقف عند رءوسهم عسكر الخليفة يلهبون ظهورهم بالسياط، إذا ما تباطأوا في عملهم أو زينت لهم نفوسهم التواني والكسل، أما من كانوا معي في عمل الوقايد فقد كان جلهم أجلاً وأدنى من ذلك، وكانوا يتكلمون معي بلسان عربي خولط ولكنه ثقيلة لا تخلو من سذاجة، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثله من قبل، فلما سألت بنيامين الصوري، وهو الداري بأحوال الملاحة من المبتدأ للخبر؛ بسبب أن أهله من المشتغلين بالبحر أباً عن جد، قال لي إن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد يقال لها «المنبوذون»، يجري جلبهم من بلاد الهند والسند، ويبيعون في أسواق النخاسة بأبخص الأثمان، بسبب جهلهم وفضائلتهم وخيبتهم في تعلم الحرف والمهن، وأنهم كانوا في موطنهم بالأصل لا يقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائن من كان، فيعيشون محتقرين منبوذين ملعونين، حتى إن أشرف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور في آذانهم إذا ما تجرأ أحدهم ورفع صوته بالكلام في حضرة واحد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصورى لطيف المعشر، ظريف الهياة، وهو فتى باسم بشوش،  
بادر بالعطف علىّ والتودد إلىّ، وهو يحدثنى بقليل من قبطية حيناً، وبالعربية  
حيناً، وكان قادراً على التفاهم مع المنبوذين أيضاً، ويقول لهم شيئاً بلسانهم،  
وكانت مهنته رئاسة الوقايد، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار - فى  
موضعنا أسفل الحراقة - وضبطه بمعيار الخبرة، حتى تظل جذوته متقدة دون  
انطفاء، فلما لاحظت نباهة لسانه ورطانته بكل كلام مهما تباينت الأجناس،  
ضحك، وقال:

إن هذا دأب كل من اشتغل بالبحر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تلقى به  
على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاريهم ومآريهم فى الحياة.

ظللنا نعمل طيلة اليوم، وكان هدفنا بعد الخروج من أشتوم بحيرة تئيس هو شطّ  
مدينة الفرما، لكن بسبب معاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشتوم البحيرة،  
تعطلّ خروجنا بعض الوقت إلى فناء البحر الرومى، فما لبثنا إلا وكان الليل قد  
سحبنا إلى غزير عتمته، فجاء إلينا بعض الحراس، وأمر بعضنا بالذهاب معهم،  
فلما امتثلنا وصرنا وراءهم حتى صرنا فى موضع آخر بجوف الحراقة، حملونا إناءً  
كبيراً مملوءاً بملح النطرون، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسلّ من الحديد  
على هيئة الصليب غرسوه فى حلقة من خشب السنت وألقوا بهما فى الإناء،  
فطفت على سطح الماء، وبعد ذلك جاء الربابنة، فأظهروا حجراً عجيباً فى حجم  
قيضة اليد أو أقل، وأخذوا يقربونه من سطح الماء فى حركة دائرية من اليمين إلى  
اليسار، حتى ظهرت آيته، وهى دوران السلّ على السطح فى اتجاه موضع دوران  
الحجر، وكانوا يسحبون يدهم بسرعة، فيكف السلّ عن الحركة، ويستقر طرف منه  
نحو الجنوب والآخر نحو الشمال، وهكذا حددوا الوجهة التى يتوجب أن تجرى  
إليها الجارية فى الماء.

وصلنا مدينة الفرما عند الفجر الليلة التالية، وعندما استبان بعض من معالمها فى الأفق، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمها لترسية الحراقة عند برها، وقد توسلوا لذلك بالثقالات الحديد الغلاظ، وقد راح النوتيّة يفكون حبالها ويدفعون بها إلى جوف البحر، فما أن وصلنا الوصول الأخير، وتوقفت الحراقة والسلايلر، حتى هرع إلينا الحمالون أتباع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولايد قد طير لهم الحمام ووصلهم البرق ونحن فى سبيلنا للحلول فى هذى البقعة، وإلا ما كانوا قد بلغونا فى هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النهار، ثم أنهم بدأوا فى نقل بعض من حمولة السلايلر على ظهور الجمال، وقد أمرونا، نحن المأسورين، بالحمل جميعاً، ولم يعف من ذلك غير النساء والأطفال، فنالنا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحمل والجهد العظيم الذى كنا قد عانيناه طوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيل لها، وقد تألقت فى هذا الفضاء الأزرق المديد المجتمع من سماء وماء، فانشرح صدرى ورحت أصلى خلصة، شاكرأ الرب على كل شىء حامداً نعمته لحلول نهار جديد، وما لبثت إلا قليلا حتى رأيت بخنس بن أيوب قادماً نحوى، وقد حملوه بما حملنا بمثله، فما أن رآنى حتى سارع بحطّ حمولته واندفع إلى معانقنا، وقد أخذه شوق لا يدانيه إلا شوقى له، وكان وقت الزوادة قد حل، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خبز ويصل وتمر جاف، وقد أخبرنى بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصاً من النساء والأطفال، بل إن بعضهم أوشك على التلف، وأن المداوين والمطببين على سطح السفن، باتوا موزعى الجهد لكثرة المرضى، وأنهم يكتفون بماء الراوند، وشموم النوشادر، لإفاقة من غشى من الناس بسبب انتفاء عهده بركوب البحر، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليهم بجرعات من

الخمير يشربها المتاعون فتهْدَى من روعهم؛ لأن المسلمين يحرمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمداواة داء من الداءات.

وكننت عندما اعتنقت بخنس قد راعنى تصاعد ريح الخل منه، فأنفتت من ذلك، وعجبت له، ولم أستطع كتمان الأمر فى صدرى، فلما سألته، قال إنهم أمروه مثلما أمروا كل من على السطح من خدام الصواري بشرب ماء البحر ثم تقيؤته، وبعد ذلك طلوا وجوه الجميع بالخل، وكل ذلك بغرض دفع دوار البحر وآثاره المدوخة والضارة للنفس والبدن.

رحنا نتسامر، بينما معالم الفرما ترسم وتتوضح لنا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشدت نورها، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مطلق على البحر، وبدا لى أن بها أخلاطاً من الناس، كما وضح من حال الحماليين وأصحاب الركائب، الذين هم من البدو والعرب والأقباط، فأعلمنى بخنس أنه كان قد قرأ فى بعض الكتب، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليها البحر، ويقال: إن فيما غلب عليه البحر مقطع للرخام الأبلق، وأخبرنى أيضاً أن مما قرأه عنها أن أحدهم شرع فى هدم أبواب من حجارة كانت شرقى الحصن ليعمل منها جيراً، فلما قلع منها حجراً أو حجرين، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوه من قلعها، وقالوا: هذه الأبواب التى قال الرب فيها قولاً مقدساً على لسان يعقوب؛ فلا يجوز هدمها.

ما حييت لن أنسى صورة بخنس وهو يحدثنى عن الفرما بينما نحن جالسان على الرمال، والأزرق المديد أمامنا بلا حد يفوقه غير حد الحزن فى عيني بخنس شديديتى السواد، بينما تعبير شامل من الأسى قد هيمن على وجهه ذى الجبين العريض والأنف الأشم المرتسم تحته شارب داكن ولحية خشنة خشونة شعر رأسه، فبعد ذلك الوقت لم أر بخنس، ولم تتكرم الأيام على بلقياه مرة أخرى أبداً، ولقد سألت عنه مراراً، بعد ذلك، كل أولئك الذين يمكن أن يكونوا قد صادفوه، ولكن دون جدوى، وتضاربت رواياتهم حول موضعه ومصيره، فمن قال لى مرة: إنه سقط أثناء مسيرنا فى البحر من فوق أحد الصواري فابتلعه الماء فى التو ومن قال



لى: إنه شاهده وهو يساق فى جملة الأسرى الذين سيقوا إلى دمشق. وهكذا ظل اختفاء بخنس وعدم وقوفى على مصيره، لغزاً يعذب روحى حتى يومى هذا.

كنت فى البداية أظن أنهم سوف يسوقوننا مباشرة إلى مقر الخلافة ببغداد، لكن بخنس أخبرنى قبيل فراقنا ونحن فى الفرما أنهم سيذهبون بنا إلى أنطاكية، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفة سيؤخذ جلهم إلى دمشق، وقال إنه سمع بعضهم يقول: إن الخليفة أمر بهدم كل الكور البشمورية المنتفضة ونواحيها، وحمل كل من تبقى فيها من الناس على السفن، وأنه كان قد جاء إلى مصر لتهدئة فتنة العرب الذين استقروا فى الغرب نواحي الإسكندرية ولوبية، وهو يخشى أن يتكرر ما جرى بعد عودته إلى بغداد، فتثور الفتن من جديد ويتحد العرب المنتفضون مع الأقباط مرة أخرى، وأنه خير رؤساء الكور المستسلمين فى الرحيل إلى واحدة من بقاع عدة بأرض الخلافة، فاختاروا مدينة أنطاكية العظمى، التى بها أعظم كنيسة فى سائر أرض الخلافة، وكان اختيارهم أنطاكية؛ بسبب تقارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسة أنطاكية هذه، وضعف الخلف بينها وبين الكنيسة القبطية فى مبادئ العقيدة.

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قاموا بتعليق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشب والنطرون حول المراكب من الخارج؛ وذلك لدفع أذى النفط، إن وجد من تسول له نفسه الاعتداء على السفن من لصوص البحر، أو عساكر الروم البحرية الذين كانوا ما يفتأون يجوبون ذلك البحر خصوصاً أثناء الليل، وقد احتاطوا لذلك أيضاً بالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمى المعجون بالخل، فكل ذلك يقاوم فعل حرايق النفط هذه، وقد راقبوا الأمتعة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها، وكان من الممنوعات عدة ديكى، أراد رجل مرتحل معنا من الفرما أن يأخذها فى أففاسها معه؛ بسبب أنها مما يستخدم فى الصراعات المحببة إلى الناس هناك، وهى تجلب لصاحبها من اضطراعاها فى الأسواق المال الجيد، غير أن العساكر أصروا على إجباره على تركها، إذا كان يريد السفر، حتى لا تصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمغيرين إذا ما أغاروا أثناء الليل، فأثر الرجل

عدم السفر والبقاء مع طيوره التى قال إنها لا تقدر بمال، وإنها عزيزة عليه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش، لملاقاة بعض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهند، فحملوا بعضهم معنا كما سمعت من بنيامين الصورى، الذى قال أيضا: إنهم صعدوا محملين بنفائس من الحرير والعمود والتوابل والورق السمرفندى المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد سيذهبون بها إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية وبلاد البنادقة. ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغف خلال ذلك إلا سويغات قليلة، عندما كان الرئيس يسمح لى بوجبة نوم قصيرة يحل غيرى خلالها محلى فى عملى، وهكذا وجدتنى بين عشية وضحاها أركب البحر عابراً المدن والبلاد، وهو ما لم أتصوره أبداً ولا حلمت به يوماً، فصرت كمن يعيش وهماً لا حقيقة، حتى أننى عندما كنت أخلد إلى النوم، كانت تأتيني المنامات والأحلام الغريبة التى تخلطُ زماناً كان بزمان آت، على نحو أتيقن معه مدى ضياع روحى ووقوعها فى جب اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم قبيل الفجر بعد انتهاء نوبتى فى العمل، فرأيت فى لطيم موج الحلم أن ثاونا وأمونة وسويلا وشابة أخرى بيضاء فارعة الجسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرها، قد وقفوا جميعاً على شاطئ بحر صاخب الموج، مضطرم، وهم يلوحون لى أن تعال إلينا، فرحت أسبح مجتهداً فى الماء العاصف محاولاً الوصول إليهم، لكننى كلما كنت أحاول الاقتراب منهم لا تمكننى قواى ويأخذنى الموج بعيداً عنهم، فأعيد الكرة من جديد دون جدوى، حتى يئست وتعبت، فرحت أبكى وأنتحب بمرارة، وبينما أنا على هذى الحال من اليأس والقنوط، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهرة، وإذا بالفتاة التى كنت قد رأيتهام تطلع من داخلها، أثيرية نورانية، هيولية التجسد وكأنها ملاك من ساروفيم السماء، ثم إنها راحت تدفعنى دفعاً فى الماء بكل لطف، حتى صيرتنى على الشط، وكل ذلك دون أن تمس بدنى أو أشعر بلمس أناملها لجلدى.

كان شوقى لرؤية سويلا يزداد كلما توغلنا فى السير قاصدين أنطاكية، فللبحر وشيش وخفخفة، وزمزمة وهدير وصخب وزمجرة، تَوَرَّق الشجون وتعصف بالقلوب، فكنت أتمنى على الله أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكون، وكانت دموعى تسيل حيناً، رغماً عنى، لفرط شوقى إليها، بينما كان كل من حولى يظنون أنها تسحّ حسرة على حالى، أو أن مقلتى لا تحتملان شدة النار وسخونتها، وبينما كنت أعمل فى ليلة من الليالى، وقد أوشكت نوبتى على الانتهاء، إذ بمن يدخل علينا من الحراس فى موضعنا بالوقايد، وينادى طالباً أباً قبطياً فى الحال، ولما لم أكن سوى قيم فقير إلى الله فى بيعة من البيع ذات يوم، لم أرد، بل واصلت عملى بكل انشغال، لكن الرجل لكزنى بقدمه، وقال: أيا أنت، ألم تقل إنك كنت من أهل الكنيسة فى مصر العتيقة، فما بالك لا ترد؟ ولماذا تصاب بالخرس وتتجاهل الأمر، وكأن بك صمماً، أو كأن الأمر لا يعنيك؟ قلت لروحي: حمداً لله لقد آمنوا وصدقوا الآن أننى من أصحاب المنجلية والعبادة، ولست من أهل السيف والرماية. فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيداً قوله بأى نعم، حتى أمرنى بالوقوف وبالسير وراءه فى التو والحال، فمضيت خلفه صاعداً إلى سطح الحراقة، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال، فوجدت سويلا راقدة بينهم على الأرض، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجائز وهن يبكين وينتحنن ويندبن الندب القبطى المعروف، أما هى فكانت مسبلة العينين، تعاني سكرات الموت، فلم أتمالك نفسى واندفعت تجاهها أخذاً رأسها بين يدى وأنا أهتف بلهفة: سويلا سويلا، ورحت أكرر ندائى لها كمن أصابه مس من الشيطان، فلم يعد يقوى على السكوت والجلد، فما كان منها إلا أن فتحت عينيها قليلا، وأومأت برأسها بصعوبة مشيرة إلى صدرها، فلما نظرته على ضوء المشاعل المتراقص بفعل ريح البحر الغاصبة، وجدت صليبي متدلياً من عنقها وقد استقر عليه، فلم أتحكم بمشاعرى وشهقت شهقة ملتاعة سمعها الجميع، ورحت أنتحب رغماً عنى، لكنها عاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خذه. فرحت أمسك براحتها، وأمسح وجنتها، ولسانى يتمتم بآيات الرب: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم، إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب؛ لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظم المعيشة

ليس من الآب، بل من العالم. والعالم يمضى وشهوته، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد. .

وظللت أتلو وأصلى وأنا فى غاية الأسى، وقد تذكرت وقت موت آمونة، وكيف كانت راقدة ممددة أمامى كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

« ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب؛ لأن الرب كثير الرحمة ورعوف. »

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله: « هو ذا الديان واقف أمام الباب. هو ذا الديان واقف أمام الباب، وجدت سويلا تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية، ثم مالت برأسها ناحية الأفق البحرى حيث جئنا من بر مصر وهى تحرق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسية، فأدركت أن ملاك الموت قد حل عليها وسوف يرتحل بها. وجمدت الدموع وتحجرت فى عيني، وقد بدأت أثوب إلى رشدى، وبراحتى أسبلت جفنيها، ورحت أوصل قراياتى الربانية وأنا أريح رأسها على الأرض، وسرعان ما طلب الحراس منى أن أنتهى سريعاً حتى أعود إلى عملى، فلعلت الصليب من رقبتها وضممته فى يدي وأنا أقبله، ووقفت متوسلاً إليهم أن يشركونى فى مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة؛ لأكون آخر من يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنوا أننى من أهل الكنيسة؛ لأن معاملتهم لى لانت قليلا، ثم إنهم لما بدأ الفجر يلوح فى الأفق، أتوا بعدة جثث أخرى من مواضع متباينة بالحرقاة، فبلغت الجثث التى عددها إحدى وعشرين جثة، بينها أربع عشرة جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض، ثم طلبوا منى أن أصلى عليهم صلاة التجنيز، فأخذت أتلو ما تيسر من الآيات وأدعية المغفرة، بينما رحت أصلب عليهم واحداً واحداً وأنا راكم خشوعاً وتأديباً، ويدي تمسحهم - وليغفر الرب لى - عوضاً عن غياب الميرون المقدس، طالباً لهؤلاء الأبرار جميعاً كل رحمة ومغفرة، وبينما أنا مستغرق فى كل هذا بهمة وإخلاص، إذ بصوت مؤذن يتعالى حنوناً شجياً بالأذان، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسلمين، كانوا قد ودعوا الدنيا كذلك، ووضعوا على

جانب من الطرف الآخر للحرقاة ، فلما فرغت من صلواتي، انتظرت حتى فرغ الناس من الصلاة على المسلمين المتوفين أيضاً، ثم بدئ إلقاء الموتى فى الماء، فعددت عدد الرميات المجتمعة من كلا الجانبين، فوجدتها قد بلغت ثلاثاً وستين رمية، يصدر عن كل منها صوت مهيب رهيب ، وكأنه انطلاقة واحدة من المنجنيق، وذلك وقت بلوغ الجسد الإنسى الماء وارتطامه به، ولسوف أظل حتى حين حينى، ومواراتى التراب، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر، ولا مشهد الأفق البحرى المهيب وهو يزرع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويداً رويداً إلى الفضاء، فبدا كل ذلك مما يحفر فى الذاكرة، وهو يدون بقلم الحزن الرهيب فى أعماق الحس والشعور.

كان الحراس، وكل من حضر ذلك الوقت على سطح الحرقاة، قد وقف واجماً خاشعاً، تطل من عينيه نظرات الأسى وكأنه يتأمل قوة الموت، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسره العجيب، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا، ففاضت قيعان نفسى بألم شفيف، وتسارعت دموعي تنهمر مرة أخرى وقد بدت لى صوصوات تلك النوارس ضرباً من النوح ذكرنى بترنيمة قديمة كنت أسمع أُمى تردها كلما فاض حزنها لأمر من الأمور، وهى تقول:

صيرنى حزنى على أحببى      عللاً بلا عللة  
وكاد الأسى والنوح      يخرجنى من الملة  
ودهر يروح يا عين وشوقى      لخلى لا توصف له خللة

وبقيت دموعي تسح حيناً حتى بللت صليب سويلا فرحت ألثمه بشفتى حسرة وألماً.

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على العشر أيام، لاحت لنا أنطاكية عن بعد. كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافة حيناً، حتى تتزود بالميرة والوقود، وكان البحر قد عاكسنا وقتاً؛ فزمجر وهاج، حتى إن سلورة من السلالير كادت أن تنقلب، لولا عناية الرب ورعايته

لنا، وكان فى حين آخر سلساً هادئاً، فسارت السفن دون عُسْر أو خوف، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين، كذلك الحوت الصغير الذى ظهر لنا مرة، فسارح البحارة والنوتية بصيده، وكانوا غاية فى السرور والبهجة، فعدا الفائدة المرجوة من لحمه الذى يؤكل جانب منه، له فوائد أُخرى، وقد راحوا يطبخون أكثره فى قدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحماً مذاباً، يستخدم فى قلفطة السفن وسد خروق أخشابها، وقد أخبرنى بذلك بنيامين الصورى، وأضاف أن أكثر ذلك إنما يعمل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر.

فلما بدأت السفن فى دخول البحر الأنطاكى، وثبت أمان التفسير، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم، أو لصوص البحر، رفعت البنود والرايات السود، وهى علامة الخلافة، إلى أعلى حدود الصواري، وانتابت الجميع، رغم التعب والحزن والألم، أحاسيس الفرح بالسلامة، ونشط كل إنسان فيما بين يديه من مهام ليطمئنها على خير وجه، قبل الرسو والنزول الأخير من السفينة.

عندما أنزلونا البر الأنطاكى، قال بنيامين: إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال. فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ربما كان قلعته العالية المشيدة على نتوء جبلى عظيم العلو، ثم بدا لى سور المدينة، والحق أقول إننى لم أشاهد سوراً مثله فى الضخامة والارتفاع من قبل، وقد عرفت بعد استقرارى بأنطاكية أن لهذا السور ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويستبدلون فى السنة التالية، وهذا السور مبنى على السهل والجبل وهو عجيبة من العجائب.

وكان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا، وقد قيل وقتها: إن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا؛ لأن البرق الشامى كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة بعد الذى جرى فى الكور البشمورية والأراضى الموحلة، فصار الناس يهللون لمقدمنا، ولم أدر ساعتها أهلّوا بسبب نصرة خليفة المسلمين، أم لأنهم من أهل الملة مثلنا وعلى جادة المستقيم فى حب المسيح؟ وقد علمت بعد ذلك أن بطرك أنطاكية رحّب كثيراً بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة.

ثم إنهم ساقونا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقون عليها بيعة القسيان؛ وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنا مجدداً في سبيل إرسال من يشاءون إلى بغداد، واستبقاء من يريدون استبقائه في أنطاكية، وإرسال بعض الأسرى لبيعهم في سوق النخاسة الكبير بالشام.

وجدت أن البيعة مهيبة، ذات أسوار ضخام، لبابها العالي صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار، يعمل كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة - كما أدركت فيما بعد - فلما ولجت منه، أى الباب، ودخلت مع الداخلين إلى باحاتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يحصى، ثم إنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكتاب جاءوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعد إحصائنا، وذلك ما عدا النساء والأطفال الذين كان يجرى حصرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم، فمن كان من أهل الحرب جنبوه في ناحية، ومن كان من أهل الزرع والحرف المعاشية وضعوه في ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن يتركوا شيخاً أو شاباً أو صبيّاً أمرد، ثم إنهم بعد أن تمموا عملهم وزعوا على الجميع الزاد والقوت، فجلسنا نأكل، وبعدها تركونا نغتسل في حمامات السبيل، وهى المنشأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمساكين، فلما دخلت الحمام وجدت أن ماءه عذب سيح، ووقوده من خشب الآس الجيد، فتطهرت وحمدت الله على كل حال حمداً عظيماً.

كان الفرازون قد ترددوا طويلاً في تصنيفي وتجادلوا زمناً حول حقيقتي، فمنهم من كان يرى أننى كاذب دعى على الكنيسة، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البيع في سوق النخاسة، أو من الحشر في زمرة الفلاحين، وكان آخرون يرون أننى من أهل الكنيسة حقاً، فلا يجوز أن يتحمل وزرى أمام الله يوم القيامة عندما يسأل؛ لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيراً، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الذين سألت أدعو لهم بالخير والصالح ما حييت، فقد رجحت كفتهم في النهاية، خصوصاً عندما أشاروا بضرورة مثولى بين يدي آباء الكنيسة، لحسم

أمرى بالاختبار والوقوف على حقيقة درايتى بالديانة، وقد سارعوا بذلك بعد أن أكلت واغتسلت مثل الجميع، فأدخلوني فى قلاية على بعض الآباء والذين يطلق العرب عليهم قساوسة، وقد كانوا ينعتون كل من ارتدى مسح الكنيسة بهذه الصفة، فلما دخلت عليهم رحبت أجار بالشكوى لهم مما حل بى، لكنى أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله؛ لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، ليست كلغة العرب، ثم كان بينهم شيخ طاعن فى السن، طلب منى الكلام بحكمة وهدوء، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتي، وكان العسكر إلى جانبي وقوفاً، وأنا بين أيديهم ملتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ، أخذ يسألنى سؤالات عن أحوال البيع فى مصر، ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها، وكنت أتعجب خلال ذلك وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام؛ لأن سؤاله كان بلسان قبطى لم يخل من لكنة غريبة، وبدون أن أتمالك نفسى وجدتني أندفع - وليغفر لى الرب - وأسأله بلهفة عارمة:

- هل أنت قبطى يا سيدى؟

بدا الرجل لى طبيباً دينياً ذو سحنة سمحة، وقد تأكد لى ذلك عندما رد علىّ قائلاً بهدوء :

- كلنا عبيد الله يا ولدى . أمى أمها قبطية .

ثم إنه خاض معى فى سؤالات عن الصلاة والصوم وشؤون العقيدة والسبوت والذى يصح فيها، فقلت له: إن «السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت». فابن الإنسان هو رب السبت أيضاً . وهذا ما قاله المخلص ورويت له قصة هذا القول كما وردت على لسان مرقس الرسول والتي كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواها لى عزيز عينى ثاونا، إذ أن السيد اجتاز فى السبت بين الزروع، فابتدأ تلاميذه يقطعون السنابل وهم سائقون، فقال له الفريسيون: « انظر. لماذا يفعلون فى السبت ما لا يحل؟ فقال لهم: أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه؟ كيف دخل بيت الله فى أيام إيبائثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضاً .»



فلما سمع منى ذلك، خلت أنه قد ابتسم قليلاً وهز رأسه موافقاً، ثم كلم العسكر بلسانهم العربى أن يتركونى لأنه سيقبلنى فى البيعة، ثم كلم الآباء بلسانهم الغربى على فتركنى العسكر فى القلاية ومضوا لشؤونهم.

مكثت زمناً أعمل قيماً ببيعة القسيان فى خدمة الأب توما، ومسؤولاً عن شؤونهم بقلايته المخصصة له بأحد بروج البيعة، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مكرسة فى بروج البيعة العديدة، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين فى الأسفل، ومن خلال عملى هذا تعرفت على الكثير فى هذه الكنيسة والتي بدت لى مختلفة فى كثير من الأمور عن كنيستنا القبطية، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الرب فى هذه المعمورة، فأهل البيعة من الآباء وسائر الأكليروس يعيشون فى رغد من العيش على العكس من كنيستنا ببر مصر، ونظام الخدمة هنا مختلف فى أمور عدة عنه فى مصر، ودستور الإيمان كان يتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكان التائبون الذين يأتون من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمدون بغطاة واحدة، والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يقبلون كالأمم، أى فى اليوم الأول يعدون مسيحين، وفى اليوم الثانى موعوظين، وفى الثالث يستقسمون بالنفخ فى وجوههم وفى آذانهم ثلاثاً، وهكذا يوعظون ويبقون مدة فى الكنيسة ويسمعون الكتب، ومثلهم المانيون. أما النساطرة فينبغى أن يعترفوا بالإيمان كتابة، أو أن ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا. وكان القرىبان يتناول باليديين وهما متقاطعتان، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس.

وكان القداس يبدأ بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرابين وتقديمها على البرويثسيس، ثم بقراءة الذبيخة، وكانت تشمل ذكر الأحياء والأموات من الباباوات وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل: «هلموا نسجد ونركع»، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون

وبيارك الشعب، وبعد هذا تقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يتلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادى الشماس بخروج الموعوظين، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الانديمنسى، أى القائمة مقام المائدة، ويصار إلى الايصون الكبير المعروف بدورة القداش، وفيه تدخل القرايين، وهى لا تزال غير مقدسة، إلى المائدة. والايصون الكبير، كما فهمت من الأب توما، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلة، أى المذبح، إلى القبر، أى المائدة، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ؛ وذلك لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقدسين مع المسيح الملك، وكنت أناثر للغاية عندما يتلى:

«أيها الممثلو الشاروبيم سرياً والمرمنون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحيى لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية؛ لأننا مزعمون أن نستقبل ملك الكل محفوفاً بالمراتب الملائكية - بحال غير منظور- هالوليا .»

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك؛ لأنها تمنع وقوع شىء من هوام الهواء فى أوانى الخدمة وهى تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة. وكان من الممنوعات فى بيعة القسيان، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلى الهيكل، أن يحنى أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالى؛ لأن الليل الذى يلى السبت يتخذ تقدمه لقيامه المخلص، ومنها تبتدأ النشائد الروحية ويقام العيد من ظلام إلى نور.

كان الأب توما من أحن الناس الذين عرفتهم طوال حياتى، وكان كريماً عطوفاً ديناً، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسطين وبيروت وأقريطش وقبرس، وعرفت أنه أمضى زمناً طويلاً بالبلاد المصرية عرف خلالها اللسان القبطى، أما ما كان يحببنى فيه كثيراً فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نغمات الموسيقى، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين - كما قال لى - مثل ما ابتدعه رومانوس المرتل الأبيروتى الشهير، وصفرونيوس من القدس، وأندراوس الأفریطى الذى ولد فى دمشق وخدم زمناً فى كنيسة القيامة، لكنه جنح حيناً إلى المونوثيلية ثم تاب، وكان الأب توما مولعاً بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرأها بعدما يدونها فى قراطيس مخصوصة، وكنت خلال عمله

فى التدوين أقف بين يديه لساعات حاملاً الشموع أو مليباً لطلباته، دون أن أجرو على النطق أو الكلام؛ لفرط تنبيهه أو انصرافه لما يقوم به، لكنى فى إحدى المرات جروء على الكلام وقد أكلنى الفضول، فسألته عن معنى ما يدونه من إشارات، فقال:

— ألا تعرف هذا ؟! ألم تر أهداً يدون ألعانا كنسبة فى بيعكم بقصر الشمع .

فلما أجبت أن لا، دهش وسأل مرة أخرى:

— وكيف تحفظون نعمات الئاذوكيات والئرائل الئلبة ؟

قلت بسرعة:

— لدينا المئلل والمزهر، ولعلك اطلعت على ذلك وقت إقامتك فى بر مصر، لكنا لا نستخدم مئل هذه، وكنت أقصد ما يستخدمه فى العزف، وهو آلة من أوتار عدة يقال لها -اللير- .

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة، هو المئئلف هنا فى كنيسة أنطاكية عن كنيسةنا فى مصر، فبيعة القسيان هذه التى تنسب إلى الملك القسيان، كما أخبرنى الأب توما والذى أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس الرسول، كانت لا تنقطع عنها المحاكمات الكنسية الخطيرة، وتعقد بين حين وحين؛ وذلك بسبب تفشى الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها، كما أن المئاميع اللاهوتية كانت كثيرة الحدوء هنا؛ لأن البيعة هى البيعة العظمى لساير المشرق سيريا، وكيليكيا الكرئية، وكذا بلاد ما بين النهرين .

وفى أهد الأيام، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجياز مينا والذى يقام فى كل أيام الصوم الأربعينى المقدس، ما عدا يومى السبت والأحد ويوم عيد البشارة، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقى للبيعة، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عدداً من الرجال والنساء، وقد أصابوهم بضرب مؤذ، إذ كان الدم يسيل من رؤوسهم وأنوفهم وأبدانهم، وما يتنكرون به من جلود حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها، فلما خرجت لأسئلى

الأمر مع جميع من خرج من أهل البيعة، علمت أن هؤلاء الناس وجدوا وهم يمارسون الطقوس الوثنية القديمة احتفالاً ببدء السنة الوثنية وفقاً للطقوس الممنوعة والتي تتضمن تكريم كرونوس KRONOS إله الزمان، وأن هؤلاء ضبطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثاني، والسابع عشر من كانون الأول، وهذه أسماء الشهور في أنطاكية - لشرب الخمر، وتغيير الأزياء والرقص وغير ذلك مما يشاع في عهد الوثنيين احتفاءً بعيد إله قديم يسمى باخوس. وما أن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة حتى سارع إليهم الآباء والرهبان وراحوا يشاركون المؤمنين في سب هؤلاء الرعاع، ويوسعونهم ضرباً وركلاً، حتى أصاب أكثرهم الإعياء وسقطوا على الأرض موشكين على التلف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين عقد محاكمة لهم، بسبب مخالفاتهم لما منعه الباباوات من قبل، وخصوصاً أن هؤلاء كانوا يقيمون الميومة أيضاً وهي ضرب من احتفالات الربيع، وكانوا يبقون النيران في أول الشهر القمري، ويتبادلون الألبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف، وكله من الممنوعات المشرعة كنسياً.

بعد انفضاض ذلك وخلودي إلى نفسى بالليل إثر انتهاء خدمتى، هاجت بداخلي ذكرى العزيز ثاونا، فرحت أستعيد صورته وهو يسلك مع الناس، ويدفعهم دفعاً عطوفاً هيناً ليناً للوصول إلى نبع الإيمان، لم يك يعنفهم أو ينهرهم قط، ولم أره يوماً مؤذياً لأى علمانى جاهل، لم يقف على حقيقة الديانة من قبل، وكان صبوراً، مثابراً في الرد على سؤالات هؤلاء، مهما كانت ساذجة سخيفة، تشوبها فجاجة في كثير من الأحيان. وجدتني فجأة أحادث روحى، بينما أتطلع إلى سماء غاضبة ملبدة بغيوم ليلية سوداء، عبر كوة قلابتى الضيقة، كان حنينى لبر مصر وسمائها الصافية المرصعة بالنجمات قد وصل إلى مداه، فسحت دموعى وأنا أردد كلاماً منظوماً حفظته عن ظهر قلب من بنيامين الصورى، الذى ما فتئ يغنيه بينما كنا عند الوقايد في جوف الحرافقة، فرحت أقول:

صبراً لدهر نال منك      فهكذا مضت الدهور  
فرح وحزن بعده      لا الحزن دام ولا السرور

كنت منقبضاً جداً بسبب مشاهد العذاب التي وقعت عليها عيني خلال اليوم المنصرم، فتهيجت مشاعري، وقد تذكرت ما رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضي البشمورية ببر مصر: الجثث الملقاة في كل مكان بعد القتال ولا تجد من يدفنها، الجرحى والمتحرقون الصارخون بآلامهم وأوجاعهم ومنهم من ينادى طالباً شربة ماء، فلا يعثر على من يسمع نداءه، النساء والأطفال وهم يسبرون بصعوبة ومشقة دون أن يتعطف عليهم أى إنسان يشعر ما هم فيه من عذابات، ثم ما جرى لآمونة وسويلا، واختفاء ثاونا الذى يأكل روحى السؤال عن مصيره، ثم ضياعى فى هذه البلاد الغربية التى ما كنت أظن يوماً أن قد مى ستطأها قط، وأخيراً كنيسة أنطاكية التى بدت روحها غريبة بالنسبة لى - عن روح كنيسةنا بعض الشيء، ولم أعدت طقوسها، ونظام الخدمة فيها يختلف عن نظام الخدمة فى كنيسةنا المصرية، فعندما كانوا يجرون سر المعمودية، كان الموعوظون يأتون إلى البيعة لابسين ملابس بيضاء، ويقصدون حوض ماء يغمرهم فيغطسون فيه ثلاثة دفعات على اسم أبى الأنوار وابنه والروح القدس، بعد أن يكونوا قد جددوا اعترافهم بالإيمان، وأقروا بأن لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التى كانوا يعبدونها، أما بالنسبة لعديمى النطق، أى الأطفال، فكان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم، بحسب مبادئ الإنجيل، أشخاص فضلاء يدعون أشابين، أى وكلاء، وهؤلاء عند المعمودية يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان.

مرت أيام كان خلالها يجرى التجهيز لطقس اعتراف الذين جرى سجنهم بعد أن عذبوا حتى أعلنوا توبتهم وندامتهم، وهكذا جىء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة فى الصباح، وبدوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال، وجرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف، صف الباكين، وقد وقف عند مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الداخلين إليها ليصلوا عنهم، وصف السامعين، وكان هؤلاء مسموحاً لهم بدخول الكنيسة، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايا الأولين، على أساس أن يكونوا فى موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم

صف الراكعين، وكان يتوجب عليهم الإقامة مدة الصلاة ركوعاً، ويلي ذلك صف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكل ويشاركوا المؤمنين في الصلاة، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك، لما سألته، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جعالات ذهبية إلى الكنيسة في حالة تخفيف الأمر عليهم، كما علمت أن هؤلاء جميعاً، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم، تقدم من معبرين إلى الكنيسة.

و على رغم تعجبي من كل ذلك، وعدم ابتلاعي لكثير مما يجرى في بيعة القسيان، إلا أنني لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلاً من كثير سوف أعيش حتى تراه عيني وتستشعره نفسي.

ففى إحدى الليالى الربيعية وبعد قدومى إلى البيعة بحوالى سنة وكسر، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر، وكان نيسان بلغة السريان، واستمرت فى تواصلها، زحمت السماء ببرق ورعد أكثر مما ألف وعهد وسمع عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ثم وقعت فى الحال صاعقة على صدفة مخبأة فى مذبح البيعة، ففلقت من وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نحت بالفأس والحديد الذى تنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوباً من علو على هذه الصدفة وبقي فى المكان الذى سقط فيه، وانقطع من الصدفة قطعة بسيرة، ونزلت الصاعقة من منفذ فى الصدفة، تنزل منه إلى المذبح سلسلة فضية غليظة يعلق فيها التيموطلون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعت السلسلة قطعاً كثيرة وانسبك بعضها، ووجد ما انسبك منها ملقى على وجه الأرض، وسقط تاج فضة كان معلقاً بين يدي مائدة المذبح، وكنا قد هرعنا جميعاً إلى موضع الخدمة بالكنيسة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة، فكان مما وجدناه أن الثلاثة كراسى الخشبية المربعة فى غربيها، والموضوعة على علو قد سقطت عنها، وقلعت صلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتي كانت منصوبة عليها، بينما

انكسر الكرسيان الطرفيان ونشظيا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح وإلى خارجه من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر في السلسلة، ولم ينل الكرسي الوسطاني ولا الصليب الذي عليه شيء، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطي مائدة المذبح ثوب ديباج ملفوف على كل عمود، فتنقطع كل واحد منها قطعاً كبيراً وصغاراً، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عف وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يلحق المائدة، ولا شيئاً من هذه الملابس التي عليها، ضرر ولا بان فيها أثر.

غير أن من المصائب التي جرت، انقطاع بعض الرخام الذي بين مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس، والنورة كقطع الفأس، وكان من جملة لوح رخام كبير طفر من موضعه فتكسر إلى علو تربع القبة الفضية التي تغطي المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطايرت بقية الرخام إلى ما قرب من المواضع، وكان الأب توما أثناء ذلك حاملاً فراخ قناديل زجاج، محاولاً إنقاذه والهرب به بعيداً عن موضع التكسير، لكن شظية من الرخام خبطت القنديل فتكسر لتمسك النار بقميص نومه المصنوع من الخزّ الخفيف اللين، فتحول في لحظات إلى ثوب من لهب، فما أن رأيت ذلك، وكنت وقتها مشغولاً بإنقاذ منجلية قديمة مصنوعة من خشب الأبنوس ومطعمة بالفضة والعاج، حتى تركت ما بيدي وجريت ناحيته، وكذا فعل كل من كان بهذا الموضع من أهل البيعة ورأى النيران تمسك به، ورحنا جميعاً نحاول إطفاءه، فرمينا عليه زريبة صوف مما يفرش في أرض الكنيسة لمنع الهواء، وكذا طيلساناً مبلولاً، ثم حملناه سريعاً إلى فناء البيعة ووضعناه تحت سيل المطر المنهمر، إلا أنه سرعان ما وإفانا بعض من عبيده بسطل مملوء بولاً، وسارعوا بصبه عليه من أعلاه إلى أسفله بعد أن أخذناه مرة أخرى بعيداً عن المطر، وقد دهشت لفعل النجاسة هذا كثيراً، لكنني عرفت بعد ما هدأت الأمور أن ذلك مجرب ومفيد جداً في علاج الحريق.

بقي الأب توما عدة أيام يصارع الموت، فقد تحرق معظم جلده ولحمه ورأسه، وغارت النار إلى بعض أحشائه، وسملت عيناه، وكان آباء البيعة المشهور عنهم

الحكمة والطبيب، قد بذلوا كل علمهم فى الحكمة وال مداواة لأجل شفائه، فعالجوه بالماهر المعمولة والعقاقير المخصوصة، أما الشماسة والقسس فقد سهروا على رأسه بالقرائات الإنجيلية والأدعية الربانية الشافية، فبدا لحين أنه يتحسن ويتعد عن التلف، ولكنى كنت - وليسامحنى الرب - غير مطمئن إلى ما سوف يكون عليه حاله، فما أحد منهم صنع حجاباً أو قرأ مقروءاً يفيد حالته، فلما تسلسل فى المرض أشرت عليهم بكل تواضع وأدب أن نفعل له ما فعلناه يوماً ببر مصر مع المحروقين فى المعادى وقت ربح الحسومات، فقد أشعلت الريح، هذى وكانت شديدة متربة أكثر من عاداتها كل عام، النيران بأكواخ بعض من أصحاب المعادى على النيل، فتحرق بسبب ذلك كثير من الناس، فذهبت مع ثاونا وآخرين من البيعة فى قصر الشمع إليهم، وكان ثاونا يعالجهم بعصارة العُمت الأسود ويعر المعز المحروق المختمر جيداً وليخة الخرنب، مع عزيمة تقرأ على موضع الحرق، وكنت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ترديدى لها، وهى:

«حوريس يا ابن الشمس، النار فى البلاد، فإن كان هناك ماء أو لم يكن، فالماء فى فمك والنيل فى أرجلك متى جئت لإطفاء النار» .

وكانت هذه العزيمة تُقرأ أيضاً على لبن امرأة ولدت غلاماً وعلى رقيق خبز وعلى صوف كبش، ومجتمع ذلك يوضع على الحرق كلبخة فيفيد للغاية، غير أن الجميع هنا فى كنيسة أنطاكية رفضوا ذلك كله، بل ظهر من سخر من ذلك، فتأسفت أشد الأسف لعدم تقديرهم لما هو مجرب، ومتبع منذ أقدم الدهور، ولعدم تصديقهم إياى فى ذلك، ثم إن الأب ثوما تسلسل فى المرض ودخل شيئاً فشيئاً فى زمن الغياب وحيز الضياع والتلف. وقد أعقب ذلك بوقت قصير حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعة وسمع صوت هائل من السماء، ووقعت بنايات كان قد بناها الملك يوستينوس ومات تحت الردم خلق كثير قليل إن عددهم أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون رجلاً، وكل من تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى، وغرقت مراكب بالبحر بسبب المد، ونفقت بهائم، وفسد مد القمح المخصص، والذى كان يرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة



وثلاثين ألف مد، وحدث في أعقاب ذلك أن كثرت الفقران بالمدينة، وخصوصا ذلك النوع العظيم كالودل الذى لم أره فى أى بقعة غير أنطاكية، وأتلف كثير مما تبقى من الزرع بعد الزلزلة، وقد خافت الناس وتضرعت إلى الله ألا يبلى المدينة بطاعون من الطواعين التى تتلازم مع كل ذلك.



ألحقوني بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل، وكنت قد تعرّفت عليه لماماً قبل ذلك، فقد كنت أرى ذلك الشيخ ذا العينين المحولتين دوماً، والندبة الغائرة في جبينه يتودد إلى كلما رأيته عابراً بدهاليز الببيعة أو ماضياً بساحتها لأمر من الأمور، فيبتسم ويحييني وهو يرسم علامة الصليب مباركاً لى، وفي ذات مرة استوقفنى قائلاً :

- لى رَقَّ قبطى قديم. هل جئت ساعة إلى قلايتى لتقرأه لى بعد انتهاء خدمتك.

فرحت جداً لأننى وجدت شيئاً يذكرنى بوطنى، هنا فى أنطاكية، فقلت متلهفاً دون أن أكتم مشاعرى :

- سمعاً وطاعة ياسيدى. سأتى إليك بعد الغروب عندما أفرغ من مطالب الأب توما، ويأذن لى بالانصراف إلى موضع سكنى. ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى بتفحص، وسرور، ثم أردف:

- تعال. ولسوف أدعوك إلى أكلة حلاوة حمراء ربما لم تذق مثلها من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلنى شيء من عدم الراحة آنذاك، رغم شوقى لأكل حلاوة سد الحناك التى يطلقون عليها هنا فى أنطاكية حلاوة حمراء، ورحت أتذكر كيف كانت تعدها أمى لنا فى المساء ليلة عيد الغطاس، وكيف كنا نتحلق حولها أنا وأخوتى بينما هى تحمّر الدقيق فى لية الخروف، وتضيف إليه شيئاً فشيئاً شراب

السكر حتى يحمراً ويتحرق وتتصاعد رائحته شهية محببة إلى أنوفنا، فنأكله ساخناً حاراً في عز برد طرية العنيف، كانت نظرات الأب ميخائيل هي التي أحرقت شيئاً ما بداخلي، خلال تلك اللحظات التي استوقفتني فيها، فمضيت بإحساس الملسوع مسرعاً إلى قلاية الأب توما، أخطف خطواتي خطفاً، عابراً فناء الببيعة، فلما أدركته وحكيت له ما كان من أمرى مع الأب ميخائيل، ورحت أستأذنه في الذهاب إليه بعد انتهائي من خدمته. حدجني بنظرة طويلة باردة متسائلة، وكأنه يبطن شيئاً بداخله، ثم قال بامتعاض لم أعهده فيه من قبل:

- ستكون مشغولاً معى بعد الغروب، لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعداداً لمحاكمات سوف تعقد في الغد.

ثم قال بإصرار :

- إياك أن تتخلف عن هذا.

كان الأب ميخائيل، قبل انتقالى إلى خدمته، يبدو لى إنساناً هادئاً وديعاً، رغم عدم ارتياحى له، لكنى عندما اقتربت منه وعاشتته، تكشف لى عن كائن غامض غريب الأطوار، وشيئاً فشيئاً أيقنت أنه شيطان قاسد الخلق بحق، فقد كان يدهن وجهه وراحتيه كل مساء، وقبل أن يخلد إلى النوم، بمعجون من الزيد والعلس، كما كان يتعطر بزيت فواحة كالتي تتدلك بها النساء، ثم إنه كان يبيت بقمصان بلا أكمام فى العادة وذلك خلال الليالى الحارة، وفى أحد الأيام صرفنى مبكراً وظل بصحبة أحد الفتية الحماليين الذين يجلبون الأخشاب من الغابات الواقعة بالجنوب الغربى من المدينة، وبعد قليل من التحاقى بالخدمة، بدأت ألاحظ أن كثيراً من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثناء الصلاة، أو يجلسون ناحيته أثناء العشاء، وفى إحدى المرات، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجأوا إلى السحرة والمشعوذين، وكذلك رجل كان يعرض الدببة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازا، وطالت المحاكمة لكثرة المخالفين، إذ كان هناك رجل تغيب عن الاشتراك فى صلوات الأحاد ثلاث مرات متتالية، رغم أنه علمانى وليس من أهل الكنيسة، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقيقتا فى

أثناء صلاة عيد القيامة، وجماعة من تجار العطور أتلفوا الكتب المقدسة وباعوها ليصنعوا منها أبواقاً، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالي بسبب دخول المساء، جرى عند موعدها بامرأة ورجل، وكانت المرأة صبية في قمة الجمال، وقد أدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة معاشاً لهما، بعد أن يرسمها ويروجها، وقد أدينت المرأة أيضاً لأنها كانت تتفنن في ترتيب شعر رأسها للفت النظر والإغواء، فلما صدر عليها الحكم، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل - أى أن يحكم على إنسان لمثل هذه الأمور - لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكناً واجماً، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع من كان حاضراً من الهيئة الكنسية، فقد صار لغط كثير وتزاعق بسبب أن المرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهما، بل وسبا الكنيسة وقالوا إنها تحرم ما أحله الله، وإن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفقا في لذائذها، وإنه لو لم يرد أن تتمتع النساء بالرجال، والرجال بالنساء، لكان قد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط، وكلام آخر من هذا النوع ملئ بالهرطقة والكفر مما يشيب له الولدان، فلم يتمالك الجميع أنفسهم، ثم إن هذين الشيطانين أنكرا صعود السيد السماوى، وقالوا إن البتول ما كانت بتولا، وإنها ولدت سفاحاً من يوسف النجار، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلك الحد وراحوا ينتفون لحاهم غيظاً وغضباً، بينما أخذوا يلطمون ويولولون كالنساء، وأوشكت جماعة من المؤمنين الحاضرين على الانقضااض على الرجل والمرأة للفتك بهما، لكن الحراس حالوا دون ذلك، كل هذا والأب ميخائيل واجم صامت، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه.

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلى كلما مضت أيامى فى خدمة الأب ميخائيل، إذ كان يصر على أن أقوم بتكبيسه وتدليكه كل ليلة قبل أن ينام، متذرعاً بوجود آلام بلحمه وعظامه تتزايد أثناء الليل، ولا تزول عنه إلا بالتكبيس، ورغم كراهيتى لهذا العمل إلا أننى كنت أقوم به ولو على مضض؛ بسبب دأبى على طاعة الآباء وعدم عصيانهم، وذات ليلة، وجدت الأب ميخائيل يلاطفنى بالقول،

ثم يدعوني لشراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كل ليلة قبل النوم، فلما تمنعت، قال لى إنه ما فعل ذلك إلا بعد أن لاحظ كونى مهموماً يائساً، وكان على حق فى ذلك، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكر النفس، حزينا، وقد هاجت على الهموم وصعب على حالى، فلما قال ذلك خجلت، وأخذت منه الكأس تأدياً، ورحت أرتشف منه شيئاً فشيئاً، بينما هو يسكب من البطحة الموضوعة أمامه ويعب من كأسه عباً، ثم إنه شرب حتى بدا ثملاً، وتحامل حتى سعد سريره طالباً منى تدليكه، وهكذا رحت أدلكه بصعوية، إذ كنت خدراً ضعفاناً بسبب الكأس التى شربت، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ فى التأوه وافتعال التألم، ثم استدار رافداً على ظهره وطلب منى أن أدلك وركبيه وقد كشف عن عورته وموضع العفة فى جسده، فلما تمنعت وقد ألجمنى مطلبه، وجدته يقبض على يدى بكلتا يديه ويدفعنى دفعاً لملامسته وفعل ما لا أرغب فى فعله، فلما بلغ هذا الحد، دفعته بعيداً عنى وجريت هابطاً من قلايته بالبرج إلى موضعى لأفرغ ما فى جوفى، إذ كانت رأسى تدور، وأمعائى تتور، وحالة مريعة من الغثيان تتملكنى.

لم يغمض لى جفن فى كنيسة القسيان بعد تلك الليلة، إذ أخذت أسترجع كل ما يقال عن الأب ميخائيل فى البيعة، وما كان من أمره منذ مبتدأ اشتغالى بخدمته، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إلى بإشفاق دونما سبب أفهمه، كلما قلت، إننى صرت فى خدمة هذا الرجل، وفى إحدى المرات همس لى قِيم شاب ونحن نخدم فى ترميد جماعة من الأطفال، وكنت قد تعرفت عليه، أن أنتبه من الأب ميخائيل، فلما استحلفته، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارته، أن يقول لى معناها، أخبرنى وهو فى حالة من الوجل الشديد أن معظم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم، فمنهم من اختفى ولم يقف أحد على مصيره، ومنهم من مات فجأة، وأن سيرة الرجل هنا فى البيعة يشوبها كثير من السوء، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لؤمه وخبثه واحتياطه. ثم إنى تذكرت ما كان من أمر رحلتى معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية، فقد ذهبت فى تبعيته مأموراً إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من

الآباء الآخرين، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل، ولم أسمع بمثل ذلك أبداً في كنيستنا ببر مصر، وكان السبب في ذلك الانعقاد الكنسي الخطير، كما قالوا، هو أن شقاً قداماً قد ذر قرنه بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمانيون يشاغبون، فظلت المناقشات تتقدم، حتى أقرت قوانين تحرم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة، وتوجب على كل راغب في الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة، ومنع منعاً باتاً أن يقوم بطرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتم المدة القانونية فيها. فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات، وكان وقتها منعقد في كنيسة الحكمة الإلهية، تجمع خلال ذلك عدد من محاربي الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثيراً. ففتحوا أبوابها عنوة بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم محدثين هرجاً ومرجاً زاعقين صارخين، وحدث هرج ومرج كبير وتم التضارب بالأيدي والركل بالأقدام، وعطّلوا الجلسات بالقوة، وكان أمراً لم أسمع أو أر مثله من قبل، فبينما نحن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء مما يحدث، إذ الأب ميخائيل يدفع بي إلى ممر مظلم يؤدي إلى منابر الوعظ والإرشاد بالكنيسة، وكان الممر طويلاً، فبقيت أركض خلفه حتى وجدتني أصل إلى باب يفضي إلى موضع من القصر البطريركي المجاور للكنيسة، فما أن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلاماً، بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغروب بقليل والشمس في القسطنطينية بخيلة كما عهدتها طوال وقت إقامتنا، حتى وجدته يعتنقني ويربت على جسدي وكأنه يروم تهدئة روعي وإبعاد خوفي، لكنني وجدت في تربيته مبالغة لم أستسغها وخصوصاً بعد ما أخذ في ضمني واعتناقني، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل من هو في مثل مكانته وحرمته، وليس بهذا تكون تهدئة روعي وإبعاد خوفي وشملي بالسكينة والاطمئنان، فتملمّصت منه بلطف وذوق ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة.

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملني بقسوة وجفاء بعد تلك الليلة في أنطاكية، فلقد راح يطالبني بمطالب لم يكن يطلبها مني من قبل، ففي ذات مرة طلب مني الذهاب إلى الشمال الغربي للمدينة، حيث منطقة المستنقعات، لجلب بوصات

يديرها ويستخدمها في التدوين والكتابة، وكانت هذه المنطقة من المناطق غير المأهولة بالمدينة، وتكثر بها دوبيات وحشية مؤذية، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع، ولولا ستر الرب والمامى بطبيعتها؛ بسبب تشاكل طبيعتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية، لكنت قد هلكت فيها لا محالة.

وفي مرة أخرى، طلب منى إحضار أعشاب برية ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق خارج سور المدينة، وهي برية موحشة تكثر بها العقارب وهوام لاسعة من العناكب السامة وخلافها، كادت إحداها أن تفتك بى، بعد ما تشبثت بجلد قفای، ولولا شعورى وحساسيتى السريعة بها، لكانت صبت سمها فى دمی وتلفت لا محالة.

وهكذا، بت أستشعر الخطر من ذلك الشيطان، وقد أيقنت أنه يريد التخلص منى بأسرع ما يكون؛ لظنه أننى سوف أفشى سره وأفضحه كلوطى مرذول بين أهل البيعة.

لكن حتى ذلك كله، لم يكن دافعا لإقدامى على ما أقدمت عليه بعد ذلك، إذ أن الأب ميخائيل بدأ يضعنى فى ورطة بدا لى أنه لن يخرجنى منها إلا الموت، فقد خشيت أن يرمىنى بما يرمى به أولئك الذين لا رجاء فى حياتهم ولا نفع فى صلاحهم إلا بالنار المطهرة، ففى أحد الأيام، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب، قال لى بلهجة امرأة :

- بعد انتصاف الليل، وعندما تهدأ البيعة وينام كل من فيها، ستخرج بهدوء ماضياً فى المدينة، حتى تصل باب القديس جاورجيوس، وهناك سيقابلك شخص، ستعطيه هذا، ثم تعود كما ذهبت بهدوء. لن تقول له أكثر من القرفة السوداء تهديك السلام، فإن أعطاك شيئاً عد به، وإياك أن تلمسه أو تحاول معرفة ما فيه.

تملكنى الرعب، وأنا أمد يدى لأأخذ منه رقاً ملفوفاً وموصوماً بختم، وهو يطالعى بنظرات باردة متوعدة، تنبئنى بمغبة المصير إن أنا خالفته. لم أكن أعرف مسالك المدينة جيداً، فأنا أمضى جلّ وقتى بين جدران البيعة، ولم يكن مسموحاً لى بالتجول خارجها، أو الخروج منها لأمر من الأمور، وقد ذهبت مرة



أو مرتين إلى موضع باب القديس جاورجيوس، أثناء حياة الأب المرحوم توما، فلقد ذهبنا إلى هناك، ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكوراً ماتوا بعد قليل، ومرة أخرى للإتيان بمجموعة من الناس، قال الأب توما إنهم خالفوا جانباً من المئة قانون وقانونين، الذين شرّعوا في مجمع سنة ٦٩٢، وكانوا يربون الماشية ويشربون الخمر ويتناولون الطعام بداخل كنيسة موجودة هناك. رحمت أفكر في ذلك كله، وقد خفت أن أتوه أو أضلّ طريقى في العودة، حتى إذا نجحت ووفقت في الذهاب إلى الموضع الذى يريده فى دامس الليل وبهيمه، كما خشيت أن يلتقينى لص من اللصوص أو قطاع الطرق، فقلت له راجياً :

- لكنى يا سيدى لا أعرف كيف أصل إلى باب القديس جاورجيوس، ولا أعرف من هو الشخص المعنى برسالة غبطتكم على وجه التحديد.  
شعرت أنه على وشك افتراسى وهو يردّ بسرعة، دون التريث حتى أستكمل كلماتى:

- ستخرج من الباب الجنوبى للبيعة، ومن هناك ستسلك طريقاً واحداً عليك السير فيه حتى تصل إلى باب جاورجيوس، وقبل وصولك سوف تكون هناك علامة لن تجعلك تضل أبداً وهى الليمارستان، فعندما يصادفك، لا تترك السير حذاه. عند باب جاورجيوس ستلقى هناك أباً جليلاً، سوف يقرؤك السلام بلسان عربى، ردّ تحيته، وهات ما سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ شيء.

قلت محاولاً إيجاد عقبة تحول بينى وبين الذهاب.

- والباب ياسيدى ؟

صرخ بصوته المحشرج المخنوق :

- ستجد من يفتحه لك أيها الغبى. ثم إنه تردد قليلاً قبل أن يقول وهو يبتسم بخبث :

- لو حدث وصادفك شخص عند ذهابك أو مجيئك، فقل له إنك كنت عند بنت يحنأ.

أسقط في يدي، وكدت أصعق، كيف يمكنني قول هذا، لو حدثت وصادت  
إنساناً في طريقي، فبنت يحنا هذه مغنية معروفة بالمدينة تحن إلى القرباء،  
وتضيف الغرباء، وكان إذا أراد أحدهم في البية أن ينتقص من شأن الآخر  
يزدرجه، يقول له، ليت لي بنتاً تغنيني عنك، حتى ولو كانت بنت يحنا.

خرجت متسللاً من البية بعد انتصاف الليل، وقد هالني أننى وجدت الباب  
موارباً بالفعل دون أن يكون عنده أى إنسان، ثم إننى أخذت أسير متسارع  
الخطى، وقد تملكني الخوف العظيم، بينما كانت رؤوس الجبال تتراءى لى عن  
بعد وكأنها خلق شياطين مخيفة تطل على من عليائها على ضوء قمر شاحب  
تواريه غيوم قائمة بين الحين والحين، ثم وجدت نفسى أسير إلى جوار سور  
البيمارستان، كما قال لى الأب ميخائيل، فشعرت بارتياح ورحت أترحم على  
الأب توما الذى كان يدخل المرضى إلى ذلك المشفى بنفسه، ويدخل المجذومين  
حمامه ويغسل شعورهم بيده مرة كل سنة، يعينه على ذلك الشمامسة والقيمين فى  
البية، ثم إنى وصلت بعد حين إلى باب القديس جاورجيوس، وهو أحد أبواب  
المدينة وقد بدا لى فى هذه اللحظات وكأنه قريب جداً من البحر، إذ كانت رائحة  
النسيم البحرى تتسلل إلى أنفى بينما تلاطم الأمواج العنيف بيدد كل صمت، فما  
أن اقتربت من الباب وقد بلغ الخوف مبلغاً عظيماً من نفسى، حتى وجدت رجلاً  
واقفاً، تبينت على ضوء القمر الشحيح ملابسه الكهنوتية، فما إن رأتى حتى تقدم  
منى، فقلت له بصوت مرتعد متعجل: القرنفلة السوداء تهديك السلام يا سيدى،  
فرد على بصوت جاف، خلت أننى سمعته من قبل: وأنا أرد عليه سلامه كذلك،  
ثم مضى، وقد سلمنى كيساً من المخمل دسسته فى ثيابى ومضيت، بينما وقع  
خطواته المنتظمة القوية يضرب الأرض وكأنه فارس من الفرسان.

رحت أكرر صدى الصوت فى أذنى، كانت عربيته غريبة، وخيل إلى أنه قال:  
-أرت-، بدلاً من أرد، ظلت أهجس بذلك، وقد أكلنى فضول المعرفة من يكون  
ذلك الرجل؟ أخرجت الكيس من ثيابى وتحسسته، فبدا لى وكأن بداخله رق  
ملفوف، توجست أكثر وأنا أتساءل عما يكون قد كتب عليه. بينما كنت على وشك

الاقتراب من باب البيعة، تذكرت فجأة من يمكن أن يكون صاحب الصوت،  
وقفت متسماً لحظات، وقد أجمتني المفاجأة، وشعرت بخطورة الأمر في حال  
صدق حدسى.

قبل موت الأب توما بقليل جاء إلى البيعة أب رومى قابله عدد من آباء البيعة،  
ومنهم الأب ميخائيل، وقد كنت حاضراً وقت هذه المقابلة، أصبّ شراب الخوخ  
للضيف الذى كان يتكلم العربية بلكنة غريبة وقد قال كلاماً كثيراً عن  
الساسانيين، وكان الأب توما يجادله راداً عليه، وهو على حال شديد من  
الغضب والرفض لما يقول، فلما انفض اللقاء، وبقيت بعد ذلك فى المساء مع الأب  
توما، سألته عن معنى الكلمة، وكنت أسمعها لأول مرة، فقال إنه يقصد  
الإسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر، المنحدرين عن النبی إبراهيم،  
وقال إن الرجل هو مبعوث البابا الرومى أريانوس الثانى، وقد جاء بعد انعقاد  
مجمع فى مدينة ببلاد الغال تسمى كليرمونت، بهدف حثّ أبناء يسوع فى بيعة  
القسيان على معاونه الكنيسة الرومية والعسكر الرومى المساند لها فى تخلص  
الأماكن المقدسة من أيدي هؤلاء الساسانيين.

إذن، هو ذا ميخائيل يرأس هؤلاء مرة أخرى. يا الله. هتفت لنفسي وأنا أكاد  
لا أصدق بينما خطاى تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب من باب البيعة، وقد زایلنى كل  
خوف من الطريق ومخاطره، وبدأ يداخلى خوف من نوع آخر.

لقد قال الأب المرحوم توما، وقتها: إن ما يقوله ذلك الرجل، ما هو إلا كلمة  
حق يراد بها باطل، فهؤلاء الروم لا يبغيون إلا مصالحهم، ولا يعنيهم فى شيء  
الأماكن المسيحية المقدسة. وإنه، أى الأب توما، ردّ عليه قائلاً: إن هذه الأماكن  
الطاهرة هى أمانة فى أيدي المسلمين، وإن المسيحيين جميعاً يحجون إليها دون أية  
عقبات، ثم إن المسلمين هم عرب كسائر السريان، وإن اختلفت ملتهم، وإن  
المسامحة ظلت ديدنهم منذ أن تولوا أمور البلاد.

أيقزت أننى هالك لا محالة طالما بقيت مع الأب ميخائيل، فهذا الرجل فى  
حياتى فناؤه، وفى فنائى حياته، لذلك بقيت بعد عودتى إلى البيعة ساهراً لا

يغضض لى جفن، أقلب الأمر على كل الوجوه، وقد شعرت أننى كلما خرجت من نقرة، وقعت فى حفرة، فكنت أخاف أن أفضى لأى مخلوق، بما فى داخلى، حتى لا ينقلب الأمر ضدى، وأنا هنا لا آمن أحداً بعد وفاة الأب توما الذى كان يحنو على ويعزنى كثيراً، لكن فجأة، هدانى الله لأن أبوح بأمرى للشماسة رصفة.

كان السماح للنساء بالشمسة من أكثر الأمور التى استرعت انتباهى فى كنيسة أنطاكية، وقد علمت أن ذلك من المعهود فى هذه الكنيسة، منذ قرونها الأولى، ووفقاً لرسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، إذ قال: لا تكتب فى عداد الأرمال إلا التى لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج إلا مرة واحدة، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها، وأضافت الغراء، وغسلت أقدام القديسين، وأمدت المتضايقين، وسعت فى كل عمل صالح. وكانت رصفة ضمن هاتيك الشماسات المنوط بهن معاونه الكهنة فى تعميم النساء وتعليم الموعوظات، ومراقبة النساء المؤمنات فى الغوناكيون، وهو مد النساء أثناء القداس الإلهى، وكذا تفقد المرضى والمصابين. وكانت رصفة، كما قالت لى مرة، ضمن الذين شملهن قانون يوستينيانوس، فرحمها الرب وقبلت كشماسة وهى تحت الخمسين، بعد التزامها، كما نص القانون، بالمحافظة على الآداب والوقار، وهى المرأة المكلمة التكى، بسبب فقدتها أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد أن خرجوا للبحر للصيد والرزق، فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة، وكانت رصفة تنحو على كثيراً وكأنى ولد لها، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكّار القديسة بربارة السنوى فى الرابع من شهر كانون الأول، وكان يوم سرور وفرح والناس فى غاية الغبطة والحبور، وقد ارتدوا أفخر الحلال والثياب، وكثر منهم من يعلو على المهارى والبغلات، ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالى والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كما جرت العادة، وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشماسات، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة وراحوا يتسابقون؛ إذ صاح من صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها، فجرى الجميع محاولاً مشاهدة المعجزة والتيقن منها والتبرك بها، وكل منهم يسعى للوصول قبل غيره، فسقطت

جماعة من الناس وكانت منهم الشماسة رصفة، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة، وحلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة، والتي كان من الممكن أن تطأها وتدهسها.

ومنذ ذلك اليوم انعقدت مودتنا، وعرفت أنها طاهرة نقية مؤمنة، وكأنها قديسة بحق، وباتت تفضي إلى بالكثير من أحوال هذه الكنيسة، وذلك بلسان عربي بين، فأبوها، كما قالت لي، من قبائل يمانية الأصل تدعى الغساسنة، أما أمها فهي من سريان أنطاكية، وهكذا استقر أمرى، ومضيت إليها طالباً منها النصيح والمشورة، عند أول فرصة وانتنى في الصباح، فذهبت إليها بحجة أن أماً في رأسى وصداً أخذاً بداهمانى، وأريد منها شيئاً لتسكين ذلك، وهذا ما قلته للأب ميخائيل، وحكى لها على وجه السرعة ما جرى لى بليلة الأمس، فقالت لى هامسة، وهى تتلفت يميناً وشمالاً:

— إياك أن تبوح لأى مخلوق بما قلته لى الآن. اسمع. نهايتك محتمة إن بقيت فى هذه البيعة، فهو سيتخلص منك إن عاجلاً أو آجلاً، لم يبق لك غير أمر واحد هنا.

قلت بلهفة:

— وما هو يا أمى المباركة ؟ أعينى وليرحمك الرب، فقد أعيانى التفكير.

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لى على بال.

بقيت طول النهار أفكر فيما قالته لى الأم الشماسة رصفة، وأقلبه على كل وجه من الوجوه، لكنى أيقنت فى النهاية أنه لا بديل لى إلا ما قالتها، وهكذا ذهبت فى ظهيرة اليوم التالى إلى موضع الأب ديونيسيوس، رئيس البيعة، فلما مثلت بين يديه بعد أن ضربت مطانيا وأنا مطأطئ الرأس، استجمعت كل ما بداخلى من شجاعة، وقلت:

— أريد أن أعترف لك ياسيدى. لقد كذبت وليسامحنى الرب، وقلت إننى من أهل بيعة قصر الشمع فى مصر العتيقة. هذا غير صحيح يا أبى، فما أنا إلا فلاح فقير من أهل البشمر بالأراضى الموحلة.

ورحلت أشمر عن ساعدى حتى كشفت عن وشم الأسد، لأدعم قولى بأنى فلاح  
قرارى وعبد مسكين؛ ليصدقنى الرجل ويقنع بما أقول.

استمع إلى الأب ديونيسيوس، بروح هادئة كمن تعود على حدوث مثل هذا،  
راح يفكر وقتاً متفرساً بوجهى، وبعد قليل قال ببرود مشيراً إلى قيميه:  
-خذوه إلى الحبس حتى ننظر فى أمره.

كان على أن أدفع ثمن كذبي ألماً ومراراً فى سراديب حبس أنطاكية، بعد ذلك، فى حبس كنيسة القسيان هذا، لا يشتهى المرء إلا أمراً واحداً هو الموت، فلقد كان محبسى ضيقاً بقدر ثلاث أذرع فى ذراعين، أشبه بجحر نحت فى الصخر أسفل الأرض، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالساً القرفصاء، يتنفس بالكاد، فإذا كان من المحظوظين المرضى عنهم، يترك وحيداً دون إنسان آخر يشاركه الهواء الذى لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة، ويبقى الحراس بعيداً بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه، والتي هى سرداب طويل مظلم وشديد الالتواء والصيق. فلما أدخلونى إلى الموضع المتحفظ علىّ به، تركوا لى ماءً وإداما من الخبز الجاف والملح المخلوط بلب نوى المشمش المر، وقد علمت بعد ذلك إنهم يضيفون ذلك إلى الملح درءاً لداء الزرب، ولزوم البقاء على قيد الحياة.

إن أسوأ ما مر بى خلال حياتى كلها كان حبس بيعة القسيان هذا، فهو الهول الحاضر، والعذاب القاهر، والإيذاء المريع للروح والجسد، وكنت طوال فترة حبسى أدعو الله أن يساعدنى على أمر واحد هو ألا أذهل أو أجن، فالجنون لا بد وأن يكون مآل من يحبس فى هذا المكان مدة تطول، وكنت لذلك أحادث نفسى كثيراً، وأقرأ قرايات إيمانية متنوعة، وأستعيد مترنماً جانباً من التذكيرات الجليلة التى كنا نرددّها فى كنيستنا بقصر الشمع، ثم إننى بدأت ألعب نفسى ألعاباً ابتكرتها، فأشكّل بأصابعى على الضوء الضعيف المنسكب من كوة السرداب حيوانات وطيوراً بأشكال طريفة أرى أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بى، كما رحت أستدعى مشاهد طفولتى البعيدة ومناظر بلدتى البشمورية، خصوصاً عندما تبدأ شهور الصيف الحارة فتغلب مياه الفيضان العذبة على مياه البحر المالحة فتزخر الأنهر والقنوات بالآطيار والأسماك، وسائر الكائنات الربانية من أهل هذه

المياه، والمستوطنة فيها منذ القديم، فيبدو المكان وكأنه فردوس من الفرديس، ونعيم لا مثيل له في الدنيا، وقد تفتح البسنت الأبيض، وأظهر نبات البشتين العوام زهوره البنفسجية في كل مكان، وبدا البردى بسيقانه الطوال وزهوره الداكنة هنا وهناك، فلا تشبع العين من نظر كل هذا، ولا تمل الأذن كورس الأطيبار وهو يرتل مزقزقاً، صادحاً، مشقشقاً، شادياً بسحر الأصوات وأبدعها، كنت أغمض عيني، وأطير بروحي بعيداً عن حبس أنطاكية، وأحط بها على أرض وطني وبلدتي، فأدخل دروبها الضيقة، الحزينة، وأتشم ثوب أمي ممسكاً به، وأنظر أبى وهو يبذر الحب في الغيطان، وقد شمر ساعديه عن قميصه الأبيض الكتاني، ثم أنظر إختي أجمعين، ماريّة الكبرى التي ارتحلت مع نوتي ملكاني إلى بلاد الجريك ذات يوم، ولم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك، حتى أن أمي كانت تندبها ندب الأموات منذ ذلك الحين، ثم أختي الصغرى بسنت والتي كانت الأقرب إلي مهجتي من كل إختي، ولا أشتاق لأى منهم مهما حييت، قدر اشتياقي لها، وهى التي كانت تصغرنى بثلاثة أعوام، ولها من الجمال والحنان ما لا يوصف وما لا تنساه الروح، وقد انطبعت صورتها الأخيرة في مخيلتي وقت عدم أمونة، إذ بدت كالمصعوقة، صامته لا تنطق، وقد جحظت عيناها كحبتى عنبر كبيرتين، تصلدتا بالمفاجأة والأسى. هكذا كنت أبقي وقتاً طويلاً مستعيداً بمخيلتي كل المناظر والحياة التي كانت وعشتها، ذات يوم هناك، فأحزن حيناً، وتنتعش روى بها حيناً، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء، وتأخذنى بدولابها إلى ما تبتغيه روى وترقّ به مشاعرى، وكنت أفرح حيناً آخر، إذ تذكرت أن الحياة بها من مسرات الربّ وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على ما جاد به على عبیده، وتنتعش روى بالأمل، فأفتح عيني لأواجه جدران الحبس الحجرية أمامي دون أن أخشاها، وأجدد قراياتي الإيمانية مرة أخرى، أو أصلى صلوات الشكر والحمد، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم وماتوا، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء، وكنت كثيراً ما أردد بعضاً من المزامير الداودية، التي أحفظها عن ظهر قلب، حتى تنقوى نفسى ويثبت إيمانى، ولن أنسى كم ردّدت :



إنى ولو سرت فى وادى الظلمات لا أخاف سوءاً لأنك معى

عصاك وعكازك يسكنان روعى

تُعدُّ مائدة أمامى تجاه مضايقى

وبالزيت تطيب رأسى فتفيض كأسى

ثم إننى كنت أحاول صرع الوقت، فأحاول تذكر ما فى نواحيننا البشمورية من أسماك وأطيّار، وأعدد أسماءها واحداً واحداً محاولاً استدعاء أشكالها وأجسامها، فعددت من الطيور: السلوى، النصطفير، الزرزور، الباز الرومى، الصفرى، الدبسى، الببل، السقاء، القمرى، الفاخت، النواج، الزريق، الهونى، الزاغ، الهدهد، الحسينى، الجرادى، الأبلق، الراهب، الحساف، البرين، السلسلة، دردارى، الشماس، البصبص، الأخضر، أبو الحفاء، الدورى، الزنجى، الأطروش، ابن السمان، ابن المرعة، الوطواط، الملاعى. وفى ليلة عددت من أنواع الطير التى أعرفها ما يربو عن المائة، ونوعين بين صارخ وشاد ونائح وهادل ومغرد وزاعق وناعق ومزقزق ومشقشق ومصفر ومصوصو، أما الأسماك فقد واسيت نفسى بها ذات مرة حتى عددت منها تسعة وسبعين نوعاً كانت: البورى، البلمو، البرو، اللبت، البلس، السكسا، الأران، الشموس، النسا، الطوبار، اليقشمار، الأحناش، الانكليس، المعية، البنى، الأبلل، الفويص، الدونيس، المريتوس، الاسقلموس، النفط، الجبال، البلطى، الحجف، القلارية، الرخص، العبر، التون، اللت، القجاج، القروص، الكليس، الأكلس، الفراخ، القرقاق، الزليخ، اللاج، الأكلت، الماضى، الجلاء، السلاء، البرقش، الصد، البلك، المشط، القفا، السور، حوت، الحجر، البشين، الشربوت، النساس، الرعاد، الشعور، المحبرة، اللبس، السطور، الراسى، الريفن، اللببس، الأبرميس، الأبونس، اللباء، العميان، المناقير، القلميدس، الحلوبة، الرقاص، القرنندس، الجتر، هوكبارة، القبيج، المجزع الدليسى، الاحشباله، البسال الأبيض، الرقوق، أم عبيد، البلو، أم الإنسان، الإنسارية، اللجاه. وبقيت على هذى الحالة لا أدرى كم مرّة على من الوقت، ولم أعرف مبتدأ الليل من مبتدأ النهار، إذ كنت أبيت على ما أصبح، وقد اتصل زمانى، ولم يعد لى من الإمكان مفارقة

مكانى، فصرت كالعائش الميت، أو الميت الموجود الذى لا يحق له فعل الوجود، وصرت أغيب فى نوبات لا أدرى أهى حمى أم نوم، فلا أصحو إلا لشرب جرعة ماء، أو لاذرداد كسرة إدم، ثم إنه حدث ذات صباح أن جاءنى الحراس وأخرجونى، فسرت بصعوبة أمامهم، بينما هم يدفعوننى دفعا، وكان امتناعى عن الحركة والسير مدةً قد بيس أوصالى، وبت كالمفلوج العاجز، وكان امتناعى عن النور والشمس كل هذا الوقت، قد جعل عيني لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها، إذ صرت فى فناء البيعة عابراً بينهم إلى موضع الحمام، فتركونى حيناً لأتحمم، وليسامح الله الأب ديونيسوس، إذ كانت رائحتى ننتنة عفنة لكثرة مكوثى دون تطهر أو نظافة.

استقرّ الأمر على ترحيلى إلى بلد الخلافة بغداد، فأنا أسير الخليفة، وطالما أنا لست من أهل البيع كما ظن الجميع هنا فى بيعة القسيان، فقد كان عليهم تسليمى مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجرى التصرف بى كما يشاءون هناك.

سلمت أمرى لله، فمهما سيكون لن يكون كما الذى كان، وما سوف يمر لن يعادل ما مر، وهكذا وجدتني أغادر فى صبيحة اليوم التالى بيعة القسيان، التى رأيت فيها ما لم أره من قبل، وذلك بعد أن لملت حاجياتى القليلة من ملابس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشياء.

خرجت عند الغروب مغادراً أنطاكية، وكان آخر عهدي بها وقت أن حكموا على شماسة شابة بالبيعة تسمى برسيس، أجهفت بالندى، وحادت عن السيرة الحسنة، وضبطت بجريمة الزنا مع رجل شماع ممن يزودن الكنيسة بالشمع، وكنت ضمن جماعة من الناس فى حراسة غير كبيرة، وتوجهوا بنا إلى بلدة أخرى من البلاد الشامية المؤدية إلى بغداد، وتسمى هذه البلدة حلب، فقطعنا المسافة إليها فى يوم وليلة، وكانت الطريق بين الكورتين عامرة لا خراب فيها، ومزروع جلها بأنواع عدة من الخيرات والزرور والغلة، وكنا نبقى وقتاً فى بعض القرى التى تعترضنا، وهى فى جملتها ذات رياض مزهرة ومياه متفجرة، فيتركونا للأكل شيئاً ويطعمون الخيول ويسقونها، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فلتر من الأرض لنستريح، وهو ما يحاكى الفدان والجريب وما إلى ذلك، فخرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين، فلما شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة، نصحوهم بالمصنى سريعاً، لأن هذا الموضع قريب من جبال يقال لها اللكام، وأن بها حصن قديم مشرف على بحيرة، ويتخذها جماعة من الروم مقراً لهم، وهم قوم حبسوا أنفسهم على قتال المسلمين، ومنعوا أنفسهم عن النكاح، فهم بين الرهبان والفرسان ويقال لهم الداوية، فسارع العسكر بجمعنا، ونهضنا لنعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب.

دخلنا حلب وهى مدينة مسورة بسور عظيم من الحجر الأسود، والقلعة عليه، وذلك من باب أنطاكية، وكان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفى وسطه مصانع للماء المعين.

كان بعض العسكر قد تركونا وذهبوا لشحنة المدينة لتسلم الخارجين عن الخليفة، وفى هذه الأثناء جاء من قال: إن تنيناً قد ظهر منذ فترة بالمدينة، بغلظ

منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلع كل حيوان يجده، ويخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون منه يميناً ويساراً حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحتملته، وكان قد لف ذنبه في كلب ورفع الكلب يعوى في الهواء والسحاب يمشى به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين، وقد قال الحاكي الذي حكى هذه الحكاية: رأيت الموضع الذي انساب فيه كأنه نهر.

فلما عاد العسكر إلينا، كان معهم جماعة من الناس المرحّلين إلى مقر الخلافة مثلي؛ وذلك بسبب أن والي المدينة قد أمر بإقصائهم عنها؛ لأن بعضهم، وهم من قرية تسمى هوت، قد اقتتلوا مع جماعة أخرى من قرية تسمى عين الجارة، وأن بين القريتين حجراً قائماً كالتخ، فما كان من أهل هوت إلا أن أوقعوا الحجر وطرحوه، فخرجت نساء عين جارة أجمعين متبرجات ظاهرات لا يعقلن على أنفسهن طالبات الفجور، ولا يستقبحن في الحال ما هن عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدونه إلى حالته الأولى فيتراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز لقبيح ما كنّ عليه من التبرج، فأمر والي بإقصاء الحجر والقبض على بعض من أهل هوت لأنهم لصوص، وكانوا كثيراً ما يسخّرون الحجر لصالحهم ويلحقون العار بأهل عين جارة، وأن والي قد طلب من الخليفة ألا يعودوا إلى مواضعهم أبداً.

ثم إننا تخللنا المدينة متجهين إلى باب العراق فوجدت أن بها نهراً يقال له قويق، فلما مررنا بجانبه وقفنا قليلاً لأن واحداً من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف التي تكثر به؛ وذلك للحصول على دمها لأمه في العراق، وقد قيل له أن التطلع به ينفع من وجع المفاصل. فلما تريثنا إذ بصوت عذب لصياد يأتي من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو :

فلودام الحب الوصال ولم يكن فراق ولا هجر لما اشتاق  
قويق سيل الغيث يأتي وينقضي ويأتي انسياقاً تارة ثم ينساق

وقد لاحظتُ الناس في الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلاً لينظرونا، فوجدت أنهم من أحسن الناس وجوهاً، وأجساماً، والأغلب على ألبانهم الدرية، والحمرة، والسمرة، وعيونهم سود. وقد عجبت من كثرة حارات المدينة، ودورها، وجنائنها، وحماماتها، وكذا رصانة البناء فيها، وحسن حجارتها، وتعدد أسواقها، والمعروض فيها من الخضر، والفاكهة، والزيت، والصابون، والأقمشة، وأنواع الفراء التي تعلق للعرض على أبواب الدكاكين، وهى على هيئة حيواناتها كالسمور، والوشق، والفنك، والسنجاب، والثعلب، وسائر الوبر، أما سوق الرقيق، الذى مررنا به كذلك، فقد رأيت فيه أصنافاً من الجركس، والترك، والروم، والحبش، ثم إننا أخرجنا من باب العراق قاصدين مدينة الخلافة بغداد.

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهنى عن التفكير والتأمل، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك، أو هو هنا التى ما أن تقبض عليها، حتى تفر منك إلى هناك، فأنت فى برزخ مستديم، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط، لتهمم الروح فى ماضيها وما كان، وتقبض على الكون فى سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف. وهكذا صرت، طوال الطريق، كلما خلوت إلى نفسى أفكر فيما كان من أمرى ببر مصر وأنطاكية، وأضعه تحت نور الشهاب الثاقب، ونجم التأمل الساطع، فأتوصل بعد لآى من الهجس والتمحيص إلى أن ما كنت أعتقده يقيناً، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سريرة، وأن البدايات إنما هى بمثابة بدايات، وأن العقيدة الحقة لا تتجلى وتكون إلا بالفعل المفعول، دون الكلمات ومعسول الترهات، وأن هناك من يتخذها مطية ورهينة، ليتمكن من أمور الدنيا وشهواتها، وليس كل من تلا كلمات الرب هو عامل بها، فهناك من يرتل الكلمات المقدسة، بينما هو يتنل الدنانير المدنسة، وإنما القول الإيمانى يجب اقترانه بالفعل الإنسانى، وإلا كان غشاً وبهتاناً وتزويراً وإعمالاً فى خداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المصدقة والطقوس المكرسة.

لقد كفرت - وليرحمنى الرب - خلال ولوجى فى برزخ السؤال، بأمر ما، وتشككت فيما كنت أظن أنه لا يشك فيه أبداً، وبت أطرح علامات استفهام، لا

أدري أهي من نتاج تعاطف شعوري بالألم والبؤس وقلة حيلتي ومشقة السفر، أم هي من قبيل الجود الرياني والكشف الجواني، وكان إلحاحي الدائم على: هل يحتاج خالق القطر، والشجر، والسحاب، والثمر، وصنوف الطير، والحيوان، وسائر أجناس بنى الإنسان، وما على البر، ودخل جوف البحر- إلى كل هذه التوافه العوارض من التيجان والطلايسانات والمذهبات المفضضات، والعمارات ليدلل على قدرته؟ إن أي جبل قد خلقه - مما خلق - لا يضارعه مهما كانت عظمتها بناية من الأبنية أو عمارة بيعة من البيع. فالرب جليل مرتفع عن كل هذا في أعماله وآيات قوته وأفضاله، وهو العزيز عن مصنوع بيد عبد من عباده.

حمار وصفار وخضار وسواد من الأرض، قدر لي اجتيازه مع تلال من الدهشة والعجب وأنا أعبر القرى، والبلاد، والصحراوات مرتحلاً في الطريق إلى المدينة المدورة المسماة بغداد. إنها المدينة التي ظلت تتراءى في خاطري كحلم شيد من ضبابات التخيل وتهويمات التكهن، وقد رسمتها بمخيلتي من فسيفساء الأماكن وتفاصيل العوالم التي شهدتها وخبرتها، ورغم مشقة الترحال والسفر، وعبودية الأسر ومرارته، فإن تشوقي لبغداد كان يتزايد كلما غدينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فما أجمل أن تشتهي رؤية مدينة، وتحلم بأنك سوف تعانيتها معاينة البصر وتلجها ولوجاً بالقدم، بعد أن شيدتها بداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن المدن والبلدان في العالم المضطرم والمتمور بالقسوة والعنف والصراع دوماً.

كانت قد مرت علينا في الطريق أحداث كثر، لكنها تضاءلت وتضاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من الصحراوات المحيطة ببعض القرى والتي يتوجب على التجار وقوافلهم اجتيازها خروجاً أو دخولاً إلى بغداد، فقد تصاعدت إلى أنفي وأتوف كل الذين كنت معهم ريح ننتة وجيف، فظننا أنها من بقايا فريسة لوحش من الوحوش، وقد تعفنت وتجيفت بفعل سخونة الشمس وشدة حرارتها، لكن، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك، إذ بنا نسمع أنينا موجعاً يمزق سمعه القلوب، فبادرنا إلى موضعه، فهالنا ما رأيته عيوننا، فقد كان على الأرض رجل موثق يتأوه من فرط آلامه، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورماً مقدداً مسوداً من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسريلة جسده وكأنها ثوب

يغطيه، فلما تشجع بعضنا، واقترب أكثر وجد أن الرجل مكفّن في لية الخراف، ومربوط عليه بالبلد والحبل بإحكام، ويبدو أنه ملقى منذ زمن في الشمس الحامية، فاستحالت اللية بعد حين إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس بينما هو على قيد الحياة، وقد حكى لنا واحد من الحراس ذلك، فلم أنمالك نفسى ورحت أفرغ ما بجوفى وأنتحب انتحاباً شديداً، وقد أصابتني نوبة من الألم، لم أعد قادراً معها على الإتيان بأي فعل أو حركة، خصوصاً وأن بعض الحراس سارع ليفكّ الرجل من أسره، لكن مقدم الحرس منعه، لأنه لم يعد منه رجاء، فقد أصاب الدود أكثر من موضع في لحمه، وصار موشكاً على التلف والفناء، وخشى أن يصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثر أو حاولنا مساعدته، ومضى بنا مسرعاً، تاركين المسكين لمصيره المؤلم. فلما اجتزنا فرسخاً أو فرسخين وجدنا بعض الناس يسألوننا عن موضع رجل مقيد ومتروك في الصحراء، قالوا إنهم يبحثون عنه منذ عدة أيام دون جدوى، فأرشدهم مقدّم الحرس إلى موضعه الذى كنا توقعنا عنده، وسألهم عما كان من أمره، فقالوا: إنه تاجر من التجار، قيل إنه خان بعضاً ممن كانوا معه بالقافلة وسرقهم، فعاقبوه بعقاب قوم يقال لهم الإيلخانيين وهم من القساة الغلاظ المتفنتين فى تعذيب أعدائهم وضحاياهم، ففعل التجار بالرجل ما يفعله هؤلاء الإيلخانيين بأعدائهم، وزاد هؤلاء بأن شطروا صبيّاً كان للشارق، إلى نصفين، من باب الانتقام والتشفى، ودون أن تأخذهم رحمة أو شفقة به.

كان ذلك الأمر، قد أصابنى طوال الطريق، بعد ذلك، بحد من التبدل وفقدان الشعور، وقد بهت لكل هذه القسوة، وهذا القدر من العنف وشهوة الانتقام، وفى لحظة تمنيت الموت، وبدا لى أنه الواحة الممكنة الوحيدة، بعد تيهى الممتد فى ببداء هذه الدنيا المقفرة، وكان شعورى بذلك يتماسك ويتكثف، كلما حثونا على الإسراع والنشاط فى السير حتى نجتاز المسافة إلى مدينة الخلافة فى أقل وقت ممكن.

ثم إنه لاحظت لنا بعد زمن قباب وأبنية، كأنما صبّت فى قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً، وكان بعض العسكر قد أخذ يطلق صيحات الفرح، ويلغظ بسعادة عن

وصولنا واقترباب بلوغنا أبواب المدينة المقببة، وقد ظهرت بينها قبة عظيمة خضراء اللون عليها صنم على صورة فارس فى يده رمح نبهنى إليه قول واحد من العسكر ونحن نتقدم بالمسير، إذ قال:

- انظروا. رمح الفارس يتجه نحو الشرق. لعل الخوارج سيخرجون من هذه الناحية كما يقال.

ضحك آخر بسخرية وعلق:

- أتصدق هذه الترهات، إنها خرافة ولا أكثر أن يخرج خارج على الخليفة من جهة الرمح. سر وأنت ساكت؛ خلىنا نصل وننهى مهمتنا بسلام.

بدا لى سور المدينة، وقد اقتربنا، عظيماً ممتداً على نحو لم أره ولم أعده فى أية مدينة أخرى كنت قد شاهدتها من قبل، سواء فى بر مصر أو فى بلاد غربتى، وكان السور مدوراً يحيط بالمدينة دأير ما يدور، وبالتخمين، فإن ارتفاعه إلى السماء، قد يزيد عن خمسة وثلاثين ذراعاً، وبدت أبراجه بسمك قد يكون خمسة أذرع، وكانت على السور شرف، فلما اقتربنا من ذلك السور اقترب المعاينة والتدقيق استبان لى أبواب عديدة فيه، ثم إنهم أوقفونا عند باب قيل له باب الشام الأول، فوجدت أن للباب هذا بابين بينهما دهليز ورجبة يؤدى إلى الفيصل الدائر بين السورين، وبدا لى أن الأول باب الفيصل، والثانى باب المدينة، فلما ولجناه، بعد إذن الحراس، إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص، وجدت على الأزج مجلساً له درجة على السور، يرتقى منها إليه، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة زاهية فى السماء، سمكها، قد يكون، خمسون ذراعاً مزخرفة، وكانت هناك قباب أخرى على السور، وهى التى كانت قد استباننا لنا من بعد قبل ولوجنا إلى المدينة، ثم إنهم ساقونا عبر شوارع المدينة إلى قصر الخليفة، فهالنى وأخذت بما وجدت عليه العامة فى الأسواق والشوارع وأسطح المنازل، فوقف العسكر الذين جلبونى مع بعض الأسرى الآخرين، يتساءلون، وقد أخذوا بما أخذت به من ازدحام الناس حتى فى الدكاكين والشرف، فقيل لهم: إن الخليفة أذن بدخول رسول الروم والجميع ينتظر وقت مرور موكبهم قادماً من دار يقال لها



دار صاعد، وقد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمثل بين يدي الخليفة، وقال من أخبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكان أو غرفة مشرفة على مشهد خروج رسول الروم إلى قصر الخليفة، قد أكرى ما لديه بدراهم كثيرة، وأن في دجلة صارت الشذاءات والطيارات والزلازل والسميريات بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة.

ثم إنهم ساروا بنا، فعبرنا أسواقاً وحمامات وأرباضاً عديدة حتى أوصلونا إلى قصر الخليفة الملاصق لجامع جميل، وقيل أن يدخلونا جاء رئيس، قد يكون مقدم الدرك، وظل يجادلهم في شأني مثلما كان يحدث دائماً في كل مرة يجري تسليمي فيها، ثم إنه، وبعد كلام كثير، استقر الأمر على وضعي في الوقايد بمطبخ الخليفة.

لا أدري أكنت محظوظاً لأنني وصلت إلى قصر الخليفة في الوقت الذي كان فيه الجميع مشغولون باستقبال رسول صاحب الروم، فقرروا سريعاً إلحاقى بالوقايد، فلم أبع، أو أوضع في حبس من الحبوس؟ أم أن ذلك كان بسبب درايتي بالوقايد من قبل، أثناء ترحيلي من مصر إلى أنطاكية، في الحراقة، وعدم انتفاعهم بي على أي وجه من الوجوه إذا هم باعوني، وذلك بسبب بئيتي واعتلال صحتي؟ على أية حال، لقد قدر الله لي أمراً كان مكتوباً، فقد عبروا بي ساحة القصر، بينما كان الجميع منهمكاً بفرش المكان بالفروش الجميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة، وكان الحجاب، ومن خلفهم، والحواشي آخذين بالانتظام في طبقاتهم على الأبواب، والدهاليز، والممرات، والمخترقات، والصحون، والمجالس، وبقي الجند واقفين صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب، والفضة، وبين أيديهم الجنائب، على مثل هذه الصورة، وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة وبعدهم الغلمان الحجرية، والخدم الخواص الدارية والبرانية بالبزة الرائعة والسيوف، والمناطق المحلاة.

ثم إنهم أدخلوني بصحبة واحد من العسكر من باب قصي في الساحة يفصني إلى مطبخ الخليفة، ومهما وصفت فلسوف أظل مقصراً، عاجزاً عن وصف ما رأيت، إذ إنني، بمجرد أن تخطيت هذا الباب، وجدت نفسي في فناء واسع، محاط دابر ما يدور بغرف كثيرة، بينما عدد كبير من فراخ الطاووس، والبط،

والإوز، والديوك الرومية تجرى هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فوجدت أنها كبيرة واسعة تفضى إلى غرفة أخرى، استبان من بابها أكداً من خشب وفحم حملت وترأصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضع مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها، فلما عدتها وجدت أنها عشرة، وكان عليها رجال وغللمان يعملون بهمة ونشاط، والسخام يغطى حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندي الذى أنا تبعيته نادى على رجل ناعثاً إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخ الجثة، فى عينيه حدة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، فحيا رئيس العسكر، فقال له:

- هذا أسير الخليفة، هو قبلى مصرى، ستكون ملتزماً به منذ الآن فصاعداً، ولسوف يكون تحت إمرتك فى الوقايد، وكل ما يخصه ستسأل عنه على أية حال.

ردّ الريس حسين بهدوء:

- أمرك يا سيدى.

ثم إنه اصطحبني إلى موضع بغرفة الحطب والفحم، فأدركت أنها واسعة، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة. قال:

- سوف يكون مستقرك ومنامك هنا، عندما تنتهى نوبة عملك كل يوم. ستعمل معى فى البداية خلال نوبة الليل، ثم تنام سوياعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها فى التهيؤ حتى وقت الغروب، وإياك ومخالفتى فى أمر من الأمور. هلا قلت لى ما اسمك؟

قلت وأنا أزدرد ريقى، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقي:

- بدير. بدير يا سيدى.

وبينما كنت أردّ عليه، إذ دخل علينا واحد من خدام القصر، وصرخ:

- هيا يا حسين، هات مجامر البخور، وتعال لتشرف عليها بنفسك، ستبقى حاملاً المجمة الكبيرة أثناء طواف رسول الروم بالقصر، اغتسل سريعاً وهاك بزة جديدة لترتديها.

- نعم . نعم . فى غمضة عين إن شاء الله سأكون جاهزاً.

لوسئلت ذات يوم عمّن أمتنّ له فى هذه الدنيا بعد الله العلى القدير، لقلت وكلّى يقين، حبيبى وقرّة عينى ثاونا أولاً، ثم سيدى صاحب الفضل الذى لا أنكره أبداً مهما حبيت، الحسين بن فالح المراغى، والذى وفد إلى بغداد من بلدة من أعمال الخلافة تدعى مراغة، فثاونا هو الذى عطف على نفسى بالمودة والرحمة، وأرشدنى إلى كثير مما كنت أجهله قبل ذلك، وكان لى بمثابة الأب والأهل، والتدويم الصديق، والمعين الصبور على عذابات روحى وأوقات يأسى وقنوطى، ثم هو الذى ثبتت نفسى على الإيمان، وأمدنى بكل محبة وحنو. أما الحسين بن فالح المراغى، فامتنانى له هو امتنان الغارق فى جب عميق لمن أخرجته إلى الحياة مرة أخرى، وهو ذاك الذى ساعدنى على البصر بعد عمى، والنطق بعد خرس، والسمع بعد صمم.

كنت كلما عقدت أوجهاً للشبه والخلاف بينهما، أتعجب من نفسى، فما يجمعهما قليل نادر، وما يباعد بينهما كثير فادح، لكنى كنت أدرك فى النهاية أن لديهما الجوهر ذاته، وإن كان قد تموّ واختفى بالخارجيات الشكلانيات، وكنت أدرك أن هذا الجوهر هو الذى جذبنى إليهما، وعلقنى بهما تعلّق النجوم بالسموات، فالرجلان بداخلهما ما يسمو على هذى الحياة، فهما فيها وليسا فيها، وهما العائفان كل ظاهر بارق، المهمومان بكل ما هو داخل باطن، بل والمدركان لعبث الدنيا ولهو الوجود، فلا يهتمان لعبوسه أو يغتران بسطوة عروشه، وهما فى بعض من هيئات الزمن الشاغلة، فهذا فى بيعة وكنيسة، وهذا فى قصر الخليفة، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يضطرع على ما يتكالب ويضطرع عليه العاملون فى مثل هذى الهيات.

كان معاشنا ومبيتنا نحن الفحامين والوقادين فى خزانة الحطب والفحم، وكان عملنا أمام بيوت النار والمواد لا ينقطع؛ لأن العمل بالمطعم لا يتوقف أثناء النهار أو الليل، وإعداد الطعوم العذبة، والمالحة، والدسمة، والحلوة، والحامضة، والمرة، والقابضة، والحريفة - لا يتوقف أبداً، وكان جل العاملين فى الوقايد، إما من

الأسرى الذين لا رجاء فيهم ببيع أو متعة مثلى، أو من أولئك الذين حكم عليهم لأمر من الأمور لأزمة طويلة، فكان العمل فى الوقايد هو قضاء لعقوبتهم، ويستفاد به للصرف على قوتهم بتشغيل طاقة جسمهم.

أما الحسين بن فالح فقد ساقه قدره للعمل فى الوقايد، فهو لم يكن أسيراً، ولا مذنباً مثل الباقيين، لكنه نشأ وتربى فى مطبخ الخليفة، ولم يكن يعرف له فى الدنيا بيتاً أو وطناً غيره، فلقد تربى وعاش جل عمره فى هذا الموضع، ويقال إنه لم يعرف له أباً أبداً، جاءت أمه نازحة من بلدتها البعيدة إلى مدينة الخلافة ومعها الحسين طفلاً رضيعاً، ثم ظلت تقف زماً من بيع خبز التنور فى أسواق المدينة، فاشتهرت بصنعة وإجادتها له، حتى لقبت بين العوام بست التنور، فلما ذاع صيتها جلبوها للعمل فى مطبخ الخليفة، وقيل إن والد الخليفة الحالى صار لا يأكل خبزاً إلا من عمل يديها، وإنها كانت تصنع له كل يوم ما يزيد عن مدين من القمح وهو يعد من الشيء الكثير.

وهكذا تربى الحسين طفلاً يجرى ويلعب بين أقدام الطباخين، والوقادين، وكافة العاملين فى المطبخ من خدم وعبيد، وظل هانئ العيش حتى وافى الأجل أمه ذات يوم فتيمت بعد أن ماتت بعلة الفواق، وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تمادياً كبيراً فى الناس خلال سنة من السنين، وراح ضحيتها خلق كثير لا يحصى عددهم، فلما راحت، أشفق الناس ممن يعملون فى المطبخ عليه واستبقوه بينهم، وصبروه وكأنه واحد من عيالهم، فتعهدوه بالرعاية والرباية حتى شب، فعمل فى الوقايد من يومه، وقد كان مولعاً لأمر لا يعرفه أحد بالنظر إلى النار واللعب بها، ثم إنه حذق فى هذا الكار، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه، وكنت أتعجب فى بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهويل والمبالغة، لكنى، وبمرور الوقت، بعد أن خبرت عمل وقايد الطبخ، أدركت أنه يحتاج إلى مهارة، وشطارة، وحس، وذوق، وعلو فى موهبة التمييز، والتقدير، والموايعة، والتخمين، وذلك فى اختبار درجة النار، وشدة اللهب، ومناسبتها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ، فالساذج منها قد يفسد نوعاً من الطبخ وقد

يحسن غيره، فما يناسب الخشكناج المصنوع من دقيق السميد والسكر واللوز  
المقشر المطحون، الميثوث بالكافور وماء الورد قد لا يناسب الأسفذابجة الخضراء،  
وما يستلزم السفدية قد لا ينفع الفالودج، وكان تنوع الطعوم وتعددتها يحتاج إلى  
تنبه وتيقظ بالغين من العامل في الوقايد، فكل يوم كان يرد للطهي أصناف غير  
التي كانت في اليوم الذي قبله، وقد حدث أن عددت عدد القدور الكبار التي  
حوت السكباجات، والحنطيات، والسلاقات فكانت أكثر من عشرين قدراً من  
الفخار عدا المتوسطة، وعدا قدور النحاس، وقلايات الطباهاج، وكان أن أنصننا  
يومها أهلاً من لحوم البقر ولحبارية سمك، ومأمونية، وجواذب الدجاج المعمولة  
من الأرز والخبز تارة، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى، ومن الحلوم مخ  
معمول بالسكر المعقود والعسل، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضافة إلى  
صنوف من الخبز كالخبز الإفرنجي المسمى أفلاعموني، والخبز الفرني المرقد،  
وخبز القناوى، والخبز الساوى، والخبز المجرم. وكنت أجدني بمرور الوقت مشدوداً  
إلى الحسين بن فالح، على رغم أنني عند بداية عملي معه توجست منه، ولم أقبل  
عليه، فقد كان غشوماً عنيفاً لا يفتأ يأمر وينهى ويتجر، على نحوه خشونة  
وفظاظة، حتى إنني عندما عاد في مساء يوم استقبال رسول الروم، وحكى لنا  
نحن الوقادين ما رآه أثناء مروره حاملاً المجرمة ضمن الموكب، لم أنبس ببنت  
شفة، وأثرت السكوت، والتلذذ بأطياب الطعام الذي قدّموه لنا من بقايا الوليمة  
العظيمة والسماط المهول الذي مدّ لرسول الروم، ولقد حكى الحسين وقتها عمّا لا  
يمكن أن يصدق ولا يدرك بعقل عن موكب هذا الرسول، وما بذل في سبيله  
بالقصر؛ لإظهار عظمة خليفة المسلمين ومدى قوّته وجبروته، فقال: إن الخليفة  
رسم أن يطاف بمبعوثي ملك الروم، وكانا شيخاً وشاباً، في جميع أنحاء القصر يعد  
إخراج العسكر جميعاً منه، ولم يبق فيه إلا الخدم والحجاب والغلمان السودان،  
وعدددهم سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف من البيض وثلاثة آلاف من السود،  
أما الحجاب فزادوا عن السبع مئة حاجب.

وفتحت الخزائن للموفدين، والآلات فيها مرتبة، كما يفعل لخزائن العرائس،  
وقد علقت الستور، ونظم جوهر الخلافة في قلايات على درج قد غشيت بالديباج  
الأسود.

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها، كثر تعجبه فيها، وكانت شجرة من الفضة وزنها قد يزيد على خمس مئة ألف درهم، عليها أطيّار مصنوعة من الفضة، تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر. من تعجبه من جميع ما شاهده .

وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيل، والحبال، والسباع، والطرز، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والبهنسية، السواذج، والمنقوشة، والدبيقية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد. وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية، والدار بجرديّة، والدورقية فى الممرات والصحون التي وطأ عليها القواد، ورسل صاحب الروم، سوي ما فى المقاصير من الأنماط : الطبرى والدبقي التي لحقها النظر دون الدوس .

ورغم أننى أثناء ذلك كنت ما أزال متحفظاً تجاه الحسين بن فالح، إلا أننى شعرت بتبسطه وتلاطفه مع صبياناه ومن هم أدنى منه فى عمل الوقايد، ولم يكن يغضب منهم حتى حين نعتهم بالمبالغة والكذب، بينما كان يروى انهيار رسولى ملك الروم بكل ما شاهده خصوصاً لما أدخلوا إلى الدار المسماة بخان الخيل، وهى دار، كما قال، أكثرها أروقة بأساطين رخام، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس، عليها خمسمائة مركب، ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان - كما قال - تقترب من الناس وتتشممهم وتأكّل من أيديهم .

ثم أخرجوا إلى دارٍ فيها مئة أسد: خمسون بمنّة، وخمسون يسرة، كل سبع منها فى يد سباع، وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد .

وبملازمتى للحسين الوقت الكثير خلال عملى معه فى نوبات الليل، وجدتنى أنجذب إليه شيئاً فشيئاً، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملاً ساهراً طوال ذلك

الوقت وهو الرئيس المعلم الذى يعمل الجميع تحت إمرته، ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه، لكننى بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل حيث تجلب له المغنيات والقيان ويتنادم معه الأفاضل من أهل العلم والسمار، وأصحاب المغانى من العبيد والجوارى الحسان، وخلال ذلك تقدم له أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشرية، وما نحو ذلك من النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة، لذلك يبقى الحسين ساهراً على ما تحتاجه سفرة الخلافة وصاحبها من مطالب ومآكل تحتاج الحرارة والإنصاج.

وفى ذات مرة، وبينما نحن جالسان أمام الوقايد بمفردينا، الحسين وأنا، إذ كان أقرانى من تبعيته قد خلدوا إلى النوم، وإذ بالرجل الذى كنت أظنه غليظ القلب، يشرع فى الدندنة والغناء بصوت حساس شجى، ووجدت من أظنه خشناً غشوماً يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلى مذهب، بسلاسة وطلاوة، وكأنه طارب قدير، فلما وصل بغنائه إلى الحد الذى قال فيه :

أَلَا رَبِّ هَمْ يُمْنَعُ النَّوْمُ دُونَهُ      أَقَامَ كَقَبْضِ الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الْجَمْرِ  
بَسَطْتُ لَهُ وَجْهِي لِأَكْبِتَ حَاسِداً      وَأَبْدَيْتُ عَنْ نَابِ ضُحُوكِ وَعَنْ ثَغْرِ  
وَشَوْقِ كَأَطْرَافِ الْأُسْنَةِ فِي الْحَشَا      مَلَكْتُ عَلَيْهِ طَاعَةَ الدَّمْعِ أَنْ يَجْرَى

وجدتني لا أنمالك نفسى وقد هزتني الكلمات وأسكرتني النغمات، وحلقت بى المعانى، فتركت لروحي العنان ورحت أبكى وأنتحب حتى أخرجت ما حبسته فى قيعان نفسى من ألم ومرار، وقد أصبحت دون القدرة على ضبط النفس والاصطبار.

فلما وجدنى الحسين باكياً ترك ما بيده، وكان يراقب عكيكة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصاً فى هذه الليلة، ثم إنه التفت إلى وبدأ مدهوشاً وقد فاجأه نحيبى، وسرعان ما تحرك نحوى وراح يربت على كتفى وكأنه يفكر فى أمر من الأمور، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة، أخرج منها كرية ذات لون أخضر مكتوم، طلب منى ابتلاعها، فلما تراجعت متسائلاً عن كنهها، وقد تمنعت ورفضت تذوق ما لم أعرفه وأخبره، قال بجد :

- ابتلعها ولا تخف، فإنها سوف تعينك وتريحك كثيراً مما أنت فيه، إنها حشيشة الفقراء يابنى، وما أدراك ما حشيشة الفقراء، ألم تسمع من قال فيها:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدرٍ      معتقة خضراء لون الزبرجد  
هى البكر لم تنكح بماء سحابةٍ      ولا عصرت بالرجل يوماً ولا اليد  
ولا عبث القسيس يوماً بكأسها      ولا قربوا من دنها نفس ملحد  
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها      فخذها بحد مشرفى مهند  
وفيهما معانٍ ليس للخمر مثلهما      فلا تسمع فيها كلام المفند  
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً      ويأتيك بالأخبار من لم يزود

فلما سمعت ما قال، وكنت لم أفهم إلا بعضه لقصور عرييتى حتى ذلك الوقت، زاد ترددى، لكنه ثبت عينيه، فى إصرار بعينى، وكنت ما أزال قانطاً وروحى فاقدة لكل همة وفى أسفل سافلين، فمددت يدي إلى ما قدمه لى الحسين، وقد تمنيت أن يكون سماً يفتينى ويأتى على، فأموت وأستريح من عذابات هذى الدنيا، ثم إنى ابتلعت الكرية واستعنت على ذلك بشرية ماء حار كما أمرنى، بينما هو ينظر إلى متأمل إياى، فما لبثت إلا قليلاً، حتى وجدت روحى قد هدأت، وشعورى قد راق وشف، وشملنى صفاء برواق، بينما لهيب الجمرات تشتد حمارته، وتستحسن عيني منظره وحلاوته، فلما رأتى الحسين على هذى الحال، ضحك وراح يربت على، ثم أخذ يغنى مرة أخرى، ويقول:

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها      لها وثبات فى الحشا وثبات  
توجب ناراً فى الحشا وهى جنة      وتبدي لذيق العيش وهى نبات  
قاطعته وأنا أقول بهدوء :

- فليسأمنى الرب، ولتغفر لى ثورتى يا معلمى، فأنا تنتابنى أحوال من صميم اليأس حيناً، فلا أدري لماذا يتوجب على مواصلة الحياة، وأن أحمل مزيداً



من الألم والكرب. ثم إننى فضفضت بكلام كثير نحو هذا، وكأننى أرغب فى البوح بكل هواجسى لأستريح.

ظلّ الحسين مطرقاً إلى الأرض، مستمعاً إلى كلماتى حتى أفرغت كل ما بداخلى وأنا أحكى له قصتى، وكل ما عانيته، فلما انتهيت وكان هناك شيء أشبه بالخدر يسرى فى أعطافى، فتنحل معه وتسترخى أوصالى شيئاً فشيئاً، رفع رأسه، وقال:

- اسمع يا ولد. أنت فى حاجة للتسرية والتلهى، يجب أن تتلهى بشيء، فلو ظلت على هذى الحال فلسوف تطق وتموت بالفعل.

ازدرد ريقه، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة مأكرة، قبل أن يضيف:

- هل تعرف النساء ؟ سأخذك إلى بيت الخنا. هناك لا بد وأنك سوف تستريح. قلت متسانلاً بدهشة:

- وما بيت الخنا هذا يا سيدى ؟

ضحك بشدة، فتحركت تفاحة آدم المتضخمة أسفل رقبتة بسرعة، وكأننى قلت ما يضحك، ورد:

- منزل هو كسلة الفاكهة المشتهاة، تقلب فيها حتى تختار ما تشاق إليه من صنوف النساء حسب ميلك ورغبتك، فيه البيضاء، والصفراء، والسوداء، والحمراء، فنقضى حاجتك وتطفئ شهوتك حتى تستريح نفسك ويضيع قلقك وتوترك.

- تملكنتى سورة غضب شديدة، رغم ما أنا فيه من خدر وضعف، حتى إننى نسيت أنه معلمى فى الوقايد، فقلت بغضب:

- ملعون أبو الشيطان، ماذا تظننى ؟ ألم أقل لك إننى كنت قيماً فى كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة ؟! أظن أننى واصل إلى هذا الحضيض ؟ ثم إننى لم أتمالك نفسى وقد داخلى شعور بالضياح، فرحت أبكى من جديد.

أسقط في يد الرجل وشعرت أنه ازداد إشفافاً على حالي، ووجدته يهمس بحنو:

- والله إنك لحنبلي أشد من ابن حنبل نفسه. اسمع أيها الولد الطيب، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية؟ هذا شيء مناسب تتلّهي به، ويحسن كلامك الركيك، ونطقك المكون بالقبطية، وحتى تكف عن قول إديتي، وديتي، البتاع، البتوع. راح يضحك مرة أخرى، وهو يقلدني عندما أتكلم، بينما أخذتني الفكرة فتوقفت عن البكاء، وبدأت أفكر فيما يقول. صمت قليلاً وتساءلت:

- ولماذا أتعلم العربية بالله عليك وأنا قبطي؟ أنا أستطيع التفاهم بها الآن، ولا توجد لدى مشكلة في الكلام مع كل من حولي هنا، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه.

رد الحسين وهو ينظرني متأماً:

- لا أعرف. أنا أحاول إيجاد سبيل يخرجك مما أنت فيه؛ ولتتشغل نفسك عمّا بنفسك من هموم وآلام، قد أستطيع أن أعلمك شيئاً يسيراً كل ليلة، أثناء فترات صبورنا على النار والوقايد حتى تنضج وتستعر.

ثم إنه تحرك مسرعاً وأخرج العيكة من الفرن، فتعجبت من منظرها، ولم أكن قد شاهدت طعاماً مثل هذا من قبل، فلما رأيته أحذق فيها ملياً وقد ظهرت دهشتي، خصوصاً عندما جاء خادم وأخذها إلى المطبخ كي يهيئها في الصحاف، قال:

- لا تدهش، فكل يوم يمرّ سوف ترى فيه عجباً، فهم يطبخون للخليفة من أطايب كل مطابخ الأرض، والعيكة هذه من الطبخات النادرة التي لا تطبخ إلا هنا، ولا يعرفها حتى كثير من الخواص، وليس العوام فقط، وصنعتها كما شاهدتهم يصنعونها ذات مرة في المطبخ، أن تؤخذ الإلية الطرية، ثم تقطع وتسلّى ويخرج حمّها، ثم يؤخذ اللحم السمين، يقطع صغاراً ويلقى على الإلية المسلية ويحرك حتى يتورد، ثم يجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح، ويترك حتى ينضج وينشف، ولا يبقى من مائه سوى الدهن، وتلقى عليه كسفرة يابسة، وكمون مدقوقين دقاً ناعماً ودار صيني، وفلفل مسحوق، ومصطكى، ويحرك، ثم يؤخذ

من اللبّين الفارسي بقدر الحاجة فيجعل فيه الثوم المدقوق، ويطرح في القدر، ويترك حتى يغلى، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلاً فقلت منذ قليل وتترك على نار هادئة حتى ينعقد اللبّين ويقذف دهينه أعلاه، ثم يذر يسير من دار صيني مسحوق ناعماً، وتمسح جوانب القدر بخرقه نظيفة وترفع.

ثم إنه راح يدندن من جديد حتى غلبه النعاس، فانقلب على ظهره ونام في موضعه على الأرض، بينما بقيت ساهراً أفكر في كل ما قال وأنا أصدق في الجمرات ولهيبتها المتراقص أمامي.

صارت معرفتي بالحسين بن فالح تتوثق شيئاً فشيئاً، فكلما مرت الأيام توغلت في دروب نفسه، وكشفت له عن آبار روحى. كان قد أخذ بتعليمى العربية، و كنت قد تعلمت منها شيئاً على يد عزيز عيني ثاونا في بر مصر قبل ذلك، وقد حمدت الله كثيراً، لأن ما أدركته منها أعاننى على محنتى التى عشتها بأنطاكية، وكانت العبارات التى ألممت بها هى معينى وسبيلى فى تفهم الذين التقيتهم هناك.

غير أن الحسين بن فالح المراعى هو الذى جعلنى أتقدم وأحرز أشواطاً فى تعلم العربية، فقد ظل صبوراً على مثابراً منذ البداية، بينما كان يعلمنى رسم الحروف بخط موزون جميل، وهو الذى أتانى بدواة وحبر كان يضعه فيها بعد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتبقى بالوقايد بعد خلطه بالصمغ الحضر موتى الجيد، وكنا نسهّر سوياً كل ليلة، نتسامر ونتحدث حيناً، ثم يعلمنى شيئاً ونحن نتعاطى حشيشة الكيف، وهكذا صرت أتقدم شيئاً فشيئاً، وأدخل عالم الحسين بن فالح الذى بهرنى، وصيرنى كالمسحور الصاعد على درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوباً رغماً عنه إلى الدرجة التالية، وقد بات يكشف لى بين الحين والحين عن وجه من وجوه نفسه العديدة التى لا تستبين وتتموه فى ذلك القناع الجاف المرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهر لكل من يعمل معه.

كنت مع مرور الأيام، أدرك أن بداخل معلمى تمرمر مزمز يفسد عايه أية سعادة يرومها، وأى سرور يكون عليه، كان بين الحين والحين يسرّب لى بعضاً

من عذاباتِه بسبب عدم وقوفه على حقيقة أبيه، وبدا لي أنه لم يغفر لأمه أبداً، ليس بسبب ذلك، وإنما لموتها المبكر، وقد غدر به وتركه وحيداً في هذه الدنيا، فكم تمنى أن تظل إلى جانبه لا تذهب، حتى ولو أتت له بألف شقيق، أو شقيقة من طريق الإنثم والحرام، وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثور على أبيه، والخروج من بغداد إلى موطنه الأصلي بمراغة باحثاً عن ذلك الأب المجهول ليطفئ نار عذاباتِه، لكن الحسين لم يكن يخرج من القصر - في الحقيقة - إلا ليزور بيت الخنا في بغداد، فيترك نفسه للقيان من كل لون وجنس، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه، ولكن إلى حين، وفي مرة من المرات، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن القلب بين مثل ذلك الطراز من النساء، كان السؤال قد خرج مني عفواً، ودون ترتيب أو تدبير سابق، فكان أن داخلني حرج وصرت كمن يرغب في التراجع عنه، إذ شعرت أنني قد جاوزت حدّي، وأنني أدس أنفي فيما لا يخصني، غير أن الحسين أراحني بجوابه وأوقعنّي في معضلة روحية جديدة معه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيراً في بعض الأمور، إلا أنني لا أستطيع تجاهل معاييه والجانب المعتم الغامض من روحه، والأقرب إلى الوثنية أو الوحشية الأولى التي ظلت على حالها دون سموها إلى الإنسي السامي، فقد ضحك الحسين طويلاً، وكأنني سألته ما يضحك، فلما انتهى كح وقال بجد:

- أتزوج؟ أنا لا أريد أن أتزوج أبداً يا بدير، فالحقيقة أن بي شيئاً يجعلني أرغب في كل نساء الأرض، لا واحدة، ولا اثنتين، أو ثلاث، أو أربع يكفينني. أحياناً أقول لنفسى، إنما ذلك بسبب أمي، ربما كنت أحاول القصاص منها في سرمحتي الدائمة مع النساء، ومرات أخرى أقول إنما أنا أبحت عن امرأة على شاكلتها ولا أجدها أبداً، لا أدري.. لكني على ما أظن لن أتزوج أبداً مهما طاللت أيامي في هذه الدنيا.

بدا لي الحسين، وهو يقول ذلك، وكأنه زنديق كافر، أو إنسان يتراوح دوماً بين الإيمان والكفر، أو الرذيلة والطهر، رحت أحدّق بعينه على أجد ما يشفي غليلي ويرسيني على حقيقة أمره، غير أنه فاجأني بسؤال صدمني، إذ قال :

— وأنت ؟ لماذا لا تتزوج بإشاطر وتكفّ عن نسيان آمونة وسويلا؟ والله لو أخذتك مرة معى إلى بيت الخنا، فلسوف تدمن الأمر إيمانك لحشيشة الفقراء الآن، ثم أليس لك مثل ما للرجال؟ أليس بك حاجة للنساء، أم أنك عنين بالميلاد، ولا رجاء فيك بهذا الأمر؟

غضبت منه للغاية، وقلت له: إن هذا ما لا يجوز من الكلام معى، فأنا لا أرغب الخوض فى مثل ذلك. وندمت أشد الندم على سؤالى الذى أتاح له هتك ستر الحدود بينى وبينه، فلما وقف على تكدرى وضيقى، ربّت على كتفى واعتذر بكلمات تطيب خاطرى، وقال: هيا أعلمك شيئاً جديداً هذه الليلة. كنت فى الحقيقة أخاف أن أكاشف روحى بسؤاله، قبل أن أواجه بإجابة ما، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتى فى النساء، فرغم كل ما حدث، ورغم مراراتى، وتجارب الأيام الصعبة معهن، ولوعتى على آمونة وسويلا، وقسمى لنفسى أن لا يكون لى أمر مع أية امرأة فى الدنيا بعد ذلك أبداً، إلا أن رغبتى بهن كانت تداهمنى بين وقت وآخر، كنت ألقى آمونة وسويلا فى أحلامى مرات، فيحدث لى ما يحدث للرجال، فأفئق وقد أدركت أن الشيطان أغوانى وورطنى فى النجاسات، فأنقبض وأظل مهموماً طيلة يومى، حتى يكون وقت المساء فأنغمس فى عملى، إلى أن يدركنى الحسين بحشيشة تنسينى ما كنت عليه، والحق يقال إننى قد بدأت أعود على هذه الآفة أتعذب حيناً لعدم وقوفى على محروميتها، وبت لا أحيد عنها لأنها تريحنى وتدخلنى فى جنات تنهيا لى وكأنها جنات عدن، وكأنى أراها رؤية العين وألمسها لمس اليد، بل وأشمها وأتذوق ما فيها، فألبث على هذى الحال ساعات من الوقت، أرقل فى الرضا والسعادة حتى أفيق.

كانت الكتابة قد أزلت عن عيني غشاوات كثيرة، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا، ضمن تدبرى لأحوالى، بل وكان ذلك سبباً فى زيادة طلبتى للأسئلة، لمعرفة أحوال الخلق والعالم، ولا أدرى، كيف كان يتم ذلك ؟ فالحسين بن فالح كان يدفع بى من سؤال إلى سؤال، وكان تعليمه لى باباً ففتحته لألج منه إلى أبواب أخرى، أدركت من خلالها أموراً عدة، بما فى ذلك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت

أظن أن الحسين يبتعد عن القصر حيناً، ليزور بيوت الخنا، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين كانوا قد أدركوا أمه وقت اشتغالها بالأسواق، لكنني تفتنت إلى أن الرجل كانت له شؤون أخرى بالمدينة، فهو ينتمي إلى جماعة من الناس تهدف، كما يقول، إلى إقامة العدل على الأرض. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الجماعة، لكن الحسين كان يحادثني طويلاً عن أحوال الناس في مدينة الخلافة، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم، بينما هنا في القصر تبذل الأطعمة والمأكّل على قلة من حشم وخدم وجواري الخليفة، الغارق في ملذاته، والعائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية، وكان يقول لى: إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر، فلا السواد، ولا البياض، ولا الغنى ولا الفقر، ولا الجنس أو الأصل، هي أسباب للتفريق بين البشر، وباعت لتسلط بعضهم على البعض الآخر، وكان يحكى لى كثيراً عن نبي المسلمين محمد وعن الإمام على ابن عمه، وكيف كانا ورعان عادلان، أقاما الإنصاف بين الناس، ولم يكن هناك معيار للتمييز لدهما غير تقوى الله والورع والصلاح، وكنت عندما أخذ إلى نفسى قبل النوم، أو عندما أنصرف وحدى لأمر من أمور الوقايد، أفكر فى كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما فى دينى من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما فى الإسلام من معان ودلالات، وكنت أتوصل فى النهاية، إلى أن الرب، هو رب كل البشر، أجمعين، وأن جوهر كل ديانة ما هو إلا هداية البشر، ودفعهم إلى طريق السلام والطمأنينة، وصعود بمداركهم الوحشية إلى مراتب إنسية سامية، ثم إن الحسين ارتأى ضرورة تعليمى القرآن حتى أتمكن من العربية، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ، فأخذ يحفظنى بعضاً من آياته، بعد أن أعلمنى أنه مسموح لغير المسلمين من الملل الأخرى بقراءته والاطلاع عليه شرط أن يكونوا طاهرين بعيدين عن كل دنس ووسخ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنة الفرقان، وقد وجدت فى آياته ومعانيها سلامة وعبرة، وبدأ قلبى ينفث للإسلام شيئاً فشيئاً حتى بدأت أرغب فى الإسلام، والحق يقال، فلقد ظللت متردداً متشككاً وقتاً، بل وبقيت روحى معذبة حائرة بينما كنت أسأل نفسى الأسئلة وأتمثل أمامى عزيز عبنى ثاونا وهو يجيبنى عليها، وكثيراً ما قلت لنفسى، لو كان ثاونا مكانى فإنه لا بد أن

يؤمن بما آمنت به، ويدخل في دين الإسلام مثلما أرغب وأريد، ثم إننى عندما كنت جالساً وحدى أمام الوقايد فى نهاية ليلة من الليالى أفكر محدقاً فى النار، تذكرت ما قاله لى ثاونا ذات يوم، من أنه قرأ فى إنجيل قديم جداً عندما كان فى دير بصحراء القلزم - وهو من الأناجيل المرفوضة فى الكنيسة الآن - أن السيد المسيح ذكر لتلاميذه أن ابن الموعد هو إسماعيل، وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيا المنتظر، بل وأكد أنه ليس أهلاً لأن يحل سيور حذائه وأن هذا المسيا هو محمد نبي المسلمين، ومن علامات ظهوره سقوط عبادة الأصنام، واستقرار غمامة بضاء عليه عند ارتحاله من موضع إلى موضع، وأن الكنيسة رفضت هذا الإنجيل، المسمى إنجيل برنابا، والمحتوى على رسالة برنابا هذا، وعلى جزء من كلام راعى هرمس، إضافة إلى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى.

كانت أفكارى قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونا هذا، وبقيت وقتاً جامداً أفكر فى معنى كل ذلك الكلام، وبينما أنا جالس على هذه الحال، إذ شعرت وكأن يداً قد لمست كتفى لمساً جانبياً خفيفاً، فالتفت لأرى من ورائى، إذ كنت مدركاً أن كل من حولى نائم وحتى معلمى الحسين بن فالح، فتعجبت إذ لم أر أحداً واقفاً خلفى، وإذا استدبرت لأرى، سمعت همس ثاونا قوياً واضحاً فى أذنى: لماذا أنت خائف بالله عليك. أفعلمها وتوكل على الله.

لا أدرى هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذى أعلنت لنفسى فيه دخولى دين الإسلام، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هى التى دفعتنى دفعاً إلى ذلك. إن اللحظات الفاصلة فى الحياة هى أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقين، فهى ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر، وتتخالط فيها الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات، وتضيق فيها الإجابات مع الأسئلة: متى؟ وكيف؟ ولم يحدث هذا؟ إنها البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت، وقد اكتملت ليلتى بما لم أكن أفكر فيه أو أنتويه، إنما هو قدرٌ قدر لى، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه.

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قرّ عزمى على أن أنبئ الحسين بن فالح برغبتي في إشهار إسلامي عندما أفيق، وكنا قد تعاطينا حشيشة الفقراء معاً قبل أن ينام، ولا أدري كم من الزمن نمت، أو كيف مر الوقت وأنا نائم، فقد أفقت مذعوراً بينما الحسين يهزني بعنف، وأصوات الديكة بحظائر القصر تخترق مسامعي، وهو يقول لى:

- بدير.. فرّ بسرعة، إنهم يطلبون مجمرة جديدة للخليفة؛ لأن ما لديه في مجلسه من نار قد صفا وانطفأ وقارب على الانتهاء.

- قمت مهرولاً بسرعة، أحضرت المجرمة، ورحت أضع الجمرات فيها بكماشة النار النحاسية، التي هي على هيئة فك أسد، وبينما كنت أوشك على الانتهاء من ذلك وأهم بارتداء نعلي للذهاب، جاءني صوته حازماً أمراً:

- تهاياً ولا تتهيب.

لم أع المقصود بعبارته، إذ كنت ما أزال بين النوم والصحو، لكنى سارعت الخطى وراء الحارس الذي جاءنا طالباً النار، والمجرمة في يدي أحملها بكل احتراس وتنبه، ورحت خلفه أجتاز دهليزاً إثر دهليز مهتدياً بنور الشعلة التي يحملها، ثم إنني هبطت أفنية وفسحات وصعدت سلالم خلفه، حتى وصلنا أخيراً إلى موضع عليه باب مهيب التمتع فضته وذهب على ضوء شعلة الحارس، بينما وقف ديدبانان لم يسمحا لنا بالاقتراب من ذلك الباب، بل راح أحدهما يطرقه طرقات حيية، وتراجع خطوات إلى الخلف مشيراً إليّ أن أتقدم، وبينما هممت بالخطو، إذ بالباب يفتح لتنبعث من ورائه أصوات غناء وطرب، بينما شادية يتصاعد صوتها سحراً ودلالاً وهي تنشد:

يا ليل دُم لى لا أريد صباحاً      حسبي بوجه معانقى مصباحاً  
حسبى به بدرأ وحسبى ريقه      خمرأ وحسبى خده تفاحاً

وماهى إلا ومضة زمان، حتى استبانتي عن الفتحة الموارية للباب جارية لم أر أحسن منها منظراً وقد امتثلت أمانى، ولا شئ عليها غير غلالة رقيقة مقصبة وقدّمت كوزاً من لجين ما كان إلا يدها لتتناول المجرمة منى.



لن أدرك أبداً، مهما مرّت بى الأيام، هل كنت أعيش الحقيقة خلال ذلك الوقت، أم أننى كنت فى فردوس ونعيم؟ هل كانت حشيشة الفقراء هى التى هيات لى ما تهياً، أم أنها كانت الحقيقة متجلىة عياناً لكل من رأى وشاف؟ فصورة الجارية بدت لى على نحو نورانى لا يمكن أن يكون جسدياً، خصوصاً وأنها بدت لى خلال وهلة من الزمن وكأننى رأيتها قبل ذلك، وقفت متسماً هنيهات، أشدّ ذهنى غير مصدق، وفجأة تذكرت منامى الذى كنت قد رأيت ذات مرة وأنا على الحرافة فى البحر وقت إبعادى عن بر مصر، فلم أنمالك نفسى وكاد أن يغمى على، إذ أدركت أن هذى الجارية ما هى إلا الفتاة التى كانت تدفعنى فى الماء إلى البر وأنا لا أعرفها، فها هو حالك الليل المنهمر شلالاً حتى الردفين على بياض جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة، وها هو المبسم الياقوتى ينفرج عن السن الوضاء الذى رأيت فى منامى .. أما العيان فكاننا النار التى أحرقت حسى عندما رأيتهما تلتمعان بغزير الخضار بينما هى تنظر إلى، فشعرت بدوران الأرض تحتى بينما راح بركان يثور بدمى، ورياح تعصف بصدري، وبدلاً من سقوطى على الأرض بما أحمل فى يدى، وقد شملتنى زلزلة جوانية عنيفة، وقد رأيت نهديها وأوشكت على ملامستهما والقبض عليهما لأهصرهما بيدي، وجدتنى ودون أن أدري أمد راحتى ببطء إلى جمرات النار المشتعلة، وقد تسمرت بمطرحتى، وتجمد ناظرى على البدر النورانى المشعشع أمامى، ثم رحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف، وقد توقدت بداخلى واشتعلت جمرات من نار أقوى وأشد، وصرت كمن مسّه مسّ من شيطان أو جان، فلم أشعر بأدنى حرقة أو ألم، ولم تندّ عنى آهة أو صرخة، وكأن ما حفنته وقبضته لم يكن إلا قبض ريح أو زلال ماء.

نظرت إلى الجارية مذهولة - وكذا كل من كانوا حولى - ما أن رأوا يدي قابضة على الجمر، وقد بدأت راحتى فى الاحتراق والنهر، فما لبثت الفتاة قليلاً إلا وصرخت صرخة عظيمة وكأن الصيحة قد أدركتها، لتسقط على إثرها مغشية عليها أمام الجميع.

لا أدري كم من الوقت مرَّ على وأنا على هذه الحال، كل ما وعيته بعد ذلك هو أن رجلاً ظهر في جمع حوله، وعليه طيلسان مذهب، ما أن رآه الديديبانان والحارس، حتى خروا ساجدين جميعاً، فأدركت أنه الخليفة، لكنى بقيت على ما أنا عليه، لا أبالي بكل ما حولى، ولا أشعر لهيب النار الأكل لجلدى ولحمى، فما أن رآنى الرجل على هذى الحال، والجارية ممددة على الأرض، حتى هتف بصوت مهزوز، أحسنت هزته قوة المفاجأة، وقال بكل هيبة ووقار:

- فليرحمك الله، وليغفر لنا أيها الشاب المسكين. اذهب أيها العبد. أنت طليق، والجارية لك.

ثم تركنا ودخل من حيث جاء.

خرجت من قصر الخليفة فى صبيحة اليوم التالى، أصطحب الجارية، ومتاعى القليل وقد كومتها فى بقعة، وكان كل ما أملكه : قليل من الدريهمات أعطوها لى وقالوا إن الخليفة نفحها إياى مع الجارية، إضافة إلى رقعة موقعة وممهورة بما يثبت أن الجارية ملكى يجوز لى التصرف فيها مثلما أشاء، فيحل لى الاحتفاظ بها أو بيعها أو وهبها، وكان معلمى الحسين بن فالح قد سارع بمداواتى بعد رجوعى إلى الوقايد، فذهن يدى بزالل بيضة ودهن صبار ورش عليها بعضاً من طحين، ورغم آلامى التى كانت لم تزل قوية، حاضرة فى راحتى، إلا أننى كنت سعيداً بعثقى وعودة حريتى، وفى ذات الوقت داخلنى شعور بالتعاسة بسبب فراقى الحسين بن فالح، وغلب همى لأنى مغترب فى هذى البلاد، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين، وهما أنا مضطر إلى مفارقتة منذ هذا الحين. والحقيقة، لقد خشيت أن تعصف بى التعاسة والضيايع، فأهيم على وجهى مرة أخرى، مثلما كان الأمر فى مبتدأ زمانى، وقبل التحاقى بكنيسة قصر الشمع.

غير أن الحسين - أيده الله - رتب لى كل شىء، فبينما هو يودعنى ونحن سائران معاً إلى باب القصر، أعطانى مكتوباً لبعض أصحابه ونصحنى بالتوجه إليهم فى ناحية من نواحي المدينة، وقال إنهم سيقدمون لى كل عون، وسيكونون بالنسبة لى بمثابة الأخوة الأوفياء.

ثم إنهم أعطونى مكتوباً بالأمان من الخليفة، لئلا يعترضنى حرس، أو معترض من أولى الأمر فى المدينة، أو أى من أهل الاختصاص، فسرت بقلب وجل مخطوف، وخلفى الجارية تتبعنى، وكان بى كثير من تخبُّط وحيرة، فأنا لا أعرف إلى أين أنجه، وهل أتقدم يمينا أم يساراً، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للنظر إلى الجارية، بينما هى تسير صامتة لا تقول شيئاً، فلما غاب قصر

الخليفة عن بصرى التفت إليها، وكنت قد فكرت فى أمرها طويلاً، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتي، وبذلت طاقة كبيرة لتعينني على الكلام:

- تستطيعين مفارقتي هنا. أنت حرة من الآن، ولا حاجة لى بك.

فغرت الجارية فاهاً، وتوقفت عن المسير، وقد أخذت بما أعلمتها به، وقالت:

- إلى أين أذهب؟ أنا لا أعرف أحداً بهذه المدينة، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق فى قصر الخليفة. قل لى بالله عليك ماذا أفعل يا سيدى؟ بريك أبقنى معك، ولسوف أكون أمتك وأينما كنت وإلى الأبد.

أسقط فى يدي، وشعرت وكأننى قد وقعت فى ورطة حقاً، فقد كنت بعد عودتى إلى الوقايد، إثر ما جرى لى على باب الخليفة، قد أصبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور، رغم مواساة الحسين بن فالح لى ومحاولته طمأنئتي، وتندّره على لفوزى بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط، ناهيك عن أنها من جوارى الخليفة الخواص، وهكذا بتّ ولا رغبة لى فى شيء بهذه الدنيا، خصوصاً جنس النساء، وقد أدركت بعد كل ما جرى فى الليلة الفائتة، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد، وكيف أن هذه الشهوات تسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته فى لحظات سريعة، فكرهت أن تكون نفسى على هذا النحو من الضعف والانحطاط، وعاهدت ربّى ألا أفعل ذلك بوديعة أبداً، فلا أضع روحى فى موضع التحقير والإذلال، لذا وجدتني أقع فى حيص بيبص ولا أدري ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقاً، لكنى رفقت بها وبحالها فقلت:

...إذن، اذهبي معى إلى حيث أنا ذاهب، لكن أنت من الآن بمثابة أختى أبنّة أبى وأمى، ولن ألمسك أبداً مهما كان الأمر، وليقدّر لك الله كل خير، ويعينني على نفسى وما تقدّمه الأيام.

سرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث، فعرفت أن الجارية اسمها ريطة، لكن هذا ليس اسمها الأصلي، فلقد خطفت وهى طفلة صغيرة فى غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التى كان يقيم بها أهلها من البدو والمرتحلين، من

مكان إلى مكان، وهى تذكر أمها جيداً وما فتئت تحن إليها بين حين وآخر، وكانت أمها تتأديها تماراً، وقالت لى إنها لا تعرف لها أهلاً منذ أن بيعت لنحاس ببغداد، وظلت تنتقل من سيد إلى سيد، حتى وهبها آخر رجل كانت عنده كهدية إلى الخليفة، فجعلها فى مجلسه بسبب مهارتها وحذقها فى الدق على الآلات، وصوتها الحلو فى الطرب والغناء.

تتبع الخريطة التى رسمها لى الحسين المراغى بدقة، فقطعت دروباً وحارات منعطفاً ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرّات، ثم إننى عبرت جسوراً على النهر، وأخيراً وجدتني مع الجارية فى خطة من خطط المدينة يقال لها خان أبى زياد، وهناك سألت عمن أقصده وهو الشهاب الحلاج، وكان النهار قد استبان وتوضح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم، فدلنى الناس على موضع به رجل فى دكانه يحلج القطن مع صبى له، فلما رأتني واقفاً ببابه قام إلى فتقدمت منه، وعرفته بصفتي وحالى، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبها له الحسين بن فالح، فلما قرأها أشار إلى صبى من صبياناه وطلب منه أن يأخذنى إلى ربع قريب، كان به منزله، فلما اقتربنا منه وجدته داراً قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى ما جاورها، ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، ثم إننا ولجنا خلف الصبى إلى بيوتها وكانت غرقاً لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنبها، يدور بداخلها برطال مستعل على أرجل متخذة من اللبن والحجر الملبس بالطين على غير دراية أو نظام.

ثم إن الصبى نادى من خلف أبواب الغرف على أهل البيت، فجاء صوت امرأة أظن أنها كانت زوجة الشهاب الحلاج، لأنه قال لها: زوجك يقروك السلام ويبيع لك بهذا الرجل وجاريتته، فأنزلهم بمنزلة أهل البيت.

ما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مستورة لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كحيتى لوز، فحيثنا وسألت الصبى أن يسبقها ويصعد بنا إلى واحدة من غرف البيت حتى نعرف مستقرنا ونستريح، فلما دخلنا الغرفة، ذهب الصبى إلى المرأة وغاب قليلاً، ثم عاد إلينا بصفحة عليها بعض من سفرجل، وتفاح، وشراب ورد لا أظننى شربت أطيب منه فى يوم من الأيام.

كنت خلال ذلك، ما أزال أفكر فى أمر الجارية، وبت حائراً أترأخ بين التخلّى عنها والإبقاء عليها، فلما جاء الشهاب قرب حلول المساء بعد فروغه من عمله ودكانه، جلس إلىّ، فبحث له عما بنفسى تجاه الجارية، وأخبرته برغبتي فى مفارقتها، على نحو لا يسبب لها ضرراً، ولا يلحق بها مكروهاً.

فكر الشهاب قليلاً، ثم أشار علىّ أن أترك الأمر بضعة أيام حتى يأذن الله فى أمر الجارية، ثم إنه قام وأخذها إلى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها، ووعدنى بأن يجد لى من العمل فى الأسواق ما أقتات منه ويعيننى على صروف الأيام، وذلك بعد أن تشفى يدى وأصبح قادراً على ممارسة الأعمال.

وكنت خلال أيام مكوثى ببيت الشهاب، أشمّ روائح ذكية بين الحين والحين فأتعجب من أن يكون لمثل هذا الموضع، كل ذلك النسيم العاطر، فلما توثقت علاقتى بالحلاج بسبب جلوسه إلىّ وقتاً كل ليلة بعد فروغه من عمله، وصار بيننا تباسط فى الحديث، قلت له: إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب، تجعلنى أشعر وكأننى فى بستان ورد أو مرج زهر، والله لأنكم، أنت وأهلك، من المحظوظين إذ تقطنون موضعاً كهذا، قد لا يوجد مثله فى المدينة أبداً.

ضحك الشهاب ورد قائلاً:

- أتظن ذلك ؟ الحقيقة يا ولدى أن امرأتى تشغل بصنع العطر ودهن الطيب، وهى فى دارها، وتبيعه للدالات والنساء اللواتى يقصدنها لهذا الغرض.

ثم إنه وعدنى أن يرينى موضع عملها هذا فى الدار، فلما أصبحنا، صحبنى الشهاب إلى حجرة سفلية فى مبتدأ صحن الدار، فوجدت فيها ما لا يحصى من القوارير الصغار والكبار، منها النحاسى ومنها الفضى والزجاجى، وكلها مليئة بالعطور، وكذا أحقاق ملئت بدهن الزهور، فكان الحلاج يجعلنى أشم منها شيئاً ويقول لى صفة كل منها، فهذه متخذة من البنفسج، وهذه من النيلوفر أو النرجس، وهذه من الكارده أو السوسن، وكانت هناك مجموعة أحقاق جميلة صنعت من الخشب المحفور على هيئة أطيّار، وقد عبّئت - كما قال: بدهن

الزنيق، والمرسين، والمرزنجوش، والبادرنك، والنانج. فتعجبت من كل ذلك ومن كون امرأته تعمل في مثل هذا، وأجلتها كثيراً مثلما أجلته، إذ بدا لي محترماً لامرأته، ومقدراً لعملها.

ألحقني الشهاب العلاج بخدمة صاحب له يدعى العفيف الوراق، وكان الرجل مشغلاً بصناعة الكتاب، يدفع الناس إليه بما يؤلفون ويبدعون، فيقوم بنسخه وتجليده بورق يصنعه وأحبار يعدّها لذلك الغرض، فتخرج آية في الجمال والإتقان، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطوه.

كان ذلك قد تم بتوفيق من عند الله، وبمحض الصدفة، ففي ذات ليلة دخل على الشهاب بينما كنت ساهراً أخطأ بعضاً من دروس كان قد لقنها لى الحسين بن فالح، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنية جميلة من سورة العصر، وهى: «إن الإنسان لفي خسر»، فسر الرجل لما شاهد خطي سروراً عظيماً وقال:

- يا الله.. إن لك خطاً جميلاً.. حلت مسألتك والله. من الغد سأعهد بك إلى العفيف الوراق وسوف يفرح بك فرحاً عظيماً.

كان دكان العفيف يقع في سوق الثلاثاء بالقرب من درب العاج بخارطة باب الطاق، وقد أخذت بسوق الثلاثاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمي لأول مرة؛ وذلك بسبب اتساعه وكثرة دروبه، فهناك درب للزيت، ودرب للأساكفة، وسوق للبطيخ، وآخر للصبانين، وقد علمت بعد ذلك أن هؤلاء باعوا مرة في ليلة عيد الفطر ألفاً، وألفاً، وخمسمائة ألف رطل صابوناً، على حساب أن كل إنسان يحتاج في ليلة العيد إلى رطل من الصابون. كما باع الزياتون ألف جرة، ومائة جرة، وثمانية جرار ونصف زيتاً حساب الجرة ستون رطلاً.

وكانوا يصنعون بهذا السوق سوق الحمص ويبيعون منه كميات مهولة، حتى قيل إن ما بيع منه في وقت من الأوقات كان مئة وأربعين كراً لم يبق منها شيء، وسويق الحمص غير طيب إنما يأكله المتحملون، والضعفاء شهرين أو ثلاثة، عند عدم الفواكه، ومن لا يأكله من الناس أكثر.

كان العفيف رجلاً هادئاً كتوماً، قلما رأيته مبتسماً أو منفرج الأسارير، بل بدا مهموماً دوماً، وكان شعره أشيب ووجهه مغضناً، رغم كونه شاباً لم يقف على عتبات الكهولة بعد، وكانت تلازمه جزة بأضراسه كمن يصطبر على غم، أو يكتم غيظاً لا ينقضى، وكنت أظن في البداية أن سكاته وصبره من طبيعة نفسه، لكنني أدركت بعد أن أوغلت شيئاً في فنون هذه الصناعة، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال، فالرهافة، والإخلاص، والاصطبار إنما هي من لوازم من طلب الوراقة، والخط، والنسخ، والتزيين، والتجليد، فكل هذا إنما يحتاج ابتداءً لا يأتى إلا بالتخييل وفن الأفكار.

ولقد فتحني دكان العفيف على عالم لم أكن أدركه من قبل وهو عالم الدرس والبحث، فلقد كان ذلك الدكان محباً لكل مشغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم، وكثيراً ما كان يلتقى أصحاب الحاجة للنسخ فيه، فيتصافى أن تدور بينهم المحاورات، ويشتل جدلهم بمتباين الأفكار، فأظل مستمعاً إلى ذلك، بينما أنا أعمل فيما يوكله لى معلمى، صاحبه، من أعمال، وقد رأيت فى هذا الموضوع بالسمع، ما لم أره طوال حياتى بالنظر، وعرفت أقواماً لم ترهم عيني، لكني أدركت أفكارهم ومعتقداتهم، ووقفت على علماء، وأعلام، وشموس، وأقمار فى سائر العلوم والمعارف غير ما كتبوه وابتدعوه وجلت ببغداد وأنا فى موضعى أخط ثمار فكرها، وخلاصة عقلها، فأيقنت أنها حاضرة الدنيا، وهى مسجد، وحانة، وقارئ، وزامر، ومتهجد يرتقب الفجر، ومصطبح فى الحقائق، وساهر فى تعبد، وساهر فى طرب، وتخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، وشك فى دين، وإيمان فى يقين.

وكنت فى مبتدأ اشتغالى مع الرجل موقفاً على تعطين القطن المجلوب حيناً من بقايا ما يعمل صاحبه الشهاب العلاج، أو مما لدى الحلاجين الآخرين بالسوق، فكان على أن أخلط بقايا القطن بالخرق القديمة والماء حتى تتعطن وتتعجن وتصبح صالحة للفرد، ولم يكن مسموحاً لنا نحن صبيان ومعاونيه الاطلاع على صنعة الفرد، ولطافة الورق، ومواءمته للكتابة والنسخ، وقد كنت



أتعجب لذلك في بادئ الأمر، لكنني افتهمت بعد ذلك أن هذه عادة كلِّ الوراقين، فسَرَّ الصنعة إنما هو شأن لا يصحُّ أن يدركه سواهم، حتى تظل فيهم فيحكمونها ويسيرونها وفقاً لمشيتهم وأهوائهم.

وكان هناك نوع من الكاغد يتم تعتيقه حيث يتخذ من الأوانى النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى وي طرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليان ذلك حتى ينقص الماء، ثم يضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجة إلى تلوين الورق، أو يصب في أطباق وصحاف واسعة، ثم يغمس فيه الورق غمساً رقيقاً، ثم ينشر بعد ذلك لكي يجف، حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض، وكلما جف يسيراً يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه، وهكذا حتى يصير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة.

وذات نهار وبديما نحن منصرفون لعملنا بالدكان، إذ سمعنا أصواتاً تتعالى وصراخاً وعويلًا، فقمنا جميعاً للنظر الأمر، فإذا بحريق ضخم قد اندلع في سوق الخرازين، والناس قد تكالبت لإطفائه، والقرايبية رائحون غادون بالماء المنقول، فلما هدا الأمر بعد ساعات وظهر أن حدَّ ما احترق من أول سوق الخرازين إلى طاق الحرانى، قيل إن السبب في حدوث ذلك هو أن جملاً عليه قصب اجتاز في سوق الخرازين، وكان رجل يقب لؤلؤاً وبين يديه نار، فوقع طرف القصب على النار فاشتعل وبلغت النار الجمل في لحظة، فكان الجمل كلما أحس وقع النار عدا، وتناقض الشرار من جانبي الطريق فحرق كل ما يجتاز به فلم يزل على ذلك إلى أن تلف الجمل، وقد تلف ناس كثير في الدور والعقار التى لحقها الحريق، وزالت نعم عظيمة بذهاب الأموال.

وفى مبتدأ الأمر لم يكن العفيف يسمح لى بالنسخ، إذ كنت ما أزال جاهلاً غشوماً بذلك الفن العظيم، والذى يحتاج إلى حذق ومهارة، إنما كان يعهد بذلك إلى اثنين من معاونيه يعينونه على ما يتكاثر عليه من كتب يطلب نسخها طلاب العلم وأصحاب المصلحة والحاجة، وكان أحسن الورق ما كان ناصع البياض، غرفاً، ضقيقلاً، متناسب الأطراف، صبوراً على مرور الزمان، وأعلى أجناس

الورق فيما رأيت هو البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونة، ورقة حاشية، وتناسب أجزاء، وقطعه من الشائع المعروف، ولا يكتب فيه، في الغالب، إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله ككتاب الإنشاء في المكاتبات الديوانية، ودون ذلك في الرتبة الشامي، وهو على نوعين : النوع الدمشقي ونوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي، ودونهما في الرتبة الورق المصري الذي قلما يصقل وجهاه جميعاً، وما يصقل وجهاه يعرف بالمصلوح، ثم هناك ورق الفوي، وهو صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف لا ينتفع به في الكتابة، إنما يتخذ للحلوى، والعطر، ونحو ذلك، ودون ذلك كله ورق الروم والفرنجة، فهو رديء جداً، سريع البلى، قليل المكث، وقد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مرّ على العفيف، بالمكان ذات مرة، رجل من تجار الكارم الذين يجوبون الآفاق، ويذهبون إلى أرض البنادقة، فعرض بعضاً منه على العفيف، كان صكاً مكتوباً بالخط اللاتيني، لأمر من أمور تجارته.

ثم إن العفيف أشركني في تعلم صناعة الأحبار وسرّها رويداً رويداً فأدركت ما يناسب منها الكاغد، أي الورق، وهو حبر الدخان، ولتحضيره يؤخذ من العفص الشامي، وهو ثمر يؤخذ من شجرة، قدر رطل، يدقّ جريشاً، وينقع في ستة أرطال من الماء مع قليل من الآس أسبوعاً، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ويصفى ثانية، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن الزاج القبرسي كذلك، ويضاف من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة، ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتتع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقية، وذلك بعد سحق الدخان بكملة الكف، بالسكر النبات، والزعفران الشعر، والزنجار إلى أن يجاد سحقه، ويمنع صحنه في صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته.

ثم إنه أخذ يشركني في ذلك الأمر رويداً رويداً، وقد ظهر مني ما استحسنته في ذلك الجانب من حسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة، والتوفيق في برائة

الأقلام، وما لكل من سنى القلم من الحروف، وأجناس قط الأقلام، وهو المقصود الأعظم من البراية، وبعد أن تمكنت بدرجة من هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها، فالألف هى شكل مركب من خط منتصب يجب أن يكون مستقيماً غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب، ومساحتها فى الطول تكون ثمانية من نقط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثمن الطول، وهكذا يكون لكل حرف سره وسببه فى الشكل والهندسة، وكان مبتدأ ما خططته نسخاً هو نوع من التعاويذ يقال له الأحجية، وقد كنت أظن أنها لا تكتب إلا بالقلم الوثنى، مثلما كان يفعل قدامى الكهان فى بر مصر، ومثلما رأيته أكثر من مرة مع عزيز عيني ثاونا، لكن العفيف أخبرنى أن الأحجية هى من شأن بعض المشايخ، وأنه لا يحبز الاشتغال بها، لكن كثيراً ما كان يجيئه بعض الناس، ويلحون عليه فى كتابتها، وكان أغرب ما كتبت على هذا النحو حجاباً لرجل أراد الطيران فى الهواء فنسخته عن رق جاء فيه أنه من أعمال السبع الكلمات المذكورة المسماة القيراشية، وهى عزيمة مستجابة، ولا يعمل بها فيما يسخط الله ولا تستخدم إلا فى رضاه، يجب تبخيرها بالعود بعد قراءة الأسماء وكتبت فيها ٤٧٢٦٥ حه قيراش حه هيترا خورش جه منذ اقشطسن حه، عنطنلنطهسن حه عدا نقش حه دينا نقش حه كطلطيسن طلعود لطنس حه، بحق بعضكم على بعض، وبحق الكواكب السبعة، وبحق من اسمه وطاعته واجبة عليكم إلا ما قضيتم حاجتى وكنتم عونى، وكذا أقسمت عليكم بالملك الأصفر، وبحق الملك الأحمر، وبحقكم عليكم إلا ما قضيتم حاجتى وكنتم عونى وأعوانى، أعينونى، أقسمت عليكم بياجوج ومأجوج وهاروت وماروت إلا قضيتم حاجتى.

غير أن أحسن ما جرى لى فى دكان العفيف، كان تقاربى مع شاب يناهزنى فى العمر، يقال له اليشكرى، وكان من أوسم من رأت عيني من الرجال، له طلة محببة ووجه بدرى أليق بملك أو أمير، لكننى كنت ألاحظ أنه قلما يتحدث مع أحد، ولا يجتمع معنا على غداء، على رغم أن العفيف عودنا أن نأكل سوياً، نحن صبياناه، بعد صلاة الظهر، بينما هو يتوسطنا، بل كان اليشكرى يظل منصرفاً

إلى عمله بموضع التزيين والتذهيب بالدكان، وكان من أمهر من لدى العفيف فى هذه الصنعة، وذات مرة دخلت عليه بموضعه بعد صلاة العصر، فوجدته يتناول غداءه منتحياً، فتعجبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استنكافاً واستعلاءً، ورحت أتندر عليه قائلاً: أتظن أننا سوف نعدّ عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنا، أم أننا سنخطف منك ما تأكله، ألت أدرى بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها، فنحن لا نأكل إلا متأدبين بثلاثة أصابع مما هو أمامنا، دون ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، ونلحق أصابعنا قبل مسحها بالخرقة، ونشرب من الكوز فى ثلاثة أنفاس متقطعة، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغسل أيدينا بأشْفان، وكذا بعده، وننظف أحناكنا به كذلك.

فاستغفر اليشكرى الله من أن يكون امتناعه عن الأكل معنا كبراً واستنكافاً، ورأيت عينيه تدمعان وهو يقول لى إنه لا يخالط الناس طعامهم لأن أكثرهم يتقززون من كَانِتِ له علة مثل علته ويعافونه، ثم شمر لى عن كميه معتذراً فبدأ لى برصه ووضحه وقد أتى على الجلد من عند الرسغ وحتى الساعد على هيئة خرائط لا اتفاق فيها، وقال: إن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك، وإنه لولا مهارته وحذقه فى صناعة التزيين والتذهيب، واختصاصه بها، لما كان العفيف قد صبر عليه وتركه مستمراً فى العمل معه بعد إصابته بهذه العلة، فتألمت لذلك تألماً شديداً وقد شعرت أننى ظلمته وهيجت مرارته بذلك، ورحت أتذكر عزيز عينى ثاونا الذى كان يخالط المجذومين، وينزل إلى مواضعهم بالبرارى فى عيد يونان، فيحممهم بنفسه، ويكسيهم، ويواسيهم، فهاجت شجونى كذلك ودمعت عيناى، وبت من ذلك الحين ملازماً لليشكرى الأبرص، وقد مسنى حزنه وعكوفه على نفسه دون مخالطة الناس، فوثق بى ولان حتى فتح قلبه، وصار يفضض لى عن آلامه، ومعاناته، وعكوفه على نفسه بعيداً عن الخلق، كان لا يخرج من الدكان الذى ظل يبيت فى سقفة أعلاه إلا للحتم والضرورة، خصوصاً وأنه نزع من الكوفة منذ أمد ولا أهل له ببغداد، وأن جل قصده هو الانصراف إلى مجالس الزهاد وشيوخهم، فهم يبتئون فى أحاديثهم راحة للنفس، وعزاء عما فى الدنيا والتنزّه عنه.

كنت أخرج مع اليشكرى عند الغروب أحياناً، وبعد أن تنتهى من عملنا فى دكان العفيف، فنسير للتريّض على شاطئ موسى، والذي يمضى حتى يلاصق قصر الخليفة، فنظلّ ساعة أو ساعتين نتحدث حتى نبلغ نقطة انقسام الماء إلى الفرع المؤدى إلى سوق الدواب، والفرع المؤدى إلى دار بانوكة والذي يفتى عندها، ثم ذلك الذى يدخل باب سوق الدواب ويمرّ إلى العلافين، وكان اليشكرى، كما عهدته خلال ذلك كلما صفت روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة، يفتح قلبه بالكلام ويفضض لى ببعض ما بداخله، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعشّقها كثيراً، وجاهد حتى ظفر بها من ذوبها، وبنى بها، لكنها هجرته وطلّفته لما أصيب بما أصيب به من علة بعد ذلك، فتضاعفت حسرته ولعن الزمان وقد ضنّ عليه بما وجود به على غيره من محبة الذين أحبهم، وقد ضاق صدره وقتاً حتى إنه فكر فى إزهاق روحه، ليخلص مما هو فيه، لكنه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمل فى دكان العفيف، فبدأ يدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل، ففى ذلك المكان اكتشف - كما قال - أن بغداد ليست مدينة، بل هى مدن وبلاد، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسواق المؤن والغلال، وأنها عوالم متداخلة، وأفكار متصارعة، وعقل ونقل، وأن ذلك كله فتح عينيه على معان لم يكن قد أدركها من قبل، فأخذ يتناسى همّه وينشغل بهمّ الكلام والمتكلمين، حتى وقع فى يده ذات يوم كتاب لتذهيبه يسمّى كتاب الشكوك، فانبهر به أيما انبهار، فلما سألته عن سبب انبهاره، قال: إن هذا الكتاب جعله يشكّ فيما كان حتى توهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كان، حتى إنه شكّ فى هجر امرأته له وعمل على أنها لم تهجره، وإن كانت قد هجرته، وشكّ فى قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه.

ثم إنه ظنّ فى وجوب معرفة المنعم وشكره، وكذلك معرفة الحسن والقبيح، واتّباع الحسن واجتناب القبيح وذلك بالعقل قبل ورود السمع، وأن الناس محجوجون بعقولهم سواء منهم من بلغه خبر الرسول ومن لم يبلغه، وكلاماً كثيراً من هذا النوع، لكنه سرعان ما حاد عن ذلك لكثرة ما سمع من إشكالات ومساءل، وتقارع بالحجج والبراهين، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعوام، وهؤلاء

المتكلمين الذين يتكلمون فى ناحية والعامه فى ناحية أخرى، فالناس فى فقر وإملاق، والكلام لا يقيم لهم أوداً ولا يدفع عنهم جوعاً، فوقعوا فريسة الأفاقين والشطار والعيارين، يتلاعبون بجوعهم، ويشعلونهم حطباً لحروبهم ضد الخليفة والعسكر وأصحاب السلطان، فتذبذب أمره، وشت ذهنه حيناً، حتى حزم أمره، وقرر اعتزال كل ذلك، فسار فى طريق العارفين، وسلك مسلك السالكين فى الحب الإلهى الخالص، وقد طلق الدنيا وزهد فيها، واشترى بها محبة الله والدين.

كان إعجابى باليشكري يزداد يوماً بعد آخر، وتأثرى بما هو عليه يتضح لى شيئاً فشيئاً، فقد أيقنت أن مشكلتى هو أقرب لمشكله، وأن محنتى فى هذه الدنيا هى الأقرب إلى محنته، وأن تشاكل قدرى مع قدره لم يكن إلا من نعم العناية، ونظر عين الله لى بالعطف والرعاية، فبت ألصق به أكثر فأكثر، وقد بهرنى بفكرة السمو والصعود، عن كل ظاهري موجود، وقد أدركت أن ما بنفسى لهو قرين لما فى نفسه من حزن وألم، وأن شعورنا بعبث الوجود وتهافت الظاهر المحسوس، والمتجسد الملموس لهو من اتفاق أسبابنا، وأن رغبتي فى الزهد والبعد عن الناس، تتماثل مع ما لديه من ذلك، رغم خلوى من كل علة، وكل عيب يدفع الناس عني، ويجعلنى أتجنبهم وأوب إلى نفسى.

ثم حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى صاحبى العفيف، ودفع إليه بكتاب تعهد أن يبذل مقابل نسخه مائتى درهم، فلما تصفحه العفيف قليلاً انتفض وثار ثورة لم أعهده بمثله أبداً، ودفع للرجل بكتابه، وهو يقول : والله لا أفعل، حتى لو دفعت لى مال قارون كله، فلما ذهب الرجل، وكنا قد تجمعتنا حوله نحن صبيانه، ظناً منا أن هناك مصيبة قد جرت، جلس يستغفر الله وهو فى ضيق وألم، فلما تفرق الجميع وبقيت معه، استحلفته أن يفضفض لى عما بداخله، وكان الرجل يستريح لى، ويلاطفنى، وينعتنى بالمصرى وهو يتندر على نطقى لحرف الجيم مخففاً كما يفعل الفرس، فأخبرنى أن الرجل الذى جاءه هو قريب له، وهو من أتباع ملة كان يتبعها العفيف قبل إسلامه، وهى ملة قد شاعت منذ زمن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هذا ويقال لها الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه

بكتاب قديم يخص هذه الملة، لينسخه له سرّاً، وهو كتاب كفر وبهتان، يتضمن ما حاول إثباته أصحاب المقدم الأول كيومرث من وجود أصليين، هما: يزدان وأهرمن. وقد قالوا: إن يزدان أزلّ قديم، وأهرمن محدث مخلوق. وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر في نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكون؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمّى أهرمن، وكان مطبوعاً على الشرّ والفتنة والفساد والفسق والغدر والإضرار، فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلًا، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن مدّة سبعة آلاف سنة، ثم يخلّى العالم ويسلمه إلى النور، والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم، وكلام فارغ كثير من هذا النوع، وقد جاءني الرجل مستغلاً قرابته لأُمّي، وكوننا كنا أتراباً منذ الصغر، لكنّي اهتديت إلى الإسلام والحمد لله وهو ما زال على دين جدودنا وأهلنا، حتى إنه سمى عياله بأسماء أعلام هذه الملة، فلديه منهم ما يسمى بأسمائهم المقدسة لدى أهلها مثل: ريباس، وميشة، وميشانة والأخيرين في عرفهم هما والدا البشر.

وبينما العفيف يقول ذلك لي، إذ تذكرت فجأة حادثة دير أتريب، فهتفت مقاطعاً إياه:

— إذن. هم من الصابئة. سبحان الله!

— لا. لا. هؤلاء مختلفون عن الصابئة تماماً، فالكيومريثيون هم من المجوس، أما الصابئة فهي واحدة من فرقتين ترجع إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثانيتهما فرقة الحنفاء، والصابئة كانت تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسماني بشر مثلاً، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماننا في المادّة والصورة. قالوا كما ورد في كتابه العزيز الحكيم: «ولئن أطعمتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون»، ولما كان الخليل عليه السلام مكلفاً بكسر المذهبيين على

الفرقتين، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة، احتج عبدة الأصنام قولاً وفعلاً، كسراً من حيث القول وكسراً من حيث الفعل، فقال لأبيه أزر: «يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً»، حتى بلغ «فجعلتهم جذاذاً إلا كبيراً لهم»، وذلك إلزام من حيث الفعل وإفحام من حيث الكسر، ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى: «وذلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء. إن ربك حكيم عليم».

كان اليشكري قد أخبرني أن العفيف الوراق من أصل فارسي، وأنه كان مجوسى الأصل فأسلم، وأن بعضاً من أهله ما زالوا على هذه الملة، غير أن العفيف بدا لي رغم كونه مسلماً وموحداً بالله، رجلاً يتبع فرقة من الفرق، فهو وإن كان من أشياع الإمام على، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين، وقد تلمست ذلك بمرور الأيام، وقد لاحظت زيارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين، وكانوا يمدون بساط الكلام والمحاور، فأدرك أنهم من الخارجين عن الخليفة، الكارهين له، بسبب أحوال العباد وسياسته للأموار، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة خلال ذلك، ينتدرون ببذخ الخلافة وترفها المسرف يوم وصول رسول الروم، ويقولون إن ما جرى فاق كل ما كان يجرى زمن الأكاسرة والأباطرة والفراعة في الزمن القديم، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها، من يبيت كل ليلة على الطوى مما لا يحصى من الناس والعباد، وإن العامة ضجت في كل موضع بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال، مما سيؤول إلى حدوث الفتن وتتابع المحن، وخراب العمران، وانتقال القطان، وأن عصيان أبى مسلم الخراساني، وسنباذ، وإسحق الترك، وأستاذ سيس، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذى الحال، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمر.

كلما تقدمت في النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إليّ بما هو أهم وأرقى من المخطوطات، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكي في عمل المترجمات الخطيرة التي يقوم بها أفذاذ العلماء وأرباب المعارف والحكمة عن القلم اليوناني، والقلم السرياني، والقلم الفارسي، والقلم الهندي، والقلم القبطي، في كل فرع وصنف من



بساتين العلوم والفنون، فكنت كلما فرغت من نسخ كتاب وهممت بكتاب آخر، أشعر وكأنني ولجت من جنة إلى جنة، وغادرت فردوساً إلى فردوس، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويصنّفه بين الحين والحين، وكأن له عقلاً ليس كعقل البشر، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان، فصرت مبهوراً بعمله، مجاًلاً لشأنه، وكان أن دفع العفيف إلى مرة برسالة وضعها في أمور النساء وولاداتهن، فلما اشتكى اليشكرى لى ذات مرة من أن له أختاً توأماً ليس له غيرها من الأخوة أو الأخوات، قد تزوجت بتاجر كوفى ميسور، سوف يحملها معه إلى الغرب، ليستقرّ بها هناك فى بلدة تدعى طليطلة، وأن كواعب، وهذا كان اسمها، حامل بكرية وهو يخشى عليها كثيراً إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة والطريق، ولا يدري ما هو فاعل لها، فارتأيت أن أنسخ له نسخة من رسالة ذلك العالم الجليل، علها تنتفع بها إن حدث لها ذلك أثناء المسير، وكانت الرسالة تتعلق بالحمل من مبتدأه، فعندما تتحقق المرأة من حملها، فتدبيرها بالراحة وترك الرياضة، وكل ما أزعج من وثبة، وصرخة، وحمل ثقيل، ونزول من عال، أو صعود من سافل، والتقليل من المرطبات حتى تشتد الأعصاب، وأن تأخذ ما دعت إليه شهوة الوحام بلطف، فإن الإكثار من الحريف والحامض يضعف الجنين، ومن الطين يبرد، وينبغى أن تكثر من السكنجبين ليحلّ الاحتراق، فإن الوحام عبارة عن احتراق بقايا دم الحيض، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر فى رأس الجنين، ثم تكثر من أخذ ما يولد الدم، ما لم تظهر علامات الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض، وتدوم كذلك إلى قرب الولادة ولتقتصر المرأة فى أمراضها الحارة على الأشربة الباردة، والبارد الجلنجبين العسلى، فإن اشتدت الحاجة إلى تليين فيخيار الشنبر أو الترنجبين، فإن الأدوية المسهلة إما مسقطة أو مضعفة لتحليلها الفضلات فى غذاء الجنين، فإذا آن وقت الولادة فلتكثر من تناول المزقات، ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسج وتطل بطبيب الأثنان والحلبة وتكثر من الاستحمام، فإن ذلك يسهل الولادة، فإذا أحست بالطلق وهو المغص والوجع ونزول الماء والدم، فلتجلس على مرتفع مادّة رجليها، موسّعة بينهما، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود فإن سهل ذاك فال المطلوب، وإلا

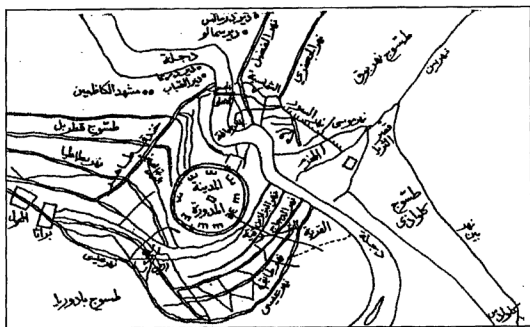
غمزت ظهرها وأعلى البطن، وسعطتها قشور البكتري بالزعفران، وحملتها بالزبد في خرق الحرير على الفخذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض، فإن بدا رأس المولود فالولادة طبيعية وإلا ففسرة، وينبغي أن يستلقى بناعم من قطن أو حرير ويجتنب البرد إن كان شتاء، ثم تتدثر هي، وتسقى ما يحلّ الخوالف من طبيخ الأنيسون، والشبث، والحلبة، والزبيب بالعسل، وفي الشتاء تمرّخ بالزيت وقد طبخ فيه الثوم واللاذن.

أما المولود فيبدأ أولاً بقطع الفضلة التي في سرته على حد أربع أصابع، وتربط بصوف خفيف الفتل، وتضمد بخرقه بلت بزيت طبخ فيه كمون، وصعتر ويسير ملح ومرّ، ويملّح بدنه بملح، وشاذنة، وآس، ومر، وقسط، مجموعة أو مفردة ليشد، وتمتنع منه العفونة، والقمل، وإذا سقطت السرة بعد ثلاث ضمّدت بالشراب، والزيت، أو رماد الصدف أو الرصاص المحروق، ودم الأخوين، والكركم، والأشنة للتجفيف، ويملّح لدفع الأوساخ، والقمل، إلا الأنف لصعفه عن الملح، ويقطر الزيت في عينيه للغسل، ويمسح بناعم، وتغمر الأعضاء وفق الشكل المراد، والمثانة لإطلاق البول، ويفتح الدبر بالخنصر، وبها يتعاهد الأنف بعد تقليم الظفر لئلا يجرح، ويلبس رقيق الثياب المناسبة للزمان، ويفرش بها، ويقط حفظاً للشكل مع توسط بالشد، ويرخى على بطن الأنثى لئلا يكون سبباً لعدم الحمل، وتطلى مراقبه وغضونه بسحيق الآس، والزيت حذراً من التسميط، ويغسل بفاتر الماء كل ثلاثة عدا الشتاء والمائل إلى السخونة كل سبع فيه، برفق في صبه، وغمز المفاصل، والقلع، والتلبس، والتنشيف، والدهن.

وقد حدث أن غاب الرجل عنّا زماناً، فدهشت لذلك وتساءلت عن تقاعسه وهو الذي كان لا ينقطع مجيؤه إلينا لكثرة حاجته إلى النسخ، فأعلمني العفيف أن الرجل مات منذ حين بداء الزرب، بينما كان قد بدأ في ترجمة كتاب في قوام الصناعات لجالينوس قبيل وفاته بشهرين، وأنه كان سليماً معافى مواصلاً لعاداته في الركوب حتى أصيب بهذه العلة، وقد كان مشهوراً عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحمام فيصب عليه الماء، ويخرج فيلتف في قطيفة، ويشرب قدح شراب،

ويأكل كعكة ويتكى حتى ينشف عرقه، وربما ينام ثم يقوم، ويتبخّر، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمّن قد طبخ زبرياً ورغيف وزنه مائتا درهم، فيحسو من المرقّة، ويأكل الفروج والخبز، وينام، فإذا انتبه شرب أربعة أطلال شرباً عتيقاً، فإذا استهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشاميّ والسفرجل، وكان ذلك دأبه حتى مات.

وعلى رغم احتراز العفيف في الكلام معي إلا أنه بين الحين والحين كان يدفع لى بكتاب أوصله إلى موضع من المواضع بمدينة السلام عند جنوح الليل، وكان يحذرني من أن يرانى أحد خصوصاً من البصاصين أو الدرك، وكان يصف لى وصفاً دقيقاً مكتملاً الموضع أو الدار التي أذهب إليها لتوصيل ما يبتغيه من مكاتبات، وكنت أظن في البداية أن هذه كتب تخص من يتعاملون معه في أمور النسخ أو الوراقة، لكن، ذات مرة، بعد ما شدد على كثيراً في الاحتراز والتنبه - وليغفر الله لى - وسوس لى الشيطان، وسؤل لنفسى أن تطّلع على ما أوّمتت عليه، فوجدتني أفتح كتابه لأقرأه، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان على إيصالها إلى واحد من أصحابه بريض الزهيرية وكانت كما يلي:



فلما رأيتها بهتّ وأسقط في يدي، ووقعت في حيص ببص وأنا أحاول تفهم مغزاها، والتكهن بمعناها، وبالغرض من إرسالها إلى ذلك الرجل، وقد حدثني قلبي أن وراءها أمراً عظيماً، فلما عدت إلى الدكان في صبيحة اليوم التالي، ووجدت الفرصة لأختلي بصاحبى الشكرى أفضيت إليه بما كان من أمر الخريطة، فسكت قليلاً ثم قال لى إنه يجب علىّ تكتم الأمر، وألا أظهر للعفيف اهتمامى بذلك، فلما استحلفته أن ينبئنى بما وراءه، قال: إن العفيف يتبع فرقة يقال لها النظامية، وهى فرقة خالطت كلام الفلاسفة بكلام فرقة أخرى يقال لها المعتزلة، وإن النظامية تخاطبوا كثيراً، فاتبعوا ما تخاطب فيه صاحبهم إبراهيم النظام الذى قال: «إن البارئ تعالى ليس موصوفاً بالإرادة على الحقيقة، لأنه إذ وصف بها شرعاً فى أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومنشئها، وإذا وصف بكونه مريداً لأفعال العباد فالمعنى به أنه أمر بها ونه عنها». كما قال: «إن أفعال العباد كلها حركات فحسب، والسكون حركة اعتماد، والعلوم والإرادات حركات النفس، ولم يرد بهذه الحركة حركة النقلة، وإنما الحركة عنده مبدأ تغير ما، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات فى الكيف والكم والوضع والأين والمضى... إلى غير ذلك من كلام متخالط متخاطب من هذا النوع، وإن العفيف مولع بمثل هذا النوع من الكلام الذى يقوله النظام بن سيار هذا فى قوله: «إن الإنسان فى الحقيقة هو النفس والروح، والبدن آلتها وقالبها، وميله إلى قول الطبيعيين من الفلاسفة من أن الروح هى جسم لطيف مشابه للبدن مداخل للقلب بأجزائه، مداخلة المائية فى الورد، والدهنية فى السمسم، والسمنية فى اللبن، وأن الروح هى التى لها قوة واستطاعة وحياة ومشية وهى مستطبعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل».

فلما أدركت ذلك ووقفت على حقيقة العفيف كتمت الأمر فى نفسى عملاً بنصيحة الشكرى، وبت لا أسأل العفيف فى أمر من الأمور إلا فيما يخص اشتغالى ولقمة عيشى.

وكان الشكرى متعلقاً بشيخ زاهد، سرعان ما سرت عدوى تعلقه به إلى، وكان الرجل كما قال الشكرى - والله أعلم - قد عاش حيناً فى بلدة تدعى حران،

اجتمع لبعض من أهلها ما تبقى من علوم الجريك، وفلسفتهم، ونحلهم كالفيثاغورثية، والأفلاطونية الجديدة، وعلم الكيمياء، وعلم الكون الهرمسي، وقد ظل لهؤلاء بعض من رواسب هذه العلوم، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفها بالكلية، فتشرب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلوم حتى هداه الله إلى الإسلام، فطعم ذلك بذاك، وفاض لسانه بالحق والحكمة، فانجذب إليه الإشكري، مثلما بت أنا منجذباً إليه كذلك. كان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر في زاوية من الزوايا، فنجتمع إليه لنستمع إلى قطوف حكمه، وثمار أفكاره، وقد أدركت من خلال ذلك - فيما أدركت - عالم الأنوار القاهرة، وعالم الأنوار المدبرة، والعالمين المحسوسين السماوي والأرضي، والعالم الظلماني والعالم المستنير، وكان الشيخ يقيم علمه على هدى من الآية الكريمة: «الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله بنوره من يشاء».

وشيئاً فشيئاً، بدأت رياضتي العبادية والارتحال من الغرب حيث حقل المادة والجسم، إلى الشرق حيث مقامات النور، وكان ذلك يقتضي عبور أربعة عشر تابوتاً وهي تمثل القوة الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغازية، والمولدة، والمصورة، والنامية، والغضبية، والشهوانية، والأخلاط، والقبور العشرة من الحواس الظاهرة والباطنة، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السماوية والعروج بواسطة العقل الفاعل ماراً بكل العقول حتى أرسو عند أعتاب نور الأنوار، فتنهأ نفسي بتحررها من سجن المادة ودخولها في مقامات النور.

وكان المشي سبيلي إلى بعض من ذلك وفقاً لشيخنا، فلما كنت لم أزل في مقام الطالبين، وهو أول المقامات الخمسة في الزهد، فقد كنت أسير، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، مع صديقي الإشكري فنظل نسير حتى يتعبنا السير وتكدّ جسمنا.

غير أن الأيام أظهرت لي أن العفيف لم يكن مثلما ظنّ الإشكري من أنه يتبع النظامية، أو هذا ما وضع لي عياناً - على الأقل - فقد حدث أن قام رجل من

ناحية طريق الأنبار يقال له الدريوش، فدعا جيرانه، وأهل بيته، وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وكان ذلك بسبب أن فساق الحربية والسطار الذين بالمدينة آذوا الناس أذى شديداً، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، حتى إن كثيراً من الناس حبسوا أولادهم ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفاً عليهم. وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه، وكانوا يجوبون المارة في الطرق، وفي السفن، وعلى الظهر، ويخفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع، والذهب، والفضة، والغنم، والبقر، والحمير، وغير ذلك وأدخلوها بغداد، وأخذوا يبيعونها علانية، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكنه نصرتهم عليهم، ولم يرد عليهم شيئاً مما كان أخذ منهم.

فلما رأى الدريوش والناس كل ذلك، وما بيع من متاع الخلق في الأسواق، وما قد ظهر من الفساد في الأرض، والظلم والبغي، وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ريف وكل درب، وقالوا لهم: إنما في الدرب الفاسق والفساق إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم. فأجابوه إلى ذلك وشد كل واحد منهم على من يليه من الفساق والسطار، وقد أراد الدريوش منعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه، وأرادوا قتاله، فتكاثر عليهم الدريوش وأصحابه، من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقتلوهم وهزموهم، وكان ممن شارك في ذلك رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة من أهل خراسان، وقد دعا الناس

إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلق مصحفاً في عنقه، ودعا الناس جميعاً إلى ذلك، الشريف منهم والوضيع، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاه منهم، ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمختلفة، وقال لا خفارة في الإسلام، والخفارة أنه كان يأتي الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقول: «بستانك في خفري، أدفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً. فيعطيه شائياً أو آباءً، وقوى على ذلك قوة عظيمة، إلا أن الدريوش خالفه في ذلك، وقد ظهر أن العفيف معلّمى كان من أتباع سهل ويكاتبه، وهذا ما علمته بعد ذلك من الشهاب الحلاج، فلما كسر الخليفة سهلاً لأنه قال: «إنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة، كائنًا من كان، سلطاناً أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين». سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة، وخرج بعياله في عز الليل تاركاً دكانه وماله، ثم إنه مرّ زمن قد قارب الشهر بينما أنا قابع في دار الشهاب الحلاج لا أغادره، وقد نصحنى الشهاب بذلك حتى لا أؤخذ بجريرة العفيف وأمثاله، وأضيع بين الرجلين، وكنت أتعجب، خلال ذلك، من مشاركة العفيف في مثل هذه الأمور، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصناعة تستلزم كل لطف ودماثة، فقال لى الشهاب: إن ما دفع العفيف إلى ذلك، وجره إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولد وحيد من امرأة غير تلك التي تحته الآن، فبينما الغلام مع أمّه في السوق ذات يوم لأمر من الأمور، إلا وبعض من فساق الحريةّة والشطار قد كيسوا السوق، وعاثوا فيه فساداً، واختطفوا الصبى من يد أمّه ضمن من اختطفوهم، فجن جنون العفيف، وراح يبحث عن وحیده في كل مكان، حتى هداه الهادون إلى موضع لرجل يهودى اشتهر عنه خصى الصبيان المجلوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مع جماعة من إخوانه فوجد الصبى وقد قطّ قضيبيه وأخرجت بيضتاه بعد أن شق مزوداه، وقد وضعوا له في منفذ البول مرور رصاص، جعلوه حتى لا يلتحم، وكانوا يخرجونه أوقات البول، فانتزع العفيف ولده منهم، وهو بين الحياة والموت، وكاد أن يفتك بالخصاء اليهودى لولا أن أصحابه منعوه، فلما عاد بولده إلى منزله، لبث قليلاً ثم مات

فحزن عليه العفيف حزناً عظيماً، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمداً وحسرة عليه. وكان ذلك مبتدأ قسم العفيف بالانتقام من مختطفى ولده وقاتليه، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة وله. غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يدعني الحق إلى البصرة إن شئت، وقد ترددت في ذلك كثيراً في مبتدأ الأمر، فرغم أن العفيف كان قد أرسل إليّ ما يعينني على أمرى، وأوصى بمن يعينني على الوصول، إلا أنني كنت منقبضاً مغموماً، فها أنا مرة أخرى مجبر على السفر والمغادرة، وكنت قد استمرأت في بغداد الاستقرار والتوطن، وكان الأمر الذي يشغلني أكثر من سواء هو أمر ربيعة، فأنا وإن كنت قد أعتقتها، إلا أنني كنت أظن نفسي مسئولاً عن أمرها في كل حال، ورغم أنها ظلت في دار العفيف تعين زوجته على أمورها وتجاريتها، إلا أنني كنت أخاف تركها إلى مصير لا يعلمه إلا الله.

ثم إنني بت أخرج من بيت الشهاب لبعض الوقت، بين الحين والحين، بعد ما هدأ الأمر، وذات يوم وبينما كنا نسير منصرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد، قال لي شكرى لى:

- هل تذكر الجواهرى الذى جاء ذات مرة إلى دكان العفيف لينسخ له رسالة فى الجواهر والأحجار؟

قلت:

- لا. لا أذكر ذلك، ولا أذكره.

قال:

- كيف لا تذكر ذلك؟ أنسيت ما جرى يومها، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحجار وسأله أن يعتبرها بالمحنة والاختبار الصحيح، حتى يعزل ما صح منها ويهمل المتبقى، فاحضر الرجل الأفاعى، وطلب فراريج وراح يطعمها حكاكة هذه الأحجار، وكانت نيّفاً وثلاثين حجراً، فصح بالمحنة دون العشرة وتزيّف الباقي؟



- آه . كان ذلك بعد حريق السوق بمدة . تذكرت .

- أى نعم . لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة ، وقال لى إنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار ، كتبه له نساخ بدمشق ، وقال إنه يستطيع أن يلحقنى بخدمة واحد من أصحابه النساخين هناك إن أردت ، ولقد قرّ عزمى على الذهاب ، فأنا هنا بلا عمل ، وقد كرهت الإقامة فى بغداد ، وأريد الارتحال ، هل تأتى معى ؟

كان العسكر قد كبسوا دكان العفيف وانتهبوه بعد رحيله ، ولم يعد لليشكرى عمل كما هو الحال معى ، فقلت له بعد تفكر :

- لا . لقد انتويت أمراً آخر فى نفسى .. أريد العودة إلى برّ مصر .

كنت أقول الحقيقة ، فلقد زاد شوقى وتوحشى إلى بلدى كثيراً ، وكنت أرغب فى البحث عن ثاونا والوقوف على أثره ، وقد عاهدت الله على ذلك ، ونذرت نذراً فى نفسى إن وجدته وهو أن أبقى زاهداً عابداً طيلة ما تبقى لى من عمر .

قال اليشكرى :

- ليكن . لكنى سأذهب إلى دمشق ، حتى يصلح أمرى ، ومنها سأرتحل إلى الغرب ، فأنا أريد أن أذهب حتى آخر بلاد المسلمين ، وقد يهدينى الله ، فأهدى قوماً غير مؤمنين ، وقد ألحق بحلقات درس رؤساء العلماء هناك ، فبلاد الأندلس عامرة بهم وبمعارفهم العظيمة ، لكنى سأعرج قبل ذلك إلى مكة فأحج - إن شاء الله - وإلى الأقصى فأزور مقامات الأنبياء بمدينة القدس .

كنت فى شوق إلى الحج وزيارة قبر الحبيب كذلك ، لكننى كنت أخشى أن يطول بى الزمن ، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا ، أو يكون الله قد توفاه . وقعت بين نارين ، لكننى قلت :

- فى نفسى نذر ، أعاهد الله إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجّات . كنت فى قرارة نفسى - وهذه الحقيقة - أريد أن أطلع ثاونا على حقيقة إسلامى ، وأدعوه

إليه، كان هذا منتهى آمالي ومناي، وكان أمر ربيعة يقلقني كذلك، فأفصيت بذلك إلى اليشكرى وشاركتها في أمرها، إذ كنت حائراً، فأنا لا رغبة لي فيها، وكأن ما حدث لي بعد رؤيتها في ليلة أن أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعوري بالنساء، وكأن ربيعة لم تكن إلا سبباً للمباعدة بيني وبين هذا الجنس، والزهد فيه، غير أنني كنت موقناً بمسئوليتي عنها، وقد غيرت حالها وأيامها، وبسببي تركت ما كانت فيه من نعمة وعزٍّ في قصر الخليفة، فلما أفصيت بكل ذلك إلى اليشكرى وطالبته بنصيحة ينصحنى بها، قال:

- خيرها بين البقاء في بيت الشهاب، أو الذهاب معك إلى بر مصر.

قلت بسرعة:

- لا. لا أريد لها الذهاب معي. لا أرغب في صحبة النساء أبداً.

ثم إنني عندما رجعت إلى بيت الشهاب، وأثناء تناولنا العشاء، أطلعتني على ما انتوخته، فلما بلغت في الحديث مسألة ربيعة، قال لي بسعادة، وهو يتسم، ما عقد لسانی، وهو أن امرأته الرواحية قررت تزويجه بريطة، بعد ما سألتها فلم تمانع.

أصر الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلا بعد أن يعرّس بريطة، وهكذا تریثت وقتاً حتى ليلة دخوله عليها. وكان أن ذهبنا إلى حمام بسوق يحيى، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة، فلما دخلناه، وجدت أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوة كلها بأجل أنواع الرخام الملون وأفضله، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقوداً ومطبقاً بجامات من الزجاج الملون، مما يسمح للنور بالدخول والكشف، وكانت هناك حجرة دافئة تلي المغطس، لا يوجد فيها مواقد ولا يشم الإنسان رائحة الدخان منها، والماء الساخن يجري في قناة تجعل المكان دافئاً لطيفاً، وكان هناك مكان آخر يدخل منه الماء البارد كذلك، ثم إننا خرجنا من مكان الاستحمام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين، وكنا جميعاً مؤتزرين فاسترحنا قليلاً، وتأهبنا للاستحمام الثاني، فدخلنا بيت الحرارة وهو الموضع الذي تكون فيه حرارة الماء على أشدها، فتركنا الشهاب للمدك حيناً،

حتى انتهى منه، وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بمغطس، وخلال ذلك رحنا نداعبه ونهزر معه، وقد تعجبت من الكلام الصريح الذى تبادله الشهاب مع رفاقه، دون خجل أو حياء، عن النكاح والشهوة وطرائق المجامعة، وما سوف يكون عليه حاله مع ربطة عند دخوله عليها.

كان الشهاب لم ينجب من امرأته الرواحية، وقد خشى على نفسه من انقطاع الذرية وضعف الباه، بعد أن عاشرها سنين بعد موت امرأته الأولى، زمن تفشى مرض الطاعون الدملى الذى اجتاح المدينة، ودون أن يعقب من هذه المرأة، وقد تعجبت من الحمأى، الذى راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب، إذ شارك فى الحديث وأفتى، حتى إنه نصح الشهاب أن يكون معتدلاً فى الامتلاء قبل الجماع؛ لأن الجماع على شبع يؤد جع المفاصل، والنقرس، والدوالى، والفتوق، والأورام الخبيثة، والجماع على الجوع يضعف البصر، وينهك البدن، ويجلب الخفقان، والبرقان، والسل، وحمى الدق، وعقب أكل السمك أو اللين، يورث الفالج، وبعد الحوامض يضعف العصب، ويورث الرعشة، وأجود أوقاته النصف الأخير من الليل وقد انهضم الطعام وسخن باطن الرحم، وقال: إن الشهاب سعيد الطالع؛ لأنه سيدخل على عروسه والقمر فى حال اتصال بالزهرة، وإن اللذة ستكون عظيمة؛ لأن الوقت هو وقت البروج الهوائية، ووقت الميزان؛ لأنه لا يجوز الجماع والقمر فى الترابية، ولا فى الاحتراق، ولا قرب مفارقة الشمس، ولا عند الاتصال بزحل والمريخ، وكان من الموجودين معنا واحد من أصحاب الشهاب يدعى خليل الساج فتكلم فى أمر بدا غريباً، بالنسبة لى، إذ أشار إلى أنه كثير العزل مع امرأته وهو يخشى أن يصيبه مكروه بسبب ذلك، وإنما هو اضطر لذلك بسبب تحرجه من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب، ودخول مداخل سوء، وكان المزين قد جاء ليستلم الشهاب وحضر هذا الكلام، فقال: إن العلماء اختلفوا فى إباحته وكراهته على أربعة مذاهب: فمن مبيح مطلقاً بكل حال، ومن محرم بكل حال، ومن قائل يحل برضا المرأة، ولا يحل دون رضاها، ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرّة، لكنه من الآداب أن لا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، وإنه سمع كلاماً من شيخه بخصوص هذا ومنه أن الولد يتكون بوقوع النطفة فى الرحم لأربعة أسباب، هى:

النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصب المنى في الرحم، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأة؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضاً مراتب، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، فإن صارت مضغة وعلقه، كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً.

ثم إن المزين تعهد الشهاب، وكان رجلاً خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة، فشذب شعر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بأمواس جيدة، وقد اعتذر لنا عن علكه لبانا بمسك لأنه أكل ثوماً وكراثاً، وهذا مما لا يجوز بالنسبة لمن اشتغل بمهنة التزيين، المتطلبة لطيب النكهة وحلو الرائحة.

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا، وبذلنا للقيمين والزبائين والوقادين، والسقائين، وكل من قاموا على خدمتنا في الحمام، واهتموا بالشهاب علي أكمل وجه، ثم خرجنا بصاحبنا إلى داره، وقد تعطر بطيوب زكية، وكان أن أعد مجلس رقص وطرب في قاعة رحبة من قاعات الدار، صفت فيها صنوف عدة من مأكول ومشارب فحفلت المائدة بهارونية لحم، وهريسية، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم في مطبخ الخليفة أثناء عملي بالوقايد، وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة، شأركت أن ربطة ربما تكون قد عملتها خصيصاً لأجل العرس، وكنت قد استعلمت آنذاك عن كيفية صنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم في القصر، وهو كاظم بن سابور الطاهي، فقال: إنها تعمل من اللحم البقري السمين أو الضأن، وشرطه أن يكون لحمًا فتيًا، نقيًا من الجلود، والغدد، والعروق، والأعصاب، طريًا غير مفتت ولا متغير الرائحة، ثم ينقع بعد غسله في الماء والملح، وينضج على نار هادئة حتى يذوب اللحم مع البر الذي يضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولجان، وقد قال كاظم إن هذا الطعام قد ابتدع في زمن واحد من أكاسرة العجم يدعى كسرى أنوشروان.

وإضافة إلى ذلك كانت هناك نوفرية، ومطجّبات. وموصلية، وكمّونية ورعوس وأكارع، أما الحلويات، فقد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاظات، والبرزق المطبّوخ بالجبن، والجوارش المطيّبة بالمسطكى، والنانرج، والعنبر، والعود، والحلوى المأمونية، هى من الأكلات التى كانت قد شاعت واشتهرت ببغداد منذ أن تحكم ذلك الخليفة فى البلاد، ذلك عدا الخرايف المشوية والثريد، والأشربة المسكرة، والمعطرة بالرياحين وماء الورد، والكشك الطيب المعمول بالأرز والخضرة والأدهان والسمن، المطبّوخ بلحم الضأن السمين، على عكس كشكنا فى بر مصر، الذى يطبخ بسمك البورى السمين أو ببعض الطيور المهاجرة الحاطة على أراضينا كالسمان والبشروش وغيرها.

ثم أعلن عن وصول أصحاب الملاهى والطرب، فلما اتّخذوا مواضعهم وبدأوا العزف بالعيدان، واللعب بالنايات، والطنابير، والقيثارات، والمزاهر، والكنارات، والنزهات، والصنوج، والشغرات، والرباب، والقانون، انتعشت الأرواح ونعمت بسحر الموسيقى، واسترخت الأجساد لحدوث النشوة وبلوغ المتعة، وكانت سعادتى لا توصف لحضور الحسين بن فالح المراغى الذى لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل، فتعانقنا ورحنا نتحدث طويلاً فى أموره وأمورى، وكيف سارت أحوالى بعد أن فارقتة منذ خروجى من قصر الخليفة، وبينما كنّا منشغلين بالكلام، سحبنى الحسين لنجلس إلى جوار رجل من العوّادين، وكان العازفون قد توقّفوا ليأكلوا ويشربوا شيئاً قبل مواصلتهم الألحان. وكنت أدرك مدى شغف الحسين بالغناء والنغمات، ثم إنه سأل الرجل عن عوده، إذ رآه غريباً غير مألوف بخمسة أوتار، فقال العوّاد إنه من النوع الزربابى الذى يعزّ مثله ببغداد، وإن الوتر الخامس فيه، قد أضافه مغنى الأندلس الأشهر زرباب، وإنه - أى الرجل - اشتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب، وكان ذلك الوتر اختراعاً من زرباب، ضمن ما اخترع، فالصنعة القديمة كانت أربعة أوتار تحتمياً للمناسبة العددية بين هذه الأوتار والطبائع الأربعة فزاد زرباب ذلك الوتر وصبغه باللون الأحمر - كما يتّضح - وجعله متوسطاً فى موضعه بين الأوتار الأربعة، وذلك أن الزير، وهو

أكثر أوتار العود حدة، كان يُصبغ باللون الأصفر ليكون في العود بمنزلة الصفراء في الجسد، وصبغ الوتر الثاني بعده باللون الأحمر وهو من العود بمنزلة الدم من الجسد، وهو في الغلط ضعف الزير ويسمى المثني، وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود وجعل من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسمي البم، وهو أغلظ أوتار العود وأعلاها من حيث الوضع، وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصبغ وترك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجعل ضعف المثني في الغلط فلذلك سمى المثلث، وهكذا قول كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، فزاد زرياب هذا الوتر، وقال: إن أوتار العود الأربعة على النحو الذي جرى عليه العرف، سائرت طبائع الجسد، لكنها عطل من النفس، والنفس مقرونة بالدم، لهذا وجب إضافة الوتر الخامس وصبغه باللون الأحمر، وهو الوتر الأوسط الدموي، ويجب أن يكون تحت المثلث، وفوق المثني لاستكمال قوى الطبائع الأربعة في العود وليكون مقام النفس في الجسد.

ثم إن العواد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته، وقال: إنها من قوادم النسر، وهذا مما أشار به زرياب أيضاً، وهي أفعل وأكمل من الخشب، إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه، فتعجبت لذلك كثيراً، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غاية في حسن التناغم والإيقاع، فقامت جماعة من الحضور للرقص والسرور، وكانوا غاية في الظرف وخفة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع، فلما انتهوا وسكنوا، قامت جارية سوداء للرقص وكانت طويلة العنق والسوالف، حسنة الدلّ والشمايل، والتمايل في الأعطاف، ودقة الخصر، وحسن أقسام الخلق، ومواقع المناطق، واستدارة الثياب في أسافلها، ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع، ولين المفاصل، وسرعة الانفتال في الدوران، فلم يتمالك خليل النساج نفسه وراح يغنى قائلاً:

طلباء كالدنانير ملاح في المقاصير  
جلاهن السعانيين علينا في الزنانير

وقد زرفن أصداعا كأذئاب الزرازير  
وأقبلن بأوساط كأوساط الزنابير

فما كاد ينتهى حتى رأيت الشهاب يتغير لونه ويسهم، وبدا لى متكدراً، وأظن أن الجميع لاحظوا ذلك؛ لأن اليشكرى مال إلى وكان حاضراً إلى جانبى، وقد دعاه الشهاب كرامة لى لما عرف بصحبتي له، ثم قال:

- ألم يجد هذا الرجل غير ذلك ليتغنى به فى هذه الليلة، وفى عرس الشهاب، ألا يعلم أن هذا الغناء الذى شاع فى المدينة الآن إنما هو من نظم الخليفة نفسه، وأنه سأل أحمد بن صدفة الطنبورى أن ينشده له يوم السعانيين، وهو عيد للنصارى يعملونه كل عام فى المدينة. وكانت بين يدى الخليفة عشرون وصيفة رومية مجلوبة، وقد تزين بالديباج الرومى وعلفن فى أعناقهن صلبان الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون، فقال فيهن الخليفة ما قال. أو لا يعلم هذا الأحمق أن الشهاب من الكارهين للخليفة؛ لأن أهله من السواد بقرية من القرى المحيطة ببغداد، وأن جنود الخليفة قد جاروا على أرض وزرع لهم، وسرقوا دواباً تخصهم، دون أن يفعل لهم شيئاً أو يعاقبوا على هذا الإثم الشنيع. ويقال: إن الشهاب - والله أعلم - بات ينتسب إلى جماعة من الجماعات المناهضة لبني العباس، وقد يُوخونه على ذلك الغناء، فلا بد أن يكون بعضهم هنا ضمن الحاضرين.

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرة، فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبداً، رغم معاشرتي له، وإقامتي فى بيته منذ خروجى من قصر الخليفة، صحيح أننى لا أذهب إليه بعد مغادرته فى الصباح الباكر إلا لأبيت فى الليل، لكننى لم ألحظ عليه أمراً يدل على أن له جماعة تناقض دولة الخليفة، وإن كان يبدو لى متدماً، متبرماً مما يحدث فى البلاد، وفى مرة سألته عن حقيقة الفارس ذى الرمح المنتصب على قبة السور فضحك، وقال: إنه يتجه الآن بسهمه إلى البدء بخراسان. فلم أفتهم ذلك وقتها، لكننى علمت بعد ذلك من اليشكرى أن البدء هى بلد واحد من الخارجيين على الخليفة اسمه بابك.

لم أعلق على ما همس اليشكرى به فى أذنى، وقلت لروحي: فى بغداد كل شىء جائز حتى نكاح العجائز، وهذه مدينة الغرائب والعجائب ذات الألف وجه،

والتي كلما ظننت أنني أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوها، إذ بها تسفر لي عن وجه جديد لها .

كان رأسي قد بدأ يدور وقد شربت شيئاً مما يسكر مجارة للجميع ورغبة في إبراز المرح والسرور، فبقيت ساهماً متفكراً بينما عيناي تتابعان الراقصين، ورقصهم المستعر، وصخبهم، خصوصاً عندما بدأوا يرقصون نوعاً من الرقص العجمي، كان قد شاع في بغداد، يسمى الدستبد والإيلا، وكنت حينئذ أفكر في أمونة، وسويلا، وريطة، وما كان من أمرهنّ معي، وكان هجسي بريطة يأكلني من الداخل، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بها بعد ذلك، خصوصاً بعد ما سمعته الآن عن الشهاب الحلاج، وتبدّل أيامها من حياة العزّ والقصور، إلى حياة الرعيّة، وتواضع الدور، فيها هي خرجت من قصر لتستقر في ريع، وكانت ذات يوم جارية مرغوبة، فصارت الآن ضرةً منكوبة، ورحلت أسائل نفسي: هل جنيت عليها يوم وضعتي القدر في طريقها، فربط مصيرها بمصيري بعد ما جرى في قصر الخليفة، أم كان ذلك مقدراً مكتوباً في لوحها المحفوظ قبل أن تولد، فتحتمّ عليها الخروج من رقّ الغنى إلى حرّية الفقر، ومن ذلّ القصور المنسوج بالذهب والفضة، إلى كرامة الستر، وتواضع العيش .



خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام، بعد أن رتبّ الشهاب كل ما يتعلق بأمر خروجي، فكانت مغادرتي المدينة وقت اقتران الرأس والمشتري كما قال لي، وكنت قد ذهبت إلى زاوية شيخى وصليت ركعتين، ودعوت الله تبارك وتعالى أن ييسر لي أمري، وكان اليشكريّ في وداعي، وقد أهداني قميصين وبدنة بغدادية، لم أر أجمل منها، لأرتديها وقت السفر، فشكرته بعد أن اعتقنا طويلاً، ثم ركبت راحلتى وكانت بزدوناً عفيّاً، قدّمه لي الشهاب، وقد أعطتني امرأته الرواحية عطوراً في قوارير زجاجية عدّة، كي أهدىها لمن أشاء أو أترىح بها، وقد أنتفع ببيعها إذا ما اضطررت أثناء الطريق.

كان بجيبى دراهم قليلة، وكنت قد دفعت معظم دراهمي التي اكتسبتها أثناء اشتغالي في الوراقة، والتي كنت أدّخرها لدى امرأة الشهاب- إلى صاحب القافلة التي ستؤمّن رحلتى وذلك قبل خروجي من المدينة. أما ربطة فقد زودتني بكعك السميد، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر، وتمنّت لي كلّ خير وراحت تدعو الله طويلاً أن يشملني برعايته وبكل أمان وتوفيق.

ظللنا سائرين لمدة يومين بعد خروجنا، لم تتوقف خلالهما القافلة إلا للراحة أو النوم، حتى بلغنا مدينة القدس، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة مشيّدة على جبل، وكانت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشدّة، فقالوا لنا: إن هذا دأبها في القدس. وكان الغرض من دخولها هو أن يطرح بعض التجار الذين في القافلة جانباً من تجارتهم وبضائعهم فيها، فلما أذن الحراس لنا بالولوج إلى داخل المدينة قاصدين أسواقها، سيرونا إلى موضع يطلق عليه الأسواق الثلاثة، بالقرب من باب المحراب، وكان به سوق للعطارين وآخر للقماشين، ثم إننا عبرنا القيساريات، والخانات، والرباع التي فوقها، ثم الفنادق، حتى وصلنا إلى خان كبير مبنى من

الحجر الوردى الجميل، وكان يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا، وكان هذا الخان كما عرفت بعد ذلك يسمى خان الفحم ويقع فى الشارع الرئيسى من المدينة، المسمى بخط داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتدأه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة إلى باب المحراب، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل.

وكنت خلال الطريق قد تعرفت على رجل يتاجر بالبهار، وبدأ لى من أفضل الناس وأحسنهم خلقاً، وكان سبب ذلك أنه فى مبتدأ الأمر، وأثناء وقوفنا للراحة فى قرية من القرى التى كنا نتوقف عندها بين الحين والحين على الطريق الخارجة من بغداد، كنت ألاحظ أن الرجل كثيراً ما ينظر إلى ويتفحصنى، فكرهت ذلك منه، وتملكت وقد استريت به، فبادرته بالقول :

- يا شيخ قد ألححت فى النظر، أعرفت شيئاً عنى فأنكرته. قال: لا والله ما عرفتك قبل رحيلنا هذا، ولا أنكر لك لسوء أراه فىك، لكنى رجل حسن الفراسة فى الناس، جيد المعرفة بهم، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسك، ولسوف تبذل جهداً ووقتاً حتى تجده، وهو جد مريض، وقد تدركه أولاً تدركه، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله، لكنك فى طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذى بدأت، ولن تعود منه أبداً. فتعجبت لذلك كثيراً، وإن كنت انقبضت وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزیز عینى ثاونا، فلما سألته كيف تفتن إلى هذا، أمسك، وبدأ وكأنه متمنع عن البوح بأمره لمن هو مثلى، فداخلنى ضيق وقد كرهت استعلاءه، فألححت عليه وقلت :

- إن ما أفضيت به إنما هو من قبيل الشعبذة والخرافة، فلا يعلم الغيب إلا الله. ألم تقرأ الآية الكريمة «كذب المنجمون ولو صدقوا»؟ فردّ بسرعة، وقد أدرك ما بباطن كلامى: لا. لست منجماً والله، والفراسة علم وبحر، ألم تسمع ما فاض به الشيخ الفيلسوف عن ذلك، إذ قال:

«وإن البصر البرانى، لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفى الحواجز التى تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك

البصر الجوانى، ليس فى مقدوره أن يدرك العالم الروحانى، إلا إذا تطهّرت مرآة القلب من الشهوات، التى تمنع انعكاس النور الإلهى.

ثم أضاف:

- لقد قرأت ما أنت مقبل عليه بالفراسة، وقد لاحظتك وراقبتك أثناء الطريق، وخبرت شدة صوتك وضعفه، ونزوع رقبتك وحركتها، ورسم أنفك وعينيك، وأحوال شعرك، ورائحة بدنك، وحالة أسنانك، وصورة يديك وقدميك، وما عليه حال أظافرك وأصابعك. فتعجّبت لكلامه كثيراً، وتذكّرت أن شيخاً من أحناف حرّان قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالباً نسخ كتاب وصفه بأنه عزيز ونادر، وقال: إن الخليفة منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثور على نسخة منه وترجمته إلى العربية، لما به من فوائد حكمية وثمار معرفية، وإن المترجم ذهب مرتحلاً بنفسه إلى بلاد اليونان، فيما وراء البحر الرومى، وعثر على الكتاب وكان اسمه سرّ الأسرار، وهو من وضع حكيم قديم، يدعى أرسطو، لملك من أشهر الملوك، وكان ذلك فى معبد من معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس، وإن هذا الكتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المعظم ثلاثاً، وإن الرجل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها.

وأثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة، وكان ببلاد اليونان، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار وحاصر عاصمتهم، ودوّخها، وخرّبها، وقتل خلقاً كثيراً، وبلغت منه الفظاظة أن جعل يسطّح الفتیان على الحضيض، ويطأهم بالجراجر.

ثم إنّه بعد ما جن الليل ونمنا، تنبّهنا جميعاً على صوت ضحك عال وقهقهات زائدة عن الحدّ، فقمنا نستجلى الأمر، فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبة ضحك، لا يستطيع السكوت عنها أو الفكّك منها، وعجزنا عن إسكاته بكلّ الطرق والحيل، بما فى ذلك الزجر، والشتّم، والضرب، وصب الماء، والإيلام بالوخز، واللطم، والقرص، وقراءة الآيات الرادعة، وقد ظنّ البعض أنه أصيب بمسّ من شيطان، وما لبث على هذى الحال ساعة إلا ومات، فارتاب بعض الشيوخ الذين

كانوا معنا في الأمر، وكان مع الرجل عبد حبشي أسود، فأخذوه للتقدير، وراحوا يسوطوه بشدة بعد توثيقه، حتى أدمى ولم يستطع مناهضة الألم، فأقر أنه سقى الرجل سمًا يسمى السم الضحّاك، فلما أراد هؤلاء الشيوخ الوقوف على كنهه، أخبرهم أنه أخذ من القرنفل عشرين درهماً، ومن الدار صيني مائة درهماً، ومن الزنجبيل خمسين درهماً، ومن الفلفل خمسين درهماً، ودق ذلك كله دقاً ناعماً، ثم ألقى عليه وزن خمسة أرطال من الماء، ونقعه يوماً وليلة، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقه دقاً ناعماً، ونقعه في الماء، الذي هو خمسة أرطال، مخلوطاً بالأجزاء السابقة، وتركه أيضاً يوماً وليلة، وبعد ذلك مرسه، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطل، وتركه يوماً وليلة، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سمّاً قاتلاً، وإنه أعطى المغدور منه وزن درهمين، وقت عشائه، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيده شرب العسل المخلوط بماء بعد صلاة العشاء، وكان ذلك كله بسبب أن الرجل هدده أكثر من مرة بخصيه، بعد أن اتهمه بالتقاعس عن العمل، وإنه كان يخشى أن يقوم سيده بذلك كثيراً، وخاف أن يفعل ذلك عندما تهبط القافلة إلى مصر.

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلموه إلى متولى الدرك بالمدينة. أما الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السوق كفنًا له، فغسلناه، وكفناه به، ومضينا به خارجين من الخان حتى مسجد المدينة الأعظم، فصلينا عليه وواريناه في مقبرة بالقرب من المسجد، أما تجارته فقد حصرناها وقيمت وديعة لدى صاحب الخان، حتى يطير البرق إلى ذويه.

لم أكن قد رأيت مسجداً بعظمة المسجد الأقصى، فلما خرجنا من المقبرة استأذنت من كانوا معي أن أتركهم، وعدت إليه لأجوب فيه وأشاهده بتمعن وتمحيص، وقد تأكد لي أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة، الرائعة، فائقة الحسن، وهو ذو أبواب كثيرة في جهات الثلاث، والمسجد كله فضاء، وغير مسقف إلا من عند نهايته، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، ممّوء بالذهب والأصبغة الرائقة، وصحنه طويل عريض، طوله أكثر من عرضيه، وهو في غاية الحسن

والإحكام، مبنًى على أعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي لم أر أحسن منها ولا حتى في كنيسة أنطاكية، وفي ذلك الصحن مصطبة كبيرة في ارتفاع خمسة أذرع يصعد إليها من عدة مواضع بالدرج، وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة مئمنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص، منمقة من الداخل والخارج بالفسيفساء، مطبعة بالرخام الملون، وفي وسطها الصخرة التي تزار، وعليها طرفها أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتها مغارة، ينزل إليها بعدة درج يصلى فيها، ولهذه القبة أربعة أبواب وفي شرفيها، خارج القبة، قبة أخرى على أعمدة حسنة، يقولون إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج أيضا على المصطبة، وكذلك قبة النبي صلى الله عليه وسلم، كل ذلك على أعمدة مطبوع أعلاها بالرصاص، هذا وقد حفر في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيد كله على صخرة يتجمع فيها ماء المطر، فلا تضيق منه قطرة وينتفع به الناس.

ظللت أطوف بالمسجد حتى ما بعد صلاة العصر، فلما توفضت وصليت وحمدت الله، انصرفت إلى جوار حائط من الحوائط بصحن المسجد، فجلست وكنت قد تعبت من كثرة التجوال في الجامع، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة، مع عدم كفايتي من النوم في الليلة الفائتة، وبقيت وقتاً متأملاً أحقق في السموات المفتوحة فوقى، والأرض الظاهرة على البعد أمامى، بمروجها، وزروعها، وتلالها، ومنازلها، ورحت أتفكر فيما قاله شيخى ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه، إذ قال:

- وجدت الحرّ مضاداً للبرد، ووجدت الضدين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات نفسيهما، فعلمت من وجودهما مجتمعين أن لهما جامعاً جمعهما، وقاهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدثه، وعلى أن له محدثاً أحدثه، ومخترعاً اخترعه، لا يشبهه؛ لأن حكم ما أشبهه حكمه في دلالته على الحدث، وهو الله رب العالمين.

وبقيت على هذى الحال وقتاً أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائى ولانت، وضعفت ملكاتى، وتشوش صفاء تنبّهى، فحدثتنى نفسى أن أستسلم إلى ما يلزمنى من وجبة نوم، تعيننى على ما تبقى من النهار، وما قد يكون فى الخان

بالليل، وبقيت وقتاً مفتوح العينين ساكناً، أهدق في السماوات المفتوحة فوقى وأتأمل عظمة الخالق، وقد لفنى نسيم رطيب أنعش روحي، وسكن حواسي، وشيئاً فشيئاً وجدنتى أدخل في نوم هائى رضى، ولا أدري كم لبثت من الوقت على هذى الحال، إذ أفقت على حلم لا أدري أكان، أم كان ما رأيته هو رؤية الحقيقة والعيان؟! إذ وجدت عزيز عبنى ثاونا، وقد جاءنى على الهيئة التى رأيته فيها من قبل، أثناء اختبائى فى الأراضى الموحلة، وهو واقف على علية ويده نقف ويقول لى بوجهه النورانى الطيب:

— لم السرعة؟! ابق فى مدينة الأنبياء حتى تشبع روحك، وتعمّر بالإيمان، ثم تعال.. سأنتظرك حتى تجيء..

بقيت فترة واجماً حائراً.. لا أصل إلى يقين حول ما وقفت عليه، ورؤيتى لثاونا، ثم إن الله هدانى إلى أمر، وفتح لى فتحاً مبيناً، إذ قرأ أمرى على عكس ما كنت انتويته وعزمت عليه، قمت بسرعة، وذهبت إلى الخان، وهناك التقيت رئيس القافلة، فأنبأته أننى لن أرحل معهم فى صبيحة اليوم التالى، وسأبقى وقتاً فى مدينة الأنبياء هذه. ثم إننى جمعت حوائجى القليلة وخرجت بعد توديعى لكل من كانوا معى، وبينما أنا خارج إذ التقيت على الباب الفرأس الذى كان قد كلمنى من قبل، فلما أخذت فى توديعه نظر إلى قليلاً، ثم قال :

— ألم أقل لك إنك ستمضى فى طريق لن تعود منه أبداً؟

سُحت فى القدس زمناً، ومرّت على شتاءات وراء شتاءات، وأصياف وراء أصياف، وقد تعودتنى المدينة مثلما تعودتها، فصرت أبيت فى الجوامع حيناً، وفى الأسواق حيناً، وفى براريها أو بساكنها حيناً آخر، وقد أخذتنى المدينة، كما لم تأخذنى مدينة أخرى من قبل، وبت لا أستطيع البعد عنها، وكأن روحي لا تعرف موضعاً فى هذه الدنيا كلها لتستريح وتطمئن إلا فيها.

كنت أنصرف إلى الكنائس أياماً وإلى المساجد أياماً آخر، أو أصعد القلعة فأنصرف إلى الجانب الغربى من سورها إلى مخراب داود بقلب الجامع المبنى هناك، وأبقى فى المرتفع الذى يطلع إليه بدرج حيث مكان جلوس النبی داود

عليه السلام، وأظل وقتاً أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغايب في الحجر، وأتعجب لتلك البلاطة التي طبع عليها المرفق، أما كنيسة القيامة، والتي عماراتها من العجائب المذكورة، فطالما كنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيد على الحجر، والموضع الحجري الذي سيط وجلد وتعدّب فيه عليه السلام، وكذا السجن الذي وضع فيه، وكنت أبقى حتى يأتي واحد من آل نسيبة أو آل جودة وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوط بهما فتح وإغلاق الكنيسة وحفظ مفاتيحها.

وصرت أتعيش بما يقدمه لى الناس من صدقة وإحسان، وقد انصرفت في جلّ وقتي إلى الصلاة والتعبّد، وفضلت السياحة على سواها من أمور الدنيا، فكنت أنحدر حيناً إلى دير المصلّبة، وهو دير رومى قديم البناء بالحجر والكلس، محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكرّوم والتين، بإزاء قرية تجرى على الدير، وكان بداخل الدير صور يونانية غاية في محاسن التصوير، وتناسب المقادير، وأذهب حيناً آخر إلى نثر عال مشرف على غور أريحا، به دير يسمّى دير السيق، وهو مطّل على تلك البساتن الخضراء ومجرى الشريعة، فكان يتلقانى هناك رهبان ظراف أكياس، فيقدمون لى مما عندهم من خبز وفاكهة ويتركوننى أنصرف إلى التأمل أو الصلاة، ويقعّتهم لا يأتيها إلا قاصد لهم أو ماراً في مزارع الغور تحتهم، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكتيّب الأحمر بعد ذلك.

وقد حدث أننى كنت في واد يسمى وادى اليوسيفات، وبه عين ماء، فوجدت جماعة من النساء قد جئن وبينهن امرأة شابة من أجمل خلق الله، ثم إنهن دفعن بالمرأة إلى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء، وشربت منها، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها، هللن جميعاً، وزغردن، وقلن إنها طاهرة بريئة، فتعجّبت لذلك واستجلبت الأمر، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء، أو نبع النساء المتهّمات، فأى واحدة تتهم في شرفها يؤتى بها إلى هذا الموضع لاختبارها، فمن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة، أما إذا كانت بريئة فلا تصاب بأى أذى أو ضرر، ويقال: إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت

الاختبار، وشربت من ماء هذى العين، فبرهنت على طهرها فلم تطعن وتموت، ومنذ ذلك الحين والنبع يحمل اسمها.

لا أدري كم من الوقت مرّ بى وأنا فى مدينة الأنبياء، ولقد مرّت أيام وشهور وأنا أسوح فيها هنا وهناك، وقد صفت نفسى بها، وهنا عيشى بربوعها، رغم أننى كنت بلا عمل، أتعيش من ثمار البرارى وأشرب من مياه الينابيع، وأتقوّت بما يجود الناس على به بين الحين والحين، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئاً، فلقد كنت أذهب إلى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة، فأطلب ببعض من الدريهمات التى معى شيئاً مطبوخاً، أو مشوياً آكله، فأجد من يقدمه لى وهو يدفع بيدي رافضاً أخذ الثمن، ومرة رفض صاحب دكان أن يأخذ منى أكثر من دانق مقابل صحن مملوء بخبيصة لحم وخضار، وكنت أتعجب لأن مطاعم السوق تكثر هنا فى القدس، وتشيع عادة الأكل فيها بين الناس، على عكس بغداد التى قلما يأكل الناس فيها خارج بيوتهم.



ثم إنه حدث لى أمر غاية فى الغرابة والتوفيق، وبدا لى أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فبينما كنت ساهراً ذات ليلة فى زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة، وبعد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وصلة ذكر وإنشاد، أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر، وبلغنا حالاً من النشوة وشدة الوجد فتحتمت الدوسة، فما كان إلا أن تمددنا جميعاً على الحضيض، شاهرين كل سلاح نتسلح به من سيف، ورمح، وخنجر، وسكين، ثم جاء الشيخ الرئيس الواصل، وقد تجلّى وانجلي وأطلّ فأشعّ، وعكف فكشف، وسار بفرسه واطلاً جسومنا، ورماحنا، وسيوفنا بالحوافر، ولساننا يلهج بذكر الجلالة، وقلوبنا تدقّ بحبّ الحبيب، حتى واعدنا غبنا، فما إن قمنا حتى ظهر على باب الزاوية رجل مشعث مغبر يدخل إليها وهو فى حالة شديدة من الضعف والإعياء طالباً إغائته بشربة ماء، فلما هرعنا لنجدته جميعاً وسقيناه تبينّت أنه يشكرى الأبرص، فلم أتمالك نفسى وارتميت عليه أعتنقه وأقبله شاكراً الله على لقائى به مرة أخرى فى هذه الدنيا، ثم إننا أطعمناه وتركناه يستريح حتى يسترد أنفاسه، قلما تحسّنت حالته خرجنا سوياً إلى البساتين التى بظاهر المدينة، وتخيّرنا موضعاً من المواضع فيها، ورحنا نحكى لبعضنا البعض ما جرى لنا بعد افتراقنا فى بغداد، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الرّبّانية، فقال لى يشكرى: إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأته إلى مدينة مرو، وهى بلدة امرأته الروايفية، بعد أن ضاق العيش به فى بغداد، وإن الخليفة مات، وجاء بعده خليفة آخر، وهو ظالم جاهل من أرباب السيف والرمح، ثم إن الزطّ وهم من الهنود الغجر المتوطنين بالسواد فى نواحي البصرة ما بين النهرين، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد، بعد أن ضاق بهم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى، وأنه استعمل ضدهم جماعة من

المصريين، الذين كان الخليفة السابق قد وضعهم فى أنطاكية، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغداد لمحاربة هؤلاء الزط، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصب فيها الفرات ودجلة، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليها ومقاتلتهم؛ لأنهم كانوا يحاربون وهم فى قواربهم، فقاتلوهم بالمزاريق ويعجوبهم، فالتفت عليهم الأقباط وأمسكوكهم، وأمسكوا أهاليهم، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف، متولى العسكر لقتالهم من قبل الخليفة، إلى بغداد، بعد أن طلبوا الأمان فأمنهم، وكانوا يعدون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبى، فجعلهم فى السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، وقد خرج كثير من أهالى بغداد لمشاهدتهم وكنت منهم، وكانوا فى زوارقهم وعلى هيئتهم فى الحرب، معهم البوقات، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسية، فبقى الخليفة فى سفينة يقال لها الزو حتى مر به الزط، على تعبئتهم، ينفخون بالبوقات، فكان أولهم فى القفص وآخرهم بحذاء الشماسية، وأقاموا فى سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقى وذهب بهم إلى بلدة تدعى خانقين، وقيل إنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالخمر يسمى عين زربة، فلما سمعت ذلك، دق قلبى دقاً عذيفاً، وقد أخذت بما قال، وتذكرت بخنس بن أيوب، وحيرتى مما يمكن أن يكون قد جرى له، وعدم وقوفى على حاله منذ مفارقتى إياه فى شاطئ الفرما، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من بر مصر، ويقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتم فرزنا هناك، وكنت قد علمت أن كثيراً من الناس ممن لم يباعوا من أهل البشمو، قد وطئوا، بأمر الخليفة، على جانب من بحيرة أنطاكية، فى منطقة المستنقعات التى بشمال المدينة، لتشابه ما خلق الله من أراضيها مع كور البشمو.

قلت بلهفة متسائلاً:

— والأقباط؟ قل لى بالله عليك، ماذا كان من أمرهم؟

نظر إلى الإشكرى بدهشة وكأنه استغرب سؤالى، أو استنكره، وبدأ لى وكأنى سألته عن أمر لم يكن قد خطر على باله أو فكر فيه من قبل، فقال بينما هو يخلع عمامته، ويعيد جدل ضفيرة شعره الأسود الحريري وقد التمع على ضوء الشموع القليلة التى أوشكت على النواء:

– الأقباط ؟ قلت لك إن الخليفة استخدمهم فى محاربة الزط، لكن لا أدرى من أمرهم شيئاً. ربما ظلّوا فى مواضع الزط التى رحلوا عنها يشتغلون بما كان يشتغل به هؤلاء من صيد للأسماك، وتربية الجاموس، وعمل الملح، ولم روّث البهائم لعمل الوقايد وتغذية أرض الزراعة، وربما حلّوا محل الزط فى الوحلات والمواضع التى حول البصرة، كواسط ونجيدا وصافية.

ثم إنه بدا كمن استدرك أمراً وقال مازحاً :

– لكنّ سؤالك عجيب، لا أحد فكر فى أمر الأقباط، أرغم كل الذى جرى لك، ورغم كل ذلك المكوّث فى بغداد، وإسلامك، تفكّر فى الأقباط ؟ والله يبدو أن بداخلك قبطياً، أو فرعوناً من الفراعين فى الحقيقة، إن ذهنى لم يتطرق إلى التفكير فى ذلك من قبل، ثم إنه ضحك وقال:

– فى أنطاكية. فى مصر. فى الشام. فى بغداد.. كلها أرض الله وبلاد الخليفة. كلنا عبيد الله. لا أظن أن مكروها لحق بهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كان الخليفة قد استخدمهم لمحاربة الزط، وما يقع لهم، يقع لسواهم، سواء فى بغداد أو أنطاكية، أو مرو، أو خراسان، أو مصر، أو ما يقع لكل من لا حيلة لهم فى هذه الدنيا، ولا قدرة لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان.

ثم إنه سهم ببصره طويلاً، وقد تلبّدت عيناه بغيوم غم وضيق، ثم صرخ صرخة عظيمة فجأة وصاح: يا حبيب.. يا حبيب.

رحت أمد بصرى إلى الأفق القدسى أمامى، متطلعاً إلى نجومات أشعت علينا من السماء، أفكر فيما قال، وضيق يداخلنى؛ إذ إن ما أجابنى به لم يشف غليلى، ولم يرد على سؤالى، فِدَقِيت ساكناً فى موضعى، بينما قلبى ينفطر على بخس بن أيوب، وكنت أتساءل: ترى، هل وصل سالماً إلى أنطاكية بعد فراقى له فى الفرما، وجلب مرة أخرى إلى بغداد لمحاربة الزط، أم بيع فى سوق النخاسة بالشام، أم لقي حتفه وقبر بمياه البحر الرومى التى لا تنتهى لها ؟ كانت الحسرة تأكل قلبى عليه، وعلى كل الذين رحلوا على السفن، وقد أيقنت أن من ماتوا فى الطريق إلى أنطاكية استراحوا من عذاب جديد، كان بانتظار أولئك الذين شاء الله أن يظلّوا

على قيد الحياة، وسرعان ما تذكرت ثاونا، وما قاله لى ذات يوم، من أن الروم فى زمن سطوتهم ويطشهم بمصر من دهور، كانوا يستخدمون الأقباط وقوداً لحروبهم، حتى إنهم حاربوا مرة فى بلد فوق البحر الرومى وبلاد الجريك يسمى سوزير، وكانوا يأخذون الجميع معهم، بما فى ذلك النساء القبطيات الورعات لرعاية الجرحى والتطبيب والتمريض، وكانت واحدة من هؤلاء النسوة يعقوبية طاهرة، فراحت تعلم هؤلاء الناس، فى سوزير هذه، أصول النظافة والعلاج، والديانة الحقّة حتى استشهدت وهى قديسة متفانية، فصنعوا لها ضريحاً ورسوموا لها أيقونة، وعملوا كنيسة على اسمها تسمى كنيسة فيرينا.

داخلنى شعور جارف بالألم والمرار، وشملنى حزن نبيل، بينما كنت أتذكر كل ذلك، وطارت عصافير شوقى إلى بر مصر، فرعف راعف الحنين بدمى، وتفجّرت ينباع دمعى بلهفة الرواح والعودة إلى ترابى، وسمائى، ونيلى، وشمسى، ورحت أهمس لنفسى بما كانت قد دفعت إلى به الرواحية امرأة الشهاب، ذات يوم، لأكتبه لواحدة من صويحاتها، كانت على وشك الرحيل من بغداد إلى غزنة، مع رجل زوجه لها من هذى البلدة، فأرادت أن توشى بعضاً من أثوابها بجميل العبارات وأحسنها، كما جرت العادة وابتدع فى ذلك الوقت ببغداد، فكتبت لها - ضمن ما كتبت - على صدر قميص خزّ أكحل بالفضة والذهب، ما يذكرها بأهلها ووطنها، وكان ذلك بخط كوفى نيسابورى شاع واستحب كثيراً لدى الناس:

سقى الله أرض عاشقين بغيثه ورد إلى الأوطان كل غريب  
وأعطى ذوى الهيات فوق مناهم ومتع محبوباً بقرب حبيب

ثم إنى بقيت فى البستان وقتاً مع اليشكرى، فأخبرنى أنه هبط المدينة؛ للبقاء فيها بضعة أيام، قبل رحيله إلى دمشق، وقد طلبها للعمل عند بعض ورّاقها، كما وعده الجوهري الذى التقاه فى بغداد، وأنه راغب كذلك فى زيارة مساجدها، ومقامات الأنبياء فيها، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيد قواه، ويبرأ مما هو فيه، لأنّه سار طويلاً على قدميه، بعد أن مرضت راحلته ولم تعد تتحمل

الركوب، فعرضت عليه أن نبئت في جانب من البستان الذي نحن فيه، ثم نسعى لحل مشكلته في المدينة عندما يحلّ الصباح إن شاء الله .

وبقينا ساهرين نتحدث حتى قرب طلوع النهار، وظلّ الشكرى يحكى لى عن أمور بغداد، وما استجد بها من أحداث بعد رحيلى، فقال إن الأحوال بها صارت على غير ما يرام، وإن أكثر الناس أصبحوا في ضيق العيش وصارت العامة كثيرة التذمر، بعد أن فشا أمر الشطار، والعيارين، والمكدية، وغلب الفقر، حتى إن أكثر الناس صارت لا تأكل إلا السوق المصنوع من طحين الحنطة، أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان، وهذا كان لا يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هي الأكلة الفريدة التي لا تعرف غيرها كثير من البطون، حتى إن بعض الظرفاء قال فيها:

إن الهريسة أهواها وتعجبني وبالهبة قلبى جدد مفتون  
وإن ذكرت سواها هاج لى طرباً وإن أتى بعده لوانا يكفينى  
وقد تفشى الإملاق، وبات الناس يرفعون الرقع إلى الخليفة وأولى الأمر، حتى إن أحدهم كتب في واحدة من هذه الرقع:

«إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتنى، فأخذت منى ما كانت الدنيا أعطتنى، فلم يسبق لى ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندثر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبداً ولا لبداً، وعلى دين كثير، ولى عيال، وأطفال، وصبية صغار، وأنا شيخ كبير قد قعدت بى المطالب وكبرت على المكاسب، وبنى نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال من قال:

لى بيت كأنه بيت شعر لابن حجاج من قصيد خفيف

أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله وهو مثل عقلى الضعيف

بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها فى الكسوف،

وقال: إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشرطة والافتتان معها، وصبّوا الماء عليهم، وطاردهم فى الشوارع، كما إنهم أولعوا بأذى الخدم السود، وصاروا

يقولون لهم كلما صادفهم: يا عقيق. وهم ينظّمون أنفسهم إلى عشرات، على كل عشرة منها عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقيب قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، والرئيس وتحت إمرته عشرة أمراء، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكى العيارى، ومن رؤسائهم من يقال له نبتوية، وخالويه، ودويل، ودغال، وأبو نملة، وأبو عصارة، وديكويه، والمخرمى، وإن البعض يقول إن عددهم ببغداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عيار، حتى إنهم إذا تحركوا هلك بعضهم من كثرة عددهم وسرعتهم، وإنهم لا جنس معيناً لهم، بل إن أكثرهم من غير العرب، وبسبب سوء الأحوال فإن كثيراً من أهل الحرف، والباعة المتجولين، وصغار التجار، الذين كسدت سوقهم وبارت بضاعتهم، باتوا ينضمون إليهم، إضافة إلى الأوباش وأهل السجون وأهل السوق.

لم نشعر كم لبثنا نائمين، إذ أفقنا قرب الظهيرة على صوت جلبة وصياح، فلما تبينا الأمر وتبيننا، وجدنا أن أصحاب البستان قد جاءوا لشؤونهم فظنوا أننا لسان جاءا لسرقة مالهم وغلتهم، فأفهمناهم ما كان من أمرنا، وأنا من الفقراء إلى الله الذين لا غاية لهم فى هذه الدنيا، وأنا لسانا بسارقين، فلما استقروا على أمرنا، وآمنوا بحكايتنا، أكرمونا، وأطعمونا من خيرات أرضهم، ثم إننا سألناهم عن بيطار يداوى دابة اليشكرى فوصفوا لنا واحداً يقع دكانه بحارة اليهود.

سحبنا البهيمة بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حارة اليهود، وهو طريق يصل ما بين شارع داود وسور المدينة وليس ببعيد عن بوابة صهيون، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قبل، وكانت منازل قليلة متناثرة فى المكان هنا وهنا، وكانت بالحارة بضعة حوانيت معدودة، وقد وقف أصحابها على أبوابها أو للعمل فيها، وأكثرهم على حال بين من الفقر والثراء، ثم إننا دللنا إلى حارة أضيق، ضمن هذه الحارة، تسمى حارة الريشة، وكانت هى المقصودة والى دللنا عليها أصحاب البستان، فسألنا عن البيطار نحمان بن عويديا، فدللونا على دكانه، فلما وصلناه استقبلنا الرجل، وسألنا عن علّة البغل الذى لليشكرى، فقال اليشكرى: إنه يعانى كثرة حركة الرأس وقلة الأكل وسيلان الأنف وقد ظهر له بروز مستطيل خلف

الأذن، وهو لا يقوى على الحركة والنشاط، وكنت خلال ذلك أنظر للبيطار وأتأمل أدواته، فوجدت أنه ليس بالنظيف، ولا لطيف الهيئة، كما جرت العادة فى أطباء الناس، لكنه بدا لى قوى الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصحوا، صدوقاً، وكانت فى ركن من دكانه الواسع ثلاث مطارق كبرى، قد تفوق السبعمئة درهم وزنا وفق تقديرى، وهو ما يستخدم فيما يبدو فى اعوجاج المسامير، والتطابق، وسائر الآلات، وكان هناك كذلك مطارق وسطى للدقوقات الأوائل، وبعض التقويم، وبها تعدل غالب الآلات، ومطارق صغرى لأجل التبشيم، وتقويم المباحص، وأقل ما تكون فى تقديرى من حيث الوزن مائة درهم، وكانت لديه تسعة مباحص، بعضها دقيق لطيف، وبعضها أملاً من ذلك، وكانت لديه كذلك قرم، وشنج، ومكاوى، وكلبات، ومزاعط، وأميال، ومقراضين: واحد صغير، وآخر كبير، وكانت لديه كذلك أمواس، وإبر، وسلوكات مختلفة، فلما عاينت ذلك كله تعجبت، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار من قبل.

ثم إن الرجل عاين البغل وهو يربت عليه ويرغبه فى فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه، ونظر أنفه، ومواضع الشم، وفتش فى جلده ويطنه، ودق على ركبته دقاً لطيفاً، وأشياء عديدة مما يستوجب الكشف والمعاينة وتشخيص الداء، ثم إنه فكر ومحص قبل أن يخبرنا أن البغل مصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء، فإن انفجرت دمكه عولجت بالإزالة الجراحية، ونصح الإشكرى أن يصبر على الدابة، فلا ينهكها بكثرة المشى والمسير، حتى تبرأ وتطيب.

مضى وقت بعد ذلك حتى ودعنى الإشكرى وسافر قاصداً دمشق، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمى على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عدت إلى بر مصر للبحث عن عزيز عينى ثاونا، وإدراكه قبل فوات الأوان بأن يباعد بينى وبينه مفرق الأحبة والخلان.

وكان مما عجل فى رحيلى عن مدينة الأنبياء، تدهور حالى ونفاد مالى، حتى إنى جعلت ذات ليلة فأكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبى أنذكر

هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان على جبة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدرهمات، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت من يحملني إلى الرملة بدرهمائى القليلة التي دفعتها له، ومن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق، وجامع جميل، ورأيت بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً، وهو طاق من الحجر الكبير، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير، وخرجت من هناك فوجدت في الطريق قرى كثيرة، ومدناً يطول وصفها، ثم بلغنا مكاناً يسمى طينة، وهو مرفأ عامر بالسفن، ويذهب منه إلى تنيس، فذهبت إلى رجل سفائنى من الملاحين، وقد توسمت فيه الطيبة، فسألته أن يحملني معه إلى تنيس، وقد علمت أنه متوجه إليها، وذلك على أن أعمل فى الوقايد دون أن أدفع له مما يدفع لأمثاله مقابل الحمل، لكنه لم يستعملنى فى الوقايد، وبقيت على السطح فى حراسة فيل مجلوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار، فظلت، تصك الشمال وجهى، وينثر الليل الصقيع على رأسى، ولم يكن معى غير لحاف سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بد لمثلئى منه، وبقيت على هذى الحال مدة حتى إنى حننت وترجمت على أكل الطين الذى لا أجده وأنا فى البحر، وكانت هناك جماعة من الحجيج الأقباط هبطوا السفينة عائدين إلى تنيس من حيث أتوا، بعد زيارتهم بيت المقدس، والمواضع التى لا بد من زيارتها، والتبرك فيها، لكل من آمن بالمسيح، فلما لاحظوا عكوفى وامتناعى عن الأكل، قدّموا لى زاداً مما لديهم من الجبن المطبوخ بالعسل واللحم، وبعض الفاكهة الطازجة، فشكرتهم على ذلك وأمنت بالله ورحمته، ورحلت أتلو:

«وما من دابة على الأرض إلا ورزقها على الله» صدق الله العظيم.

لاح لنا بر تنيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل، فما أن رأيت الأرض، والشجر، والنخيل، وقياب المساجد، وكؤوسات الكنائس والبيع، البادية فى عليائها عن بعد، حتى أخذتنى رجة، ارتعشت لها أطرافى، وعصفت بأعطافى، وكأن عيني لا تصدق ما ترى، وكأن نفسى تشك أن رحيلى كان، وأن خروجى من بر



مصر لم يكن، فلم أتمالك نفسى ورحت أجهش ببكاء سمعه كل من كان حولى، وجعل الفيل يستدير إلى ويخزرنى بعطف بدا لى معه وكأنه افتهم ما أنا عليه من انفلات الشعور وجيشان النفس، فلما استقرت السفينة استقرارها الأخير، ونزلت منها، ووطأت قدمى تربة الأوطان، سجدت مقبلاً لما أخذ روحى وردّها، ورحت أحفن التراب بيدى ونفسى تهتف: هذى هى الحقيقة، ذاك هو اليقين.

ثم إنى صليت ركعتين لله شكراً وحمداً، وبقيت فى تنيس ليلة بتّ فيها بواحد من مساجدها هو مسجد الخراسانى بالقرب من الساحل، فلما انتهيت من صلاة العشاء، وقلت لنفسى أن أستريح قليلاً قبل شروعى فى صلاة التراويح، وبينما أنا أنظر حولى وأتأمل المكان، وجدت رجلاً جالساً مستقبلاً القبلة وبين يديه العصا التى يعتمد عليها والمصحف، وعلى وسطه خرقة، وشعره منشور على ظهره، وكان إلى جانبه شيخ يبكى ويستعطفه ويقول له أمك تبكى حزناً وقهراً، فردّ عليه الأول قائلاً: ما أدخل لك منزلاً وأنت تعمل فى الصرف، إنما أنتظر طلوع النهار، ثم أدخل النيل وأأثرز بالماء وألقى هذه الخرقة. ولم يسكت إلا بعد أن عقد على أبيه ألا يعمل فى الصرف أبداً، فتعجّبت لذلك، وأدركت أن هذا الرجل من الزاهدين، ثم علمت بعد ذلك، من خادم المسجد، أن هذا الزاهد ظل زمناً مقيماً فى وكر بأسفل المنارة، من غير أن يخالط أحداً، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى، فإذا سلم الأمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم، بعد انصرافه من الصلاة، وكانت حاله أبداً اتصالاً فى انفعال، وقرباً فى ابتعاد، وأنساً فى نفار.

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبل حين، فذهب حاجاً إلى مكة، ثم عاد إلى مصر، واستقر بتنيس، وكان لا يحدث أحداً إلا لضرورة، ثم أخذ فى ترميم هذا الجامع، وكان خرباً مهجوراً، ونظفه بنفسه حتى نفى ما كان فيه من البوطاط بسقوفه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلط صحفه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان يؤثر في السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحداً شيئاً، ولا يقبل غالباً، وكان يبذل جهده في كتم حاله، وعرف عنه كثرة قراءته في المصحف، ومطالعة الكتب، ولم يره أحد يخط بيده شيئاً، ولم يعمل له سجادة قط، ولا أخذ على أحد عهداً، ولا لبس طافية، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير.

ثم إنى نمت على أمل أن يحييني الله في الصباح، فأتوكل عليه، وأشد رجالي إلى مصر العتيقة لأرى حال الآباء في كنيسة قصر الشمع، وأكتحل بمرأى الأب يوساب وهو لا بد واقف على مصير عزيز عيني ثاونا ومكانه.

ركبت السفينة من تنيس، ودخلت فرع الروم، وهو من فروع النيل المطروقة بأسفل الأرض، حتى وصلت بلداً تسمى الصالحية، وهي مدينة كثيرة النعم والخيرات، كان بمرفئها وقت وصولي سفن كثيرة تصنع، وهي من النوع الكبير المحتمل ربما ما يزيد على مائة حمل حمار، ومنها تنقل البضاعة إلى مصر العتيقة حتى أبواب دكاكين البقالين. وفي الصالحية التقيت رجلاً قبطياً، كنت قد تعرفت عليه عند ركوبى السفينة إلى تنيس، فلما رحنا نتذكر بعضنا البعض، وتدخل في الكلام، علمت أنه منحدر إلى الفسطاط للبحث عن وراق يعمل له كتاباً وضعه بالقبطية عن طبقات الأطباء، وهو راغب في نقل الكتاب إلى القلم العربى، بسبب تفضيه أكثر بالبلاد في هذه الأيام، فلما علم أننى قبطى من الجدد، والبشورية هى لسانى الأول تعجب لذلك تعجباً شديداً، وكان يظن أننى عربى المولد والأصل بسبب جريان لسانى بالعروبة، ثم إنه طلب منى أن أنقل له كتابه هذا إلى العربية، وأن أخطه له، بعدما عرف أننى أجيد نسخ الكتب أيضاً، وراح يحكى لى عن جانب منه، فقال: إنه يحوى كلاماً عن كافة الأطباء ومنهم رجل حكيم اشتهر وذاع اسمه فى الزمن القديم، ليس فى الطب فقط، ولكن فى الهندسة، وسائر العلوم، وإن هذا الرجل ورد مصر فى الدهور المندثرة، فذهب إلى أهل مدينة الشمس، المعروفة فى زماننا بعين شمس، فقبلوه على كره وامتحنوه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً، فما كان منهم إلا أن وجهوا بفيناغورث - وهذا كان اسمه - إلى كهنة منف، كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيباً، ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل

ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاظه سبيلاً، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين، فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطاناً على ضحايا الرب، وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط. لكنى اعتذرت للرجل، فليس لدى وقت أصرفه في مثل هذا الأمر، إذ إن دخولي بر مصر مرة أخرى أجمع نار شوقى إلى عزيز عينى ثاونا، وصارت هواجسى تتزايد، كلما تذكرت كلام التاجر الفراس الذى التقيته بالقدس، عندما قال لى: إنى ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسى، ولسوف أبذل جهداً ووقتاً حتى أجده، وهو جد مريض، وقد أدركه. أو لا أدركه، ففارقنى وهو متأسف على ذلك؛ لأنه عز من تمكن من اللسان القبطى واللسان العربى مجتمعين، فى ذلك الزمان، وهناك الكثيرون قد أدركوا العربية لساناً دون الكتابة، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل، لكنه من المخطوطات الخطيرة التى لا تحمل الخطأ أو انعدام الخبرة والمهارة، فاعتذرت له مرة أخرى، وأشرت عليه أن يقصد أهل البيع والكنائس؛ لأنهم حريصون على لغة دينهم حرصهم على تعلم العربية على أكمل وجه حتى تبقى الكنيسة على شعبها، فلما تركته ومضيت ظلت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كثيرين ممن قابلتهم هنا فى الصالحية أو تنيس باتوا يتكلمون العربية وإن خالط كلامهم كلمات قبطية، ثم إنى أديت فروضى وصلواتى وصلّيت صلاة استخارة، إذ كنت متردداً فى ذهابى إلى كنيسة قصر الشمع، رغم شوقى للآباء هناك، وذلك خوفاً من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامى، لكنى كنت فى أمس الحاجة لمعرفة أخبار ثاونا ومكانه أيضاً، فلما نمت فى فىء نبقة حنون بالظل ورطوبة الهواء، جاءنى ثاونا، على الهيئة التى كنت قد رأيته عليها وقت هروبه من الأرضى الموحلة، إذ كان واقفاً على علية وببده نقف، وهو يقول لى: اتبعنى إلى برية هبيب.

فلما أفقت من نومى، ورحت أتذكر ذلك، وقد صفا ذهنى وتوقّد، قلت لنفسى، والله إن خاب رجائى فى الوقوف على أمره بكنيسة قصر الشمع، لسوف أمشى إليه ساعياً فى برية هبيب.

ثم إن أهل الخير نصحوني أن أصل إلى بركة الحاج لأركب النيل منها إلى الفسطاط، فكنت أسير على قدمي حيناً، ويحملني معه من يشفق على من الناس حيناً آخر، حتى وصلت بركة الحاج، وكانت عامرة بالماء وكذا التربة المفضية إليها من البحر الأعظم، وهناك كان السفاينة، والمراكبية مجتمعين، فركبت مع نوتي صياداً طلبت منه حملي لقاء عملي معه، فوافق على أن أساعده في طرح شباهه ولما طوال مسيرنا، كلما لزمته في ذلك، فلما وصلت الفسطاط ومنها إلى مصر عتيقة، سارعت الخطى إلى كنيسة قصر الشمع، حتى وصلت بابها، وإذا أنا أهم بالدق والاستئذان بالدخول، خرج شاب يافع من الباب وقد أدركت من ملابسه أنه شماس، فاقتربت منه وسألته بكل أدب عن عزيزي ثاونا، دون أن أطلع له على حقيقتي، فردّ وهو يتفحصني بارتياح، قائلاً:

- ثاونا ؟ لا يوجد أى من أعضاء الهيئة الأكليروسية هنا بهذا الاسم.

ثم إنه صمت قليلاً، والفضول يرسم نظراته، بينما أخذ يزنني ويضمن بشأنى، قبل أن يضيف:

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين، إنه الآن فى برية هبيب بدير الأنبا مقار. لا أظنك تقصد هذا.

طار قلبي من الفرح، فودعته على عجل، وأنا أشكره كثيراً، بينما هو واقف يشيعنى بنظرات كلها دهشة واستغراب.

كنت أسير حيناً، وأستريح حيناً، وأنام حيناً آخر، وأنا أمرّ ببلدات وقرى وأستقيء بأشجار ونخيل، وأتلحف بسحابات السماء، حتى بلغت مشارف برية هبيب، ولم يعد على بدنى غير مئزر وقميص، ولا ملكت يدى غير نفق أنعكز عليه، وكنت كلما طالعت صورتي وهىأتى فى جدول أو نبع، أدرك كم بدلتى الزمان، فيها هو المشيب يلوح بمفرقى، وها هى التجاعيد تتكرس بوجهي، وهكذا أيقنت أنني تعدلت من طور إلى طور، ودخلت من ديوان إلى ديوان، وأدركتني الرجولة والكهولة، وفارقني الشباب والفتوة.

كانت شمس لاهبة لا تعرف الرحمة، وكأنها طاقات من سحير فتحت في السماء، تصحبنى طول الطريق، وبقيت سائراً أستدل من الرعاة على موضع الدير، وكانوا يعينونى على ما أنا فيه بشربة ماء أو جرعة حليب وبعض تمر، حتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير، ثم إننى جلست لأستريح قليلاً وتيممت متهيئاً لصلاة المغرب، فمسحت يدى بالرمال الطاهرة وكأنى أغسلها، ثم مسحت وجهى، وساعدى، وقدمى، وفعلت فعل الوضوء بغير ماء، حتى أتطهر وأستعد للصلاة، وكانت الشمس تستأذن الرحيل، فلما انتهيت من صلاتى، جلست أتأمل صمت الصحراء العميم، والشمس تغيب شيئاً فشيئاً، وتتوارى خلف تلال الرمال البديعة، فبدا المشهد فى عيني جليلاً أسراً، وفكرت كم أن الإنسان ضعيف، وضعيع، ظالم وغشوم، مفتون بجبروته وقوته وهو لا يساوى ذرة رمل من هذى الرمال، أمام قوة الله وعظمته.

ثم إننى قمت وسرت - كما وصف لى الرعاة - فى واد عريض ممتد من الرمال، وكان ما تبقي من شمس الأصيل قد أتاح لى لمحة خاطفة إلى الدير، على البعد، فرقص قلبى فرحاً، وقد أدركت أننى على وشك بلوغ غايتى، لكن سرعان ما استحكم الظلام، وسلسل المكان بديجوره، دون أن تطل نجمة واحدة من السماء، أو يتعطف القمر فيستبين، فانقبض قلبى، وداخلنى إحساس بالضياح، وأكلتنى الوحشة، لكننى بقيت سائراً، متوكلاً على الله، أصطدم حيناً بالصبارات الموحشة النابتة هنا وهناك، وأتعثر حيناً فى الرمال الناعمة التى يصعب الخطو فوقها، وأنا أدعو الله أن يخرجنى مما أنا فيه، وأصل غايتى، لأتمكن من إدراك عزيز عيني ثاونا، قبل أن أهلك فى هذا المكان.

لا أدرى كم من الوقت لبثت على هذى الحال، إذ لاح لى بعد حين ضوء استمر منيراً فى ثبات، فتهياً لى أنه نجم بعيد، لكنى أدركت كلما شددت الخطى باتجاهه، أنه كشاف يشعل فوق حوائط الدير لهدى العابرين أو الضالين فى هذه الصحراء المترامية الموحشة.

وصلت فى النهاية إلى بوابة الدير، التى لم أكن لأدركها أبداً لولا هذا الضوء الهادى، وما أن صرت قبالتها حتى رحت أدّقها دقّاً عجولاً متلهفاً، فجاءنى صوت من ورائها يستفسر عنى أكون، فقلت له:

- إنى قريب للراهب ثارونا وجئته لأمر من الأمور الجلييلة. فلما فتح لى الباب بعد حين، افتادنى خلال ممر ضيق داخل الدير، وكان الرجل القائد راهباً يحمل شمعداناً بشمعة واحدة، أتاح لى ضوءها أن أدور بعينى فى المكان وأدرك أنه أشبه بحصن من الحصون.

أدخلت إلى مضيضة واسعة، فرشت بوبر الجمال، ولها شبابيك من الخشب القباطى المصلب الفتحات، والمعمول على هيئة مشربيات، وكان الطلوع إليها بسلم خشبى، يوضع ويرفع، وكانت تحيط هذه المضيضة بعض القلاى المظلمة. قدّم لى الراهب ماءً ونمراً، وقال لى:

- نم الآن، والصباح رياح.

لا أدرى كيف نمت، إذ كانت الآلام تهيمن على جسدى كله، فلم أفق إلا عند الفجر على صوت جرس الكنيسة، فنهضت مسرعاً دون أن أدرى، وقد ظننت لوهلات أننى ما زلت قيماً بكنيسة قصر الشمع فى مصر العتيقة، وإننى قد تأخرت على الانصراف إلى أعمالى بها.

توجّهت إلى المشربية، ورحت أنظر من خلالها، فبدأ لى الدير تحتى، والصحراء تلفه من كل ناحية، وكأنه زرع زرعى فيها، وقد أيقنت أنه حصن فى الحقيقة بحوائطه الصماء وقد برزت مرتفعة وسط الرمال، ومدخله، وقد جاء على شكل معين رباعى الأضلاع، وحنياته المرتفعة، وبابه الضخم المصنّج بالحديد، وقد تكومت بالقرب منه أعداد كبيرة من الأحجار، يبدو أنها تستخدم لدرء الخطر فى حالة العدوان عليه، وكان للباب من الأمام حجران مثل أحجار الرعى، قدّاً من صخر الصوان العنيد، يمكن دحرجتهما، وهناك بكرة تليه، يمكن الصعود بها إلى قمة الحائط، وكان هناك برج الدير الضخم، وكنت أعلم أن مثله إنما يستخدم لحفظ الكتب والقراطيس الإيمانية المقدسة، وخزن الملابس، والأواني الثمينة، وتشوين الطعوم كالقمح، والزيت، والزيتون، والتمر، بالإضافة إلى مواضع

لاختفاء الرهبان وقت الخطر. وكان للدير فناء كبير واسع، وآخر صغير، وقلالي الرهبان تقع حول هذه الأفنية، وكذا موضع الطاحون والفرن.

وقفت متأملاً كل هذه الاستدارات، وتذكرت كم هي قريبة الشبه بعمارات بغداد، والقدس الإسلامية، والمسيحية، فكُرت في سبب تكريس الاستدارة في كل فن متجسّد تراه العين، قلت إنها الراحة والطمأنينة التي يقجّرها الخط المنحني المستدير، وكان كروان قد عبر مترنماً، ولكلك بصوته الريّاني الساحر، فانشرح صدرى، ووجدتني أقول لنفسى، وأنا أشنف آذاني بصوته العذب، أليست تلك العمارات المستديرة محاولة متواضعة لمحاكاة ما خلقه الله؟! إن الشمس مستديرة، والقمر مستدير، وأوراق الشجر والنبات مستديرة أو هي نحو الاستدارة، إن الاستدارة هي حالة من السرمدية الدالة على أن الله هو الأول، وهو الآخر، وهو المبتدأ وهو المنتهى، والتدوير في كل فن إنما هو فطرة إيمانية، فطر الله الناس عليها دون أن يشعروا، وقد رأيت عيونهم، وأدركت حواسهم تجليات خلقه في كل ما هو منحن مستدير أو نحو المستدير، حتى في الخلقة البشرية، والخلقة الحيوانية، وقطرات المياه.

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلاليها وتحركت إلى موضع بالفناء ودخلته، وسرعان ما جاءنى الراهب الذي استقبلنى فى المساء الفائت ليوقظنى، فلما وجد أننى أفقت، ألقى إلىّ بتحيةة الصباح، ودعانى لتناول وجبة فطور، فتبعته إلى حيث الموضع الذى دخله الرهبان، وهو المطعم، وكانت غرفة طويلة ضيقة، لها سقف مقبب، به دكة حجرية منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها، وكان الرهبان جالسين على أطراف ذلك، فلما دخلت عليهم وحبيتهم وجلست، بدئ الطعام، وكان أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتونا، وزيتاً، ثم إن أحد الرهبان أخذ فى تلاوة ما تيسر من الكتاب المقدس، فأطرقت نأدياً، وأنا أكل مثلهم حتى انتهى.

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلاً ونتحدث، وبينما نحن نسير أخبرنى أنّه أدن لى بالدخول على ثاونا، بعد أن أعلموه باسمى وأيقنوا

معرفته لى، ورغبته فى ملاقاتى، لكنّه ليس على ما يرام من الصّحة، وأنّه تسلسل فى المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيوخوخة واعتلال قلبه، لذا يفضّل أن أوجز مقالتي معه، ولا أنزيد فى الكلام، كما نصحنى بالأأرتاع أو أضطرب، إن هو لم يجاوبنى بالحديث، أو تخالط كلامه معى، فلما سمعت ذلك أو شكت على البكاء، وطمأنت الرجل بأننى سأكون عند حسن ظنه ولسوف أمتثل لنصحه هذا.

أدخلونى قلاية بالحصن، ضمن مجموعة من القلايات، قيل لى إن قوماً من المريس - أى أهل قبلى - يقيمون فيها منذ زمن، فلما ولجت من بابها، وجدت شيخاً راقداً على سرير من خشب الجميز، ليس تحته إلا فرش من وبر، فما أن تبينته على ضوء الصباح الساطع من كوة القلاية، حتى رحت أرتعش، وسرعان ما خطوت نحوه، وسجوت إلى جانبه وأنا أهمس بصوت مضطرب ملهوف: ثاونا !! عزيزى ثاونا ! ولم أتمالك نفسى فانخرطت فى بكاء شديد، بين ذهول الرهبان، ودهشتهم مما يرونه، وبقيت حيناً أهمس باسمه، وأناديه دون أن يردّ، فاقتربت من أذنه، ورحت أقول له بصوت راج:

- ثاونا، إننى بدير!! ألم تقل لى اتبعنى إلى برية هبيب؟ لقد تبعتك يا عزيزى، وها أنا الآن أقف بين يديك. ثم إنى أخذت أنتحب بمرارة، وقد عز على أن أرى ثاونا وهو على هذى الحال من عدم التيقن وغياب العقل، وهو الرجل الحكيم، النجيب، الفطن، الذى عرفته فى زمن من أعز أزمنتى على نفسى، فلما تزايد نحيبى وجدته يحرك رأسه ناحيتى بصعوبة بالغة، ويقول:

- أخى العزيز بدير.. أنت هنا حى ترزق؟! أحقأ ذلك؟ أم إننى أهرق وأهذى؟!

مددت يدى ووضعتها على وجهه ليتيقن من حقيقتى، وسرعان ما انهمرت دموعه هى الأخرى، وأضاف بوهن:

- حمدا للرب أنه قدر لى لقياك مرّة أخرى! هذه معجزة ربانية وبركة من بركات الشهيد أبو مقار!



رفع يديه بصعوبة وأخذ يضرب، ثم راح يسألني عن نفسي وأحوالي وما جرى لي بعد أن فقدني في بركة هبيب، فرحت أقص عليه ما كان من أمري، وكان الرهبان قد تركونا وانصرفوا، بعد أن نبهوا علينا ألا يكثر الكلام حرصاً على فؤاده، وحتى لا تأتيه نوبة من نوبات علته التي تفاجئه بين الحين والحين، ثم إنه راح ينظرني ملياً، ويتأمل حالي، وشعرت أنه تعجب من لبسي لذلك المئزر البالي والقميص، وما عليه هيئتي من تشوش، وعدم هندام، ثم إنه تأمل عنقي طويلاً، وقال فجأة:

– أين صليبك يا بدير، لماذا لا أرى صليبك على صدرك؟!

قلت بسرعة وبصوت هادئ واثق:

– ولهذا جئتك يا أخى العزيز أيضاً، إذ أردت أن أدعوك إلى ديني، فأنت من أحب الناس إلى قلبي، والإسلام هو دين رحمة، ونور، ومحبة وبر، والناس فيه سواسية كأسنان المشط، والله ما وجدت فيه إلا كل عظيم، ونبيل، وخير، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزي ثاونا، والله إنك لأقرب الناس إلى مهجتي وفؤادي، فليتك تأتي إلى ما أنا فيه، وتؤمن بما آمنت به.

رغم تعبهِ ومرصنه، ظلّ ثاونا يستمع إلى بآذان منتبهة صاغية، وبدا لي وكأنه يفكر في كل كلمة أقولها، ولم يقاطعني مرة واحدة، ولم يبد شيئاً من الغضب والانفعال وعندما انتهيت، صمت وقتاً قبل أن يقول:

– نحن لا نختار يا بدير، لكن الرب هو الذى يختار لنا، ونحن عبيد مشيئته، إننى فرح بك؛ لأنك تسعى لدفع الناس إلى ما تراه صحيحاً، خيراً، لكننى حزين لأنك تركت دين أهلك وآبائك، وخرجت من جنة الكنيسة، ودرب المسيح.

كانت عيناه قد بدأت بالدمع، وبان لي جدّ بائس وحزيناً، فرحت أمسك بيده وقد أخذت في الارتعاش، ورحت أربت عليها بينما كان يواصل كلماته بصعوبة:

– إننى حزين ومغموم يا بدير، لكن لك ما تراه، طالما أنك وجدت في دينك الجديد ما يضعك على طريق الحق والعدل، أما أنا يا عزيزي، فلا أظن أنى تارك

دينى، ولا أظن أننى مستطيع اعتناق دين سواه، فلقد عشت عمرى كله، تأخذنى الهواجس والأفكار، وتتنازعنى الفلسفات حتى صرت مسيحياً تاوضوسياً، وسوف أموت وأنا على ما أنا عليه، وليرحمنا الرب جميعاً يا ولدى الطيب، ويغفر لى ولك، وقد قدر هو وشاء.

تأثرت غاية التأثير لكلامه، وزال همّ قد كتّمته فى نفسى طوال طريقي إليه، إذ كنت أخشى هذه اللحظات، لحظات مواجهتى له بدينى الجديد، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبي كذلك، فثاونا ليس بالرجل الهين الذى يسهل التأثير عليه، وهو لا يعتنق عقيدة، إلا بعد أن يتفحصها ويمحصها ويقلب فيها بعقله على كل وجه من وجوها، وهذا لا يشك إلا ليوقن، ولم يكن ممن يأخذون الأمور على علاتها أبداً.

لم أكن أريد أن أكثر عليه بمزيد من الكلام، لكنى شعرت أنه راغب فى الحديث إليّ، والبوح بما يداخله عندما قال:

- أو تعلم يا بدير؟! بعد أن عشت كل هذه الحياة، وبلغت ما أنا عليه من العمر، لم أعد أهتز كثيراً لما يحدث حولى من أمور، وبت لا أفكر فى الطرائق، قدر تفكيرى فى الغايات، لقد أدركت منذ هروبى من الأراضى الموحلة، أن لا فائدة فى الدنيا، طالما غاب العدل بين الناس، وطالما بقيت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوى، وكنت أتساءل، بعد كل تلك الحرب الغشومة التى رأيتها ببيؤى العين: أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها، سواء أكانوا - مسيحيين أم مسلمين - مستحقين لدخول الجنة؟ ألا تظن يا بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعاً، وهم الذين لم يجدوا عدلاً أبداً فى هذه الدنيا، وقد جاعوا وتعروا، وباعوا عيالهم وأهلهم؟! ألا تظن يا بدير أن الله سوف يشملهم بعطفه ولطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطاً؟

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا: لقد تركت أنا الدنيا وفارقتها لأكون هنا متفرغاً لخدمة المسيح بعيداً عن الناس، وها أنت تعود إلى بعد إسلامك، وليس عليك إلا قميص، ومئزر، ونفق تستند إليه، قل لى بالله عليك ما الفرق بيننا؟! أليس

عزوفك هو عزوفى؟ ورفضك البقاء على ما هى عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعنى أيضاً لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزى فى هذا العالم، وأنه لم يتبق لنا إلا محبة الله؟!

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه، وقويت عزيمته بعضاً من آيات دستور الإيمان، ويقول:

«نور من نور إله حق، من إله حق، مولود غير مخلوق، خالق السماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، الله ضابط الكل، الذى به كان كل شيء».

ثم راح يردد طويلاً:

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى.

أقمت فى الدير أياماً ملازماً لثاونا، قائماً على خدمته، وقد عزَّ على أن أغادر الدير وهو على هذى الحال من الضعف، وشدة المرض، وكان ثاونا قد أطلع الرهبان على حقيقة أمرى وإسلامى، فعاملونى جميعاً أطيب معاملة، وأتوا لى خصيصاً بزريرة طاهرة من وبر الجمل، حتى تكون لصلاتى، وكان جلهم من القانتين المؤمنين بالسيد المسيح، والمخلصين فى إيمانهم، المنصرفين إلى عالم الزهد، بالصوم والصلاة، وكثرة القراءة والتلاوات الإيمانية، كما شهدت، ثم إن بعضهم أخبرنى لما سألت، بأن ثاونا استطاع الهرب وقت فتنة البشمور، وحرص على الاختباء فى موضع من المواضع حتى هدأت الأمور، وبعد ذلك كره العودة إلى بيعة قصر الشمع، وأثر حياة العزلة والزهد، فارتحل إلى هذا الدير الذى رَسَم فيه راهباً، فبقى فيه سنوات طويلة، ولم يخرج منه إلى الريف أو الإسكندرية أو مصر، وكان كثير المكوث عند المغارة التى بالدير، والتى فيها آثار الآباء البطاركة، وهم مرقس الإنجيلى الأول الذى رأسه عند أولاد فهد بمدينة الإسكندرية، وجسده فى البندقية، وإنيانوس المدفون فى بيعة جرجس عند مسلة فرعون بالإسكندرية، وأنه ما خرج إلا إلى القلالى القريبة والتى فى البهلس، أى الوادى، فكان يبخّر على الآثار المقدسة فى كل صلوة، ويوقد عليهم قنديلاً فى كل

يوم وليلة، وكان يطيل الوقوف في رمارم الرهبان، أى موضع وقوفهم، ويبقى على هذه الحال من التنسك زمناً.

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشوبينة، أى سكن تعرف بضورتاوس لا يقدر واحد من الرهبان بها أن يقول الليلويلا إلا من حفظ المزامير كلها ظاهراً، من غير كتاب، وكان هذا السبب فى أن يعرف الرهبان المزامير ظاهراً، وقد رأيت كذلك المغطس الذى تظهر فيه الآية العجيبة فى ليلة كل سنة، وهو أن ينظف من الرمل الذى يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماءً، ولا يعرف من أين أتى. وكان - فيما تقدّم - كل من به خطية ويغطس فيه يظهر على جسده لبس مثل لبس السمك، وأيضاً لو اجتمع فيه كل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر، وحواليه قلالي الرهبان وليس فيها شجر ونخيل، ولا ينبت فيه زرع.

وكان فى يوم من الأيام أن أخبر الرهبان بأن النيل لم يزد زيادة كافية، وذلك بعد الخامس والعشرين من أبيب، فعمل الرهبان، وكما جرت العادة، لقان ماء وصلّوا عليها كما يعمل فى عيد بولس، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر، ويسكب فيه فيزيد ماؤه، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن.

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفُقد الأمل فى برئه، بعد أن خاب معه كل علاج، وكان شيوخ الرهبان قد جرّبوا معه العديد من العقارات، والأعشاب، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه، ومعرفة نفس القلب، الذى منه تنتشر الأوعية فى جميع الجسم، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه، وفخذه، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه، وذراعيه، وفخذه، لأن القلب تجرى أوعيته فى جميع هذه الأعضاء، وهو مركز أوعية الجسم، وكانوا يختبرون نفسه الحامض، الذى يسرى بجسده، حتى يعرفون مدى فساد دمه، خصوصاً عندما كان يشرب الماء؛ لأن الوعاء المسمى باللغة القديمة (آخذ) إذا سدّ بالبطن ذهب الماء إلى القلب، والعيون وكانوا يختبرون مدى صمّ أعضائه، وإذا ما طرأ السكون عليها، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدّره، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دوماً فى الديارات، والتى يتناقلها الرهبان

جيلاً عن جيل، وذلك دون انقطاع القراءات الجليّة، والتعاويز السحرية القديمة، ومراقبة أوعية الأذان الأربعة، التي يسرى نفس الحياة في اثنين منها بالأذن اليمنى، ونفس الموت في آخرين باليسرى.

وظلّوا على هذى الحال زمناً، وأنا أبيت عند قدميه، ساهراً عليه، ورغم سوء حالته فقد كان يطلب منى دوماً أن أحدثه عن ترحالي، وما صادفته من أحداثا ومحن، فبقيت أقصّ عليه كل ما جرى لى، وكيف حاولت أن أعمل ذات يوم على إبراء الأب توما فأشرت عليهم بعلاج حرقه بتلك التعويذة القديمة التي سمعت ثاونا يتلوها يوماً، وقت اندلاع النار بسبب ريح الحسومات فى بعض أعشاش أصحاب المعادى عند النيل، وقد ذهبنا لإنقاذ المحروقين من الناس بالأسرية، والأدوية، وهذى التعويذة القديمة وكان ثاونا يطلب منى أن أكشف له عما أنا فيه من إيمان وزهد بعد دخولى فى دين الإسلام، وفى إحدى المرات سألتنى - رغم تزايد المرض عليه - وقد بدا أن أمرى يحيرّه، فقال وهو يتنفس بصعوبة:

- قل لى يا بدير. هل ازدددت يقينا بالله بعد دخولك الإسلام؟ وهل شعرت أنك تطهّرت من كل خطيئة، وداخلت روحك منتهى السكينة، ولزمتك الاطمئنان؟

لا أدرى، ما الذى كان يتوجّب على الردّ به على سؤاله هذا، فقد تحيرت، وكنت أريد التعبير صدقاً بأقوى الكلمات عما بداخلى. فكرت ثم قلت:

- الحق أقول لك يا ثاونا. كان كل يوم يمر علىّ قبل إسلامى، أصبح فيه مهموماً، متبلبل الفكر والخطر، تعذبنى روحى بذكريات فتوتى، وشبابى الأول. كانت صورة أمونة لا تغيب عن مخيلتى أبداً، وعندما تمتثل بعينى، أضيع بين عذابى بحبها، وحزنى لموتها، وكنت أتعدّب أكثر كلما تذكرت سوّلا وما كان من أمرى معها، فأكره نفسى وضعفى ونزقى، وغياب روحى عن كبح شهوات الجسد. كنت قد اعترفت قبل إسلامى فى الكنيسة مراراً، لكن الاعتراف لم يباعد بينى وبين الألم، ولم ينسئ شعورى بالإثم والخطيئة، ولكنى عندما سلكت سلوك

العارفين، وحزمت أمرى أن أسلك مع السالكين، ووصلت إلى: لا هو إلا هو، ونسيت «كان»، وثبتت في «يكون»، غابت عذباتى، وبعدت مسافاتى فكل شيء هالك إلا وجه الله الكريم، وها أنا قد أتانى النور الكاشف فسكنت نفسى، وزال عني همى ويؤسى.

ظل ثاونا يستمع إلى كل ما أقول، وأظن أنه جاهد طويلاً، قبل أن يقول لى آخر ما قاله لى فى هذى الدنيا :

- عندما تودعنى وتخرج من هنا، لا تنس أن تقول كل ذلك للناس، فإنما هم فى حاجة إلى مثله، حتى تطمئن نفوسهم وتهذأ أرواحهم، والزمان يغشى ذاكرتهم دوماً، ويعمل عمله فيهم مباحداً فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية، قل لهم ذلك حتى ولو ضربوك أو آذوك، واصبر عليهم حتى يمسه شيء من صدق إيمانك ويقينك.

مرت أيام قليلة على ذلك، ثم أخذ عزيزى يدخل البرزخ الموصل بين الحياة والموت، فغاب عن وعيه تماماً، وصعب علينا أن نسقيه حتى شربة الماء، ثم شاء الله أن تصعد روحه ذات يوم، عند أفول الشمس وغروبها عن الكون، وكنت ساعتها قد تركته قليلاً لأتوضأ وأتهى للصلاة، وإذ بناقوس الدير يدق دقات حزينة متقطعة، فخرج الرهبان جميعاً من القلايات ليواتونه، ويودعونه الوداع الأخير بالنظر، والصلاة على روحه الطاهرة.

ظل جسد ثاونا فى موضعه طوال الليل محاطاً بالشموع، وقد وضع تحت رأسه رغيف خبز، وحفنة ملح، وفقاً لعادتنا منذ أقدم الدهور، ومكث الرهبان حوله يقدسون، ويقرءون القراءات الإيمانية الجليلة، وكنت خلال ذلك أفف بعيداً، أنتم بما تيسر من ذكر العزيز الحكيم، وأترحم على روحه داعياً له بالرحمة والنور، متمنياً على الله أن يحشره فى زمرة الأبرار الصالحين.

ثم إنى بقيت فى الدير أياماً بعد وداع ثاونا إلى مثواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا على بالبقاء وقتاً حتى يجهزوني - قدر استطاعتهم - بما يلزم المرتحل فى

الصحراء، فوفروا لى برذوناً لأركبه، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئاً مما لثاونا على سبيل التذكرة، فسمحوا لى أن أحفظ معى إنجيلاً قديماً كان له، خط على رق، طالما كان عزيز عيني يقرأ لى من آياته ويبصرنى بمعناها الجليل.

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيداً فى برية هبيب، وربما كان ذلك فى يوم من أيام ربيع الثانى، غديت سيرى، حتى أشرفت على بعض مواطن العمران، فدخلت قرية من القرى، ما أن أبصرنى بعض من صبيانها، كانوا يلهمون فى طرقاتها، حتى توقفوا عما هم فيه، ويبدو أن صورتي المشعنة، وهيئتي المترية، ورثاث حالى، قد راعهم وأثار دواخلهم، فراحوا يلتفون حولى، متصاحكين، ساخرين، ثم أخذوا يرموننى بحصيات وأحجار، فحثت الدابة على الإسراع لأبتعد عنهم، وأنا أدعو الله أن يرحمهم، ويغفر لهم، ورحت أنشد وقد أخذت بوجد، وأصابنى شوق، وتزلزلت أعطافى، وترعشت أطرافى:

حسبى الله توكلت عليه من نواصى الخلق طراً بيديه

ليس للهارب فى مهريه أبداً من راحة إلا إليه

رب رام لى بأحجار الأذى لم أجد بداً من العطف عليه





تم الجزء الثانى من «البشمورى» رواية روايات :

القزوينى	أسد رستم
داود الأنطاكى	ألفريد بتلر
نيكىتا إيليسيف	الإمام أبو حامد الغزالى
الأنبا إسذورس	الراهب صموئيل السريانى
علاء الدولة السمنانى	القس يوحنا حنين
فخر الدين الرازى	آدم ميتز
يعقوب ليستر	ابن العبرى
صالح أحمد العلى	السيد طه السيد أبو سديرة
ابن سلمة النحوى	الشهرستانى
الحسن بن أحمد بن على الكاتب	القاقشندى
فريز صموئيل	عبد الرحمن عبد الله شيخ
محمد عبد الغنى الأشقر	سعاد ماهر
محمد عبدالهادى أبو ريذة	الطبرى
رشيد الدين الهمذانى	التيفاشى
عادل محى الدين الألوسى	الأب يوسف قوشاوجى
الجاحظ	زيجريد هونكه
يوسف الشربينى	محمد الكشناوى العلانى
و.ج. دى بورج	فاضل أحمد الطائى
نبيل محمد عبد العزيز	الحسن بن زولاى
على السيد على	أحمد كمال
ابن النديم	المقرىزى
أبو صالح الأمنى	ياقوت الحموى
جمال الغيطانى	الدميرى
وآخرون	إبراهيم مذكور
	السهروردى



صدر من هذه السلسلة:

---

١ انفجار جمجمة «رواية»..... إدريس على

٢ البشموري «رواية روايات»..... سلوى بكر

## هذه الكاتبة



سلوى بكر

• مواليد: القاهرة ١٩٤٩/٦/٨ .

- بكالوريوس في إدارة الأعمال - كلية  
التجارة - جامعة عين شمس -  
القاهرة ١٩٧٢ .

- بكالوريوس في المسرح - المعهد  
العالي للفنون المسرحية - قسم النقد  
القاهرة ١٩٧٦ .

- عملت مفتشة تعليم في وزارة  
التعليم لمدة ٦ سنوات - القاهرة .

- عملت في الصحافة بالخدمة مسرحية  
ومسرحية وأخرى لمدة خمس سنوات  
- لبنان - قبرص .

- فقرعت بعد ذلك كتابها القصص  
والرواية .

• أعمال منشورة باللغة العربية  
في مجلتي الرئيس (فصل)  
قصيرة (١٩٨٦) .

- مقام عطية (رواية وثلاث قصص  
قصيرة) ١٩٨٧ .

- عن الروح التي سرقت تدريجيا  
(فصل قصير) ١٩٨٦ .

- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء  
(رواية) ١٩٩١ .

- عجين القلحة (فصل قصير)  
١٩٩٢ .

- وصف النيل (رواية) ١٩٩٢ .

- أراب: رواية قصيرة وفصل  
١٩٩٤ .

- إقالات متحركة فصل ١٩٩٨ .

- ليل ونهار رواية ١٩٩٧ .

- البوم والبرق رواية ٢٠٠١ (الجزء الثاني) .

- الوالدات رواية ٢٠٠١ (الجزء الأول)  
الإنجليزية - الألمانية - الإيطالية  
الفرنسية .

- فصول روايتها دولة السحرة  
والسحرة رواية ٢٠٠٢ .

- تليفزيون، وكثرت رايها العربية  
الذهبية، إلى قيام سيماني

السمة اللافتة الأولى لكتابة سلوى بكر أنها تعرف كيف تحيل  
الحدث واللحظة والمشهد الثقافي إلى شئ أشبه بالإيقاع الموسيقى،  
فتذيب مادته وتنسجه فى خيوطه الدقيقة، لكنها تدرك بفطنة إبداعية  
عالية أن هذا النسيج لن يتم ما لم تتعاكس وتشتبك تياراته فى احتواء  
شفيق تارة، وصراع مرير مرة أخرى، بما يكفل تقديم منظور متماسك  
للعالم والمجتمع والإنسان.

إنها تجمع بين تحرر الروح ومحافظة اللغة، بين تقدمية الموقف  
الاجتماعى، ورسانة التعبير اللغوى، لتقيم انسجاما بين نسق الحياة  
والخطاب الإبداعى المشاكل لها.

د. صلاح فضل

Bibliotheca Alexandrina



0563718